سورة لقمان

(مكية كلها إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ [لقمان: ٢٧] الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان: ٤] لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهي ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ .

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] إشارة إلى كونه معجزة وقال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الروم: ٥٨] إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ولم يؤمنوا بها، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

فقوله ﴿هُدًى﴾ أي بيانًا وفرقانًا، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [البقرة: ١، ٢] وكما قيل هناك: إن المعنى بـ(ذلك) هذا، كذلك قيل بأن المراد بـ(تلك) هذه، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك: إن (تلك) إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التي نزلت مع ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لم تكن جميع الآيات نزلت فقال (تلك) إشارة إلى الكل، أي آيات القرآن تلك آيات .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] ولم يقل: الحكيم، وههنا قال: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٢] فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وقال هناك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فقوله: ﴿هُدًى﴾ في مقابلة قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ في مقابلة قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكم

كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]أي ذات رضا.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقال هاهنا ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئًا آخر قال: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد ههنا رحمة قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المتقين الشركَ والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتي بالإيمان والمتقي هو التارك للكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]ومن جَانَبَ الكفرَ كان متقيًا وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا وله الزيادة لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ولم يقل: يؤمنون، لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنًا والمحسن هو الآتي بحق الإيمان، ويلزمه أن لا يكون كافرًا، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبيينًا ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قد ذكرنا ما في الصلاة وإقامتها مرارًا وما في الزكاة والقيام بها، وذكرنا في تفسير الأنفال في أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة، وترك التشبه لازم على العبد أيضًا في أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه، والزكاة تشبه بالسيد فإنها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات، والتشبه لازم على العبد أيضًا في أمور، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد، وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد، وبهما تتم العبودية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه: الأول: أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح، الثاني: هو أن الحديث إذا كان لهوًا لا فائدة فيه كان أقبح، الثالث: هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال: أحمضوا، ونقل عن النبي ﷺ أنه قال: «رَوِّحوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً»[١]. رواه الديلمي عن أنس مرفوعًا ويشهد له ما في مسلم

(١) أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٩٣)، حديث رقم (٦٧٢) من طريق أبي طاهر المقدسي حدثنا الموقري عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ قال . . . فذكره. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٥٢٤)، حديث رقم (١٤٠٠).

وقال: رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي عن أنس رفعه وفي رواية (القلب) بالإفراد ويشهد له ما في مسلم وغيره من قوله ﷺ «يا حنظلة ساعة وساعة» وفي المناوي قال أبو الدرداء إني لأجم فؤادي ببعض الباطل أي اللهو الجائز لا =

«يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً»[1] والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة، والخواص يقولون: هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فإن الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كان فعله أدخل في القبح.

ثم قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزوًا أولئك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ قوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى، فإنه لا يكرمه. فقوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر، فإن عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

أي يشتري الحديث الباطل، والحق الصراح يأتيه مجانًا يعرض عنه، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئًا، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجانًا ما كانوا يسمعونها، ثم إن فيه أيضًا مراتب.

الأولى: التولية عن الحكمة وهو قبيح.

والثاني: الاستكبار، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنيًا عن الحكمة حتى يستكبر عنها؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله؟

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة.

الرابع: قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أدخل في الإعراض. ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي له عذاب مهين بشره أنت به وأوعده، أو يقال: إذا كان حاله هذا ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

=نشط للحق، وقال علي رضي الله عنه: أجموا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان، وذكر ﷺ القرآن والشعر فجاء أبو بكر فقال أقراءة وشعر فقال نعم ساعة هذا وساعة ذاك.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٥٠).

والترمذي في (سننه) (٤/ ٦٦٦)، حديث رقم (٢٥١٤)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤١٦)، حديث رقم (٤٢٣٩)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٧٨)، جميعًا من طريق سعيد بن إياس الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي . . . به.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار، فهذا له مراتب من الإقبال والقبول والعمل به، فإن من سمع شيئًا وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف: إحداها: توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب، الثانية: تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة، وإنما ينبه عليها تنبيهًا، الثالثة: قال: عذاب، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، الرابعة: أكد ذلك بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ولم يذكره هناك، الخامسة: قال هناك لغيره: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ﴾ وقال ههنا بنفسه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، ثم لم يقل: أبشركم به، لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] ولولا قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ لما عظمت البشارة، ولو كانت ﴿مِّنْهُ﴾ مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة فإن قيل: فقد بشر بنفس الجنة بقوله: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] نقول: البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢] والنزل ما يهيأ عند النزول والإكرام العظيم بعده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغي، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر.

ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

بين عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال: إنها مبسوطة كصفيحة مستوية، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال: إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين، والغزالي رحمه الله قال: نحن نوافقهم في ذلك فإن لهم عليها

دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز، وإن كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله، فضلاً من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحًا، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] والفلك اسم لشيء مستدير، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع، وإذا علم هذا فنقول: السماء في مكان وهو فضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم: المعنى أن السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنًا والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال: ههنا وهناك على هذا، قالوا: إن من يقع من شاهق جبل فهو في الهواء في حيز إذ يقال له: هو ههنا وهناك، وليس في مكان إذ لا يعتمد على شيء، فإذا حصل على الأرض حصل في مكان، إذا علم هذا فالسماوات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه راجع إلى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد، والثاني: أنه راجع إلى العمد أي بغير عمد مرئية، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي جبالاً راسية ثابتة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أي كراهية أن تميد وقيل: المعنى أن لا تميد، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، ثم قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلامًا طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال: زيد كذا وكذا، وقال خالد كذا وكذا، وقال عمرو كذا ثم إن بكرًا قال قولاً حسنًا، يستطاب لما قد تكرر القول مرارًا. وأما الحكمة فمن وجهين أحدهما: أن خلق الأرض ثقيل، والسماء في

غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة، لأن لها اختيار، فنقول: الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعًا فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارًا، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الثاني: هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان، متكثرة في كل مكان، فأسنده إلى نفسه صريحًا ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل جنس، وكل جنس فتحته زوجان، لأن النبات إما أن يكون شجرًا، وإما أن يكون غير شجر، والذي هو الشجر إما أن يكون مثمرًا، وإما أن يكون غير مثمر، والمثمر كذلك ينقسم قسمين، وقوله تعالى: ﴿كَرِيمٍ﴾ أي ذي كرم، لأنه يأتي كثيرًا من غير حساب أو مكرم مثل بغض للمبغض.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بين أو مبين للعاقل أنه ضلال، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فإنه يكون غاية الضلال، فالمقصد هو الله تعالى، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب. وأما الذي تولى لا يصل إلى المقصود أصلاً، وإن دام في السفر، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسم في عبادة غير الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم بإشراك من لا يخلق شيئًا بمن خلق كل شيء بقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى، وهو أن اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهارًا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه

السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ عبارة عن توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى، فنقول: حصول العمل على وفق المعلوم، والذي يدل على ما ذكرنا أن من تعلم شيئًا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيمًا وإنما يكون مبخوتًا، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال: إنه حكيم، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة، لعدم علمه به أولاً، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال: إنه حكيم، وإن علم ما يكون في فعله، ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فإن (أن) في مثل هذا تُسَمَّى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو كذلك، لأن من جملة ما يقال: إن العمل موافق للعلم، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقًا لعلمه وكان حكمة، وإن أهمل الأهم كان مخالفًا للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضي، ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه، وفي الآية مسائل ولطائف، الأولى: فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب: أن قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف.

المسألة الثانية: قال في الشكر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بصيغة المستقبل، وفي الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد، كقول القائل: من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر، فنقول: فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله، بل أبدًا يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهًا على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام، فقال بصيغة الماضي.

المسألة الثالثة: قال تعالى هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ﴾ بتقديم الشكر على الكفران، وقال في سورة الروم: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]فنقول: هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ

﴿أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وههنا الذكر للترغيب، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ [الروم: ٤٤] يحقق ما ذكرنا أولاً، لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ [الروم: ٤٤]، وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بلفظ المستقبل وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن حمد الحامدين، حميد في ذاته من غير حمدهم، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامدًا لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه وحين جعلناه واعظًا لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره فقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ﴾ إشارة إلى الكمال وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] في عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله، وأما أنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه، ولا يجوز أن يكون موضعه، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطي عمرًا يكون ظلمًا من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودًا أصلاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة، بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين، ثم بين السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ يعني لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ أي صارت بقدرة الله سبب وجوده ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، أي صارت بقدرته أيضًا

سبب بقائه، فإذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة، فإن الخدمة لها صورة العبادة، فإن قال قائل: وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الأم، فنقول: خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ ثم بين الفرق وقال: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة، فإن إلي المصير أو نقول: لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال: الجزاء عليَّ وقت المصير إليّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما، وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت، وقال ههنا ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، يعني صاحبهما بجسمك فإن حقهما على جسمك، واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك، فإنه مربي عقلك، كما أن الوالد مربي جسمك.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

لما قال: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقع لابنه أن ما يفعل في خفية يخفى فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أي الحسنة والسيئة إن كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَتَكُن﴾ بالفاء لإفادة الاجتماع يعني إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب.

المسألة الثانية: لو قيل: الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها؟ ولأن القائل لو قال: هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو، لا يصح هذا الكلام لكون ابن

عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا؟ فنقول: الجواب عنه من أوجه أحدها: ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء، والثاني: ما قاله الزمخشري وهو أن فيه إضمارًا تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض، والثالث: أن نقول: تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز، أما الثاني فلما بينتم أن من قال: هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو، لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها، وأما الأول فلأن قول القائل: هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها، صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول: خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدًا، ومنها أن يكون في ظلمة، ومنها أن يكون من وراء حجاب، فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيرًا قريبًا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العبادة، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط، فقوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ إشارة إلى الصغر وقوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ إشارة إلى الحجاب وقوله: ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله: ﴿أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أبلغ من قول القائل: يعلمها الله، لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يظهرها الله للأشهاد وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي نافذ القدرة ﴿خَبِيرٌ﴾ أي عالم ببواطن الأمور.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصًا، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت.

ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم، فإن قال قائل: كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فإنه أول ما قال: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ﴾ ثم قال: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف، فإن المشرك بالله لا يكون نافيًا لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركًا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم، وأما ههنا فأمر أمرًا مطلقًا

والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول، كما تقول: أكلي في النهار رغيف خبز، أي مأكولي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

لما أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له، والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبرًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تبخترًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر ﴿فَخُورٍ﴾ يعني من يكون مفتخرًا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم قال: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مكملاً فقدم الكمال، وفي طرف النفي من يكون متكبرًا على غيره متبخترًا لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه، وأما من يكون متبخترًا في نفسه لا يتكبر، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر، لأنه لو قدَّم نفي التبختر للزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي عنه. ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل، لأن من لا يفطر لا يأكل، ويجوز أن يقال: لا تأكل ولا تفطر، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل، ولقائل أن يقول: إن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أي لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحدًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

لما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف، وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدًا فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي كن وسطًا بين الطرفين المذمومين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ فنقول: نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد،

ولا يعلمه أحد والذي يظهر: وجوه الأول: هو أن الإنسان لما كان شريفًا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرًا فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيًا إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه، وبعض الحيوانات يشارك الإنسانَ في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها، والإنسان يميز البعض عن البعض فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر، الثاني: هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله، وقد أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦]أي أصلح ضميرك فإن الله خبير، بقي الأمران فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال، الثالث: هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد في الأوصاف الإنسانية والأوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه، والأوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه. فقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إشارة إلى المكارم المختصة بالإنسان فإن الملك لا يأمر ملكًا آخر بشيء ولا ينهاه عن شيء. وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الذي هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. وقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى المكارم التي هي صفة الحيوان، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لِمَ ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي؟ نقول. أما على قولنا: إن المشي والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشي إليه فذاك، وإلا فيوقفه بالنداء، فنقول: رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن. وأما السرعة في المشي فلا تؤذي أو إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار، ولأن المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي، وأما على قولنا الإشارة بالشيء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى.

المسألة الثانية: كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيرًا؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم في أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب الثاني.

المسألة الثالثة: أنكر هو أفعل التفضيل فمن أي باب هو؟ نقول: يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه، بمعنى أشدها طاعة فإن أفعل لا يجيء في مفعل ولا في مفعول ولا في باب العيوب إلا ما شذ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول، وأحمق من فلان من باب العيوب، وعلى هذا فهو في باب أفعل كأشغل في باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذًا من نكر الشيء فهو منكر، وهذا أنكر منه، وعلى هذا فله معنى لطيف، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

لما استدل بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠] على الوحدانية، وبين بحكاية لقمان أن معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة، ولو كان تعبدًا محضًا للزم قبوله، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مرارًا أن الملك يخدم لعظمته، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضًا، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه في الأرض الرواسي. وذكر بعض النعم بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [لقمان: ١٠] ذكر بعده عامة النعم فقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي سخر لأجلكم ما في السموات، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده، وسخر ما في الأرض لأجل عباده، وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ وهي ما في الأعضاء من السلامة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وهي ما في القوى فإن العضو ظاهر وفيه قوة باطنة، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر، وفي كل واحد معنى باطن من الإبصار والسمع والذوق والشم، وكذلك كل عضو، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائمًا، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله: ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يكون إشارة إلى النعم الآفاقية، وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ يكون إشارة إلى النعم الأنفسية، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولاً منقولاً، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغًا معقولاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن

الناس من يجادل في الله ويثبت غيره، إما إلهًا أو منعمًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هاد، ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من إلهام ووحي، فقال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُ﴾ ذلك المجادل لا من علم واضح، ولا من هدى أتاه من هاد، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتي من لدنه علمًا كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] والثاني: إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] والثالث: إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] وقال في هذه السورة: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام، والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين، فقال تعالى: يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفًا، ولا بهدى أرسلناه إليه وحيًا، ولا بكتاب يتلى عليه وعظًا. ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف، فلو قال: ولا كتاب، لكان لقائل أن يقول: لا يجادل من غير كتاب، فإن بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم، فقال: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن ذلك الكتاب مظلم، ولما لم يحتمل في المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإن النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء، ثم إن ههنا شيئًا آخر وهو أنهم قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ يعني نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزًا، ويحتمل أن يكون حرامًا، وهم تعاطوه، ويحتمل أن يكون واجبًا في اعتقادهم والقول بين الدلالة، فلو سمعنا قول قائل: افعل، ورأينا فعله يدل على خلاف قوله، لكان الواجب الأخذ بالقول، فكيف والقول من الله والفعل من الجهال، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ استفهامًا على سبيل التعجب في الإنكار يعني الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب، وهم مع هذا يتبعون الشيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لما بين حال المشرك والمجادل في الله بَيَّنَ حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الإيمان وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إشارة إلى العمل الصالح فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٨].

قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات. **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال هاهنا: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]فعدى هاهنا بإلى وهناك باللام، قال الزمخشري: معنى قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]أي جعل نفسه لله سالمًا أي خالصًا والوجه بمعنى النفس والذات، ومعنى قوله: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعًا إلى غيره ولم يزد على هذا، ويمكن أن يزاد عليه ويقال: من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص، يقول القائل: أسلمت وجهي إليك، أي توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١١١] فقال الله ردًا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]أي أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمنًا قليلاً تدخلون (النار) ومن كان بكليته لله لا يدخلها، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال: أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها، ثم بين كذبهم وقال: بلى، وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢]وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة. ثم قال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شيء عاقبته إليه فإذا حصل في الحال ما إليه عاقبته في عاقبته في غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي لا تحزن إذا كفر كافر فإن من يُكَذِّب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب، فقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾، فإن المرجع إلي فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم، وذات الصدور هي المهلك، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذابًا غليظًا فيضطرون إلى عذاب النار فرارًا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الأنبياء، وهو يتحقق بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

الآية متعلقة بما قبلها من وجهين: أحدهما: أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما في السموات والأرض، وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره، لكنهم لا يعلمون هذا، والثاني: أن الله تعالى لما سلى قلب النبي ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله، وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الإشراك فـ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور صدقك وكذب مكذبيك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ استعمالاً للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل: فلان يعطي ويمنع، ولا يكون في ضميره من يعطي بل يريد أن له عطاءً ومنعًا فكذلك ههنا قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لهم علم، وعلى الأول يكون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ له مفعول مفهوم وهو أنهم لا

يعلمون أن الحمد كله لله، والثاني أبلغ لأن قول القائل: فلان لا علم له بكذا، دون قوله: فلان لا علم له، وكذا قوله: فلان لا ينفع زيدًا ولا يضره، دون قوله: فلان لا يضر ولا ينفع.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ذكر بما يلزم منه، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلاً وشرعًا، أما عقلاً فلأن ما في السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلاً لأنها ممكنة، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب، وأما شرعًا فلأن من يملك أرضًا وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما في السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله. ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فيه معان لطيفة: أحدها: أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها، وثانيها: أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال: إنه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين، وحميد في نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون، وثالثها: هو أن السموات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني إلا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد، لاحتياجه إلى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد، وعلى هذا (يكون) الحميد بمعنى المحمود، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف، أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى، ويحتمل كونه عابدًا شاكرًا له.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وكان ذلك موهمًا لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة، ووجهها أن العجائب بقوله: كن، وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز. يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، ويقال للدواء في حق المريض: هذا شفاؤك، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمرًا

عجيبًا وصنعًا غريبًا لوجوده من غير أب، فإن قال قائل: الآية واردة في اليهود حيث قالوا: الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره، فقال: الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية، وقيل أيضًا إنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام: إنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وتقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل، وقيل أيضًا إنها نزلت ردًّا على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفد، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد. وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير، لأنها تدل على أن المراد الكلام، فنقول: ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا، لأنه إذا صلح جوابًا لهذه الأشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه، لا يقال: إنك جعلت الكلام مخلوقًا، لأنا نقول: المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب، وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى، واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه، ثم إن الآية فيها لطائف: الأولى: قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل: ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، ولا قال: ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم، إشارة إلى التكثير، يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلامًا، الثانية: قوله ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد، ثم قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر، وقوله: ﴿سَبْعَةُ﴾ ليس لانحصارها في سبعة، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة، والذي يدل عليه وجوه: الأول: هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال، لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام، ولأن الكواكب السيارة سبعة، وكان المنجمون ينسبون إليها أمورًا، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير، الثاني: هو أن الآحاد إلى العشرة وهي العقد الأول وما بعده يبتدئ من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات، إذا علم هذا فنقول: أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط، ولهذا يقال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف، فإذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التي هو العدد الأصلي تبقى السبعة القسم الأكثر، فإذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة، ولهذا فإن

المعدودات في العبادات من التسبيحات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة، والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيرًا للأمر على المكلف اكتفاءً بالقسم الأول، إذا ثبت هذا فنقول: قوله عليه السلام: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**»(١) إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها، ويحتمل أن يقال: إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير، ثم على هذا فقولنا: للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فإن فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها، والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واوًا، يقول الفراء: إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم في العرف، ثم بالثامن استئناف جديد، اللطيفة الثالثة: لم يقل في الأقلام المدد لوجهين: أحدهما: هو أن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ بينا أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله في البحر: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر في المعنى، والثاني: هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فإنه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لما ذكر أن ملكوته كثير أشار إلى ما يحقق ذلك فقال: إنه عزيز حكيم أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد وهو حكيم كامل العلم ففي علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مدادًا لما نفد ما في علمه وقدرته.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للمعشر وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى، كونوا، فيكونوا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ سميع لما يقولون بصير بما يعملون، فإذًا كونه قادرًا على البعث ومحيطًا بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يحتمل أن يقال: إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأطعمة)، باب: (المؤمن يأكل في معي واحد) (٩/ ٤٤٧)، حديث رقم (٥٣٩٦) من طريق الأعرج . . . به، ومسلم في كتاب (الأشربة)، باب: (المؤمن يأكل في معي واحد) (٣/ ١٨٥/ ١٦٣٢) من طريق أبي صالح . . . به، جميعًا عن أبي هريرة . . . به.

الخصوص بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إشارة إلى ما في السموات، وقوله بعد هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١] إشارة إلى ما في الأرض. ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] والدهر هو الليالي والأيام، قال الله تعالى: هذه الليالي والأيام التي تنسبون إليها الموت والحياة هي بقدرة الله تعالى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ ثم إن قائلاً لو قال: إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التي هي فوق الأرض أكثر من التي تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يعني إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: إيلاج الليل في النهار يحتمل وجهين، أحدهما: أن يقال: المراد إيلاج الليل في زمان النهار أي يجعل في الزمان الذي كان فيه النهار الليل، وذلك لأن الليل إذا كان مثلاً اثنتي عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودًا في زمان كان فيه النهار، وثانيهما: أن يقال: المراد إيلاج زمان الليل في النهار أي يجعل زمان الليل في النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتي عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجودًا في النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل في النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال في الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لأن الثاني يجعل الظرف مظروفًا. إذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي يوجده في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] ومن جنسه قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ في الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال: كان فيه موت أو ظلمة أو ليل، فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشيء منهما: إنه أصم أو أعمى، إذا علم هذا فنقول: ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له: أعمى وأصم، وما يكون فيه اقتضاء شيء، ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب النفس له سببًا، لأن من يرى المتعيش في السوق، لا يقول: لم دخل السوق وما يثبت على خلاف

المقتضى تطلب النفس له سببًا، كمن يرى ملكًا في السوق يقول لم دخل، فإذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول: لم صار فلان أعمى؟ ولا يقول: لم صار فلان بصيرًا؟ وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبًا سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر.

المسألة الثانية: قال: ﴿يُولِجُ﴾ بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ﴾ بصيغة الماضي لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

المسألة الثالثة: قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار، وههنا كذلك، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيبًا.

المسألة الرابعة: ما تعلق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بما تقدم؟ نقول: لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب مع النبي ﷺ وعليه الأكثرون، وكأنه ترك الخطاب مع غيره، لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه، الوجه الثاني: أن يقال: المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدًا فيقول لجمع عظيم: يا مسكين إلى الله مصيرك، فمن نصيرك، ولماذا تقصيرك؟ فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يكون خطابًا من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨] وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وبقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩] وعلى الجملة فقوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ إشارة إلى كل صفة سلبية فإنه إذا كان غنيًّا لا يكون عرضًا محتاجًا إلى الجوهر في القوام، ولا جسمًا محتاجًا إلى الحيز في الدوام، ولا شيئًا من الممكنات المحتاجة إلى الموجد، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحًا وتضمنًا، فإن الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو

الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذي لا زوال له وهو الثبوت، فإن المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرًا إليه والله له الثبوت والوجود نظرًا إليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال: بطل ظله، إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تامًّا لا نقص فيه، ثم اعلم أن الحكماء قالوا: الله تام وفوق التمام، وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والأعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطي ما يدفع به حاجته في وقته كالإنسان والحيوان الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها لكنها في التحلل والزوال (وَالتَّامُّ) ما حصل له كل ما جاز له، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئًا كما قال جبريل عليه السلام «لَوْ دَنَوْتُ أُنْمُلَةً لَاحْتَرَقْتُ» لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] (وَفَوْقَ التَّمَام) هو الذي حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى التمام وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي فوق التمام وقوله: ﴿هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ أي في صفاته وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسمًا في مكان لأنه يكون حينئذ جسدًا مقدرًا بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيرًا بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير مطلقًا أكبر من كل ما يتصور.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لما ذكر آية سماوية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩] وأشار إلى السبب والمسبب ذكر آية أرضية، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله: ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ إشارة إلى المسبب وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى السبب أي إلى الريح التي هي بأمر الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يعنى يريكم بإجرائها بنعمته ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض آياته، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبار في الشدة شكور في الرخاء، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد في كلام النبي ﷺ «الْإِيمَانُ نِصْفَانِ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ»(١) إشارة إلى أن التكاليف

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ١٢٧)، حديث رقم (١٥٩) من طريق عتبة بن السكن عن العلاء بن خالد عن يزيد الرقاشي عن أنس. . . به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ١٢٣)، حديث رقم (٩٧١٥)، والخرائطي في (فضيلة الشكر) (١/ ٣٩)، حديث رقم (١٨)، كلاهما من طريق مسلم بن إبراهيم=

أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام «**الصَّوْمُ صَبْرٌ وَالْأَفْعَالُ شُكْرٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

لما ذكر الله أن في ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن في بصره ضعف لا يدركه أولا، فإذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصًا أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه، فإذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ وحد الموج وجمع الظلل، وقيل في معناه كالجبال، وقيل كالسحاب إشارة إلى عظم الموج، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة.

المسألة الثانية: قال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فنقول: لما ذكر ههنا أمرًا عظيمًا وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [لقمان: ٣١] يعني يعترف بها الصبار الشكور، ويجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظًا ومعنى، والكفور في موازنة الشكور، أما لفظًا فظاهر، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الإضرار، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر.

=أخبرنا العلاء بن خالد القرشي... به، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٥١١٨)، وقال: ضعيف جدًا. وكذلك في (الضعيفة) (٦٢٥)، وفي إسناده العلاء بن خالد القرشي قال الحافظ: ضعيف رماه أبو سلمة بالكذب وشيخه يزيد الرقاشي ضعيف زاهد.

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحدًا أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد، وذلك لأن الملك إذا كان واحدًا ويعهد منه أنه لا يعلم شيئًا ولا يستعرض عباده، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف، ثم أكده بقوله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه، ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى، وذكر الولد والوالد جميعًا فيه لطيفة، وهي أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ في دفع الآلام ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ في دفع الإهانة، وفي قوله: ﴿لَا يَجْزِي﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ (لطيفة أخرى) وهي أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئًا يقال: إنه يخيط، ولا يقال: هو خياط، وكذلك من يحيك شيئًا ولا يكون ذلك صنعته يقال: هو يحيك، ولا يقال: هو حائك، إذا علمت هذا فنقول: الابن من شأنه أن يكون جازيًا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد: ﴿لَا يَجْزِي﴾ وقال في الولد ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون تحقيقًا لليوم يعني اخشوا يومًا هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق، والثاني: أن يكون تحقيقًا لعدم الجزاء يعني: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ لأن الله وعد بـ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤] ووعد الله حق، فلا يجزي والأول أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع (ذلك) اليوم المذكور بالوعد الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا (بها) وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله ويقول: إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة، فنهاهم عن الأمرين وقال: كونوا قسما ثالثًا، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

يقول بعض المفسرين: إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره، وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كأن قائلاً قال فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن، ثم ذكر الدليلين الذين ذكرناهما مرارًا على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٤٩، ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] وقال هاهنا: يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٨] وقال: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ [الروم: ١٩] وثانيهما: الخلق ابتداء كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] إلى غير ذلك فقال هاهنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام، ثم قال لذلك الطالب علمه: يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، ولا تعلم ماذا تكسب غدًا مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون؟ فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضًا تهيئ أمورك

بسبب ذلك العلم، وإنما لم يعلمك لكي تكون في وقت بسبب الرزق راجعًا إلى الله تعالى متوكلاً على الله ولا أعلمك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت وأنت في غيرها، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه، وهي الساعة، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون، وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ذكر أن علمه غير مختص بها، بل هو عليم مطلقًا بكل شيء، وليس علمه علمًا بظاهر الأشياء فحسب، بل خبيرٌ علمه واصل إلى بواطن الأشياء، والله أعلم بالصواب.

تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وهي أربعٌ وثلاثون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك[3]. والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم[4] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوَّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ .

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٤٢٩ و٥/ ١٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ ، وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[١]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[٢]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[٣] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحَّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[٤].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيريّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[٥].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨/ ٨٦، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليُّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

---

(١) ١٣/١١٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوكِ الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتِهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧/ ٨ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.

وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾(١) [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه(٢). وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه(٣).

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»(٤). وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»(٥). وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني(٦).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ. السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠. والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن المُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُويَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»(١) وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٢) مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»(٣). إلى غير ذلك. وكلُّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَات وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»(٤). ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية ـ وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أَنْجشَة وسَلَمة بن الأكْوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

(١) ١/ ١٥٤.

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.
والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﷺ.
والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﷺ. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوَّ[(١)]. وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً[(٢)]. قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجَّار، حبَّذا محمدٌ من جارِ[(٣)]. وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعةَ يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندِي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[(١)]. فلو جازَ استصلاحُها لَمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[(٢)] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[(٣)]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلَ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[(٤)].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام:٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيُضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

---

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ ، وينظر السبعة ص ٢٦٧ ، والتيسير ص ١٣٤ ، والنشر ٢/ ٢٩٩ . وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢ .

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّثُ ويُذكَّر[٣]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ﴾ ثِقَلاً وصَمَماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لمَّا ذكر عذابَ الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي: دائمين. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ . وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩ .

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤ .

(٧) ٨/ ٣٤٥ .

(٨) ١/ ٣٠١ .

(٩) معنى «العزيز» سلف ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تكون «تَرَوْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البتّة[١]. النحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأَولى أن يكونَ مُستأنَفاً[٢]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[٣]. ويكون «بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[٤]. وقد مضى في «الرعد»[٥] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[٦]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهية أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلَّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنَّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوَّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[٧]. والخلق بمعنى المخلوق[٨]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[٩] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٥) ٦/١٢ - ٧ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ ، والكلام الذي قبله منه.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠ .

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خسرانٍ ظاهر[١]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[٢]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[٣]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحَّاس[٤]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[٥]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[٦]. قال وهب: كان ابنَ أختِ أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[٧]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤. ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل ـ قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُويَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأَ أخطأَ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقَبِلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ ، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١ ، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦ .

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[١] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[٢].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[٣]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[٤]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[٥]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[٦].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسانَ والقلبَ؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).
(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .
(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .
(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .
(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُويَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ٣٨/ ٥٤٨.

(٢) سلف ١/ ٢٨٧.

(٣) سلف ١٢/ ٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧.

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١.

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلَّا أن هذا الوجه عنده بعيد[(١)]. وقال الزجَّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأَنْ يشكر الله تعالى[(٢)]. وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»[(٣)] وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود[(٤)]. وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله[(٥)]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ[(٦)]. وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش[(٧)].

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنَه وامرأَته كانا كافرين، فما زال يعِظُهما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»[(٨)] وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ . وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢ .
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨ .
(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .
(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤ ، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥ .
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .
(٨) (١٢٤) ، وقد سلف ٨/ ٤٤٥ .

بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[١].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[٢]، وقد مضى في «هود»[٣] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يقُال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/١٩٦.

(٣) ١١/١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشْرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصَّينا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبَرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠.

(٢) ١٦/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٥) ١٣/٥٢ - ٥٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل(١). وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد(٢). قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذلِ من ناهٍ فَيزْجُرَها ... إنَّ العواذِلَ فيها الأَيْنُ والوَهَنُ(٣)

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ(٤).

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس(٥): على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته(٦). ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٩، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطمَ الصبيّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[(١)]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[(٢)] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجَّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحَّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[(٣)]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[(٤)]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[(٥)].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بيَّنَّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[(٦)]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[(٧)].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩ .
(٢) ٤/١٠٦ - ١١١ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/١٩٦ .
(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥ .
(٥) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١ .
(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .
(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦ .

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[(١)].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][(٢)]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[(٣)]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبَعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنه

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والحديث سلف ٦/ ١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠، ونسبه إلى ابن السائب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهَمه؛ لأنَّ الخردلَةَ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[١]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةٍ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[٢]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكَنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[٣]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ ، وما بين حاصرتين منه.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربتُه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةٌ من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤ .
(٣) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٥٥ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .
(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .
(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧ .

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) ٢/ ٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦.

وألَّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ ... أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة. وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٦.

(٤) الشاذة ص ١١٧، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣.

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[١]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصَعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية - معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٢]. وقيل: هو أن تلوِيَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[٣]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثكَ أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[٤].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[٥]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[٦].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣) ، والبخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥ .

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[١]، وقد مضى في «سبحان»[٢]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[٣]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزْدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غَرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[٤]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[٥]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٦]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[٧]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسَمَ له

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٢) ١٣/ ٨٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.

(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤ .

(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتَماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة ـ في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية[٢]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأَتْ شيطاناً»[٣]. وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً[٤]. وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة[٥].

الخامسة ـ وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم[٦]، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك[٧]، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ[٨]، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس جَهِيرُ الرُّواء جهيرُ النَّغَمْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤ .

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

وَيَعْدُو على الأيْنَ عَدْوَى الظَّليم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[١]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثَلِ سواء[٢].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[٣]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[٤]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأَصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٥٢ ، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/١٢٦ ؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/٣٤١ .

(٣) تهذيب اللغة ١٢/٢٢٣ .

(٤) إعراب القرآن ٣/٢٨٦ .

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[(١)]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[(٢)]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[(٣)]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما ستَرَ عليك من سيِّئ عملِك»[(٤)]. النحّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[(٥)]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[(٦)]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[(٧)] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجِعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[(٨)] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّك، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[(٩)]. وقد مضى هذا في «الرعد»[(١٠)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، وقراءة «وأصبغ» شاذة.
(٢) السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.
(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧.
(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣.
(١٠) ١٢/ ٣٥.

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[١]. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حُجَّة[٢] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[٣]. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[٤]. وقد قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[٥]. النحَّاس: و«يُسلِم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[٦] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣.

(٣) سلف ٢/ ١٣١.

(٤) ٤/ ٢٨٤.

(٥) الشاذة ص ١١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧.

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ[١]: قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدَّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.[٢]

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القَفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقَدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القَفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[١]. قال أبو جعفر النحَّاس[٢]: فقد تبيَّنَ أنَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[2]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[3]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[4]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[5]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[٢]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[٣]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٧] [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[٨]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[٩] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، وهي قراءة شاذة.

(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢.

(٩) في (م): الأسدين.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[١]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأُفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[٢]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّوريُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر. ﴿فِي الْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/٨٥ - ٨٦.

(٢) النكت والعيون ٤/٣٤٦.

(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.

(٤) النكت والعيون ٤/٣٤٦.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥.

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

يـمـاشـيـهـنَّ أخـضـرُ ذو ظـلالٍ عـلـى حـافـاتـهِ فِـلَـقُ الـدِّنـانِ[١]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظُّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[٢]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[٣]:

فـجـئـنـا إلـى مـوجٍ مـن الـبـحـر وَسْـطُـهُ أحـابـيـشُ مـنـهـا حـاسِـرٌ ومُـقـنَّـعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[٤]. ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾ يعني من البحر[٥]. ﴿إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[٦]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[٧]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ الخَتَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[٨]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فـإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمـيـرٍ مـلأتَ يـديـكَ مـن غـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٢٩ ، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة ـ وهو الجعدي ـ ص ١٦٣ ، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/٣٤٨ ، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥ .

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٧) النكت والعيون ٤/٣٤٨ .

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤ .

بالأبْلَقِ الفَرْدِ من تَيْماءَ منزِلُهُ   حِصنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ خَتَّارِ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: ختره فهو ختَّار[1]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ ـ بالضم والكسر ـ خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[2] ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[3] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[4]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[5]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[6] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

---

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٣) ٢/ ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سلف ٤/ ١٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦ .

سورة الملائكة[١] والحديد[٢] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره[٣]، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين[٤]، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه[٦]. قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري[٧]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ[٨]. وقال عبد الله بن

---

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[١]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[٢]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[٣]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[٤]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١ .

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١ .

عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماوردي[١]، وخرَّجه ابن ماجه[٢] من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً[٤]. وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»[٥] الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ[٦]. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فــلا مُــزْنَــةٌ وَدَقَــتْ وَدْقَــهــا ... ولا أرضَ أبــقَــلَ إبــقــالَــهــا[٧]

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية[٨]. وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ[٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «خَبِيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر[١٠]. والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩)، والترمذي (٢١٤٧).

(٢) في سننه (٤٢٦٣).

(٣) ص ٤ - ٧١.

(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥، والتيسير ص ٧٥.

(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أُبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.

(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠.

تفسير سورة لقمان

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ .

تقدم فى أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ،وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: **﴿ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾** أى: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى، **﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾** أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، كما قال [الله](١) تعالى : **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾** [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾** قال : هو ـ والله ـ الغناء .

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يزيد بن يونس ، عن أبى صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾** ـ فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها (٢) ثلاث مرات (٣) .

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « فرددها » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/٣٩) .

حدثنا عمرو بن على ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حُمَيْد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد ابن جبير ، عن أبى الصهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول اللّه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : الغناء [١].

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلى بن بَذِيمة .

وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فى الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : واللّه لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحَسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسى : حدثنا وكيع ، عن خَلاد الصفار ، عن عُبَيد اللّه بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن [٢] ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ،وأكل أثمانهن حرام ،وفيهن أنزل اللّه عز وجل عَلَىّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير ، من حديث عُبَيد اللّه بن زحر بنحوه [٣] ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وضُعِّف[٤] على بن يزيد المذكور .

قلت : على ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء . واللّه أعلم .

وقال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات اللّه واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قُيضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل اللّه هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات اللّه هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى :﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى : كما استهانوا بآيات اللّه وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٣٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٩٥) ، وتفسير الطبرى (٢١/ ٤٠) .

(٤) فى ت : « وفى إسناده » .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أي : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أَرَبَ له فيها ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصَدّقوا المرسلين ،وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة [١] لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد ، وهم في ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله :﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ، الذي قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ﴿الْحَكِيمُ ﴾ ، في أقواله وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ ، قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وَعكْرمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها . وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة « الرعد » بما أغنى [٢] عن إعادته .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي : لئلا تميد بكم .

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها

(١) في ف : « التابعة » ، وفي أ : « المتابعة » .

(٢) في ت : « بما يغني » .

وألوانها إلا الذى خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر .

وقال الشعبى : والناس ـ أيضاً ـ من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ** ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل اللّه وخلقه وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، ﴿ **بَلِ الظَّالِمُونَ** ﴾ يعنى: المشركين باللّه العابدين معه غيره ، ﴿ **فِي ضَلَالٍ** ﴾ أى : جهل وعمى ، ﴿ **مُّبِينٍ** ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)** ﴾ .

اختلف السلف فى لقمان ، عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال سفيان الثورى ، عن الأشعث ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد اللّه بن الزبير، قلت لجابر بن عبد اللّه : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه اللّه الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعى ، رحمه اللّه : حدثنى عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر [١] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، عن أبى الأشهب [٢] ، عن خالد الرَّبعىّ قال : كان لقمان عبداً حبشيا نجارا ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخْرجْ أطيب مُضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٤٣) .

(٢) فى أ : « الأشعث » .

مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا (١) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبيا .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حكَّام بن سَلْم ، عن سعيد الزبيدى ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين ، مُصَفَح القدمين ، قاضيا على بنى إسرائيل .

وذكر غيره : أنه كان قاضيا على بنى إسرائيل فى زمن (٢) داود ، عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان لقمان ، عليه السلام ، عبداً أسود غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنينى (٣).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٤) عبد الرحمن ابن يزيد (٥) عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : ألست عبد بنى فلان الذى كنت ترعى بالأمس ؟ قال: بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعنينى .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفى كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرق ينافى كونه نبيا ؛ لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وَكِيع (٦) ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى ، وهو ضعيف ، والله (٧) أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عبد الله بن عياش القِتْبَانى ، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بنى الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعى الغنم ؟ قال : نعم .قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال : وَطْء الناس بسَاطك ، وغَشْيُهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال :يا ابن أخى(٨)، إن صَغَيتَ (٩) إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى، وحفظى فرجى ، وقولى بصدق ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى إلى ما (١٠) ترى .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/٤٣) .
(٢) فى أ : « زمان » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/٤٤) .
(٤) فى أ : « بن » .
(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » .
(٦) فى ت : « عن وكيع » .
(٧) فى ت : « فالله » .
(٨) فى ف ، أ : « أبى » .
(٩) فى ف ، أ : « إن صنعت » .
(١٠) فى ت ، ف ، أ : « كما » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عَبْدَةَ بن ربَاح، عن ربيعة ، عن [١] أبى الدرداء ، رضى اللّه عنه ، أنه قال يوماً ـ وذُكرَ لقمان الحكيم ـ فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا صَمْصَامة سكيتا ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخَّع ، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتى الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر [٢] ، فبذلك أوتى ما أوتى .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبى حاتم ، فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خيَّر اللّه لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال: فأتاه جبريل وهو نائم فَذرَّ عليه الحكمة ـ أو : رش عليه الحكمة ـ قال : فأصبح ينطق بها .

قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلىَّ بالنبوة عَزْمَة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيّرنى فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ.

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فاللّه أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى: الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ، ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر اللّه ، عز وجل ، على ما آتاه اللّه ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه [٣] به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين[٤] لقوله [٥] تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى » . (٢) فى ت : « ويعتب » . (٣) فى أ : « خصصه »
(٤) فى ت ، ف : « الشاكر » . (٥) فى ف : « كقوله » .

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران فى قول حكاه السهيلى . وقد ذكره [الله] (١) تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى: هو أعظم الظلم.

قال البخارى حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة (٢) ، عن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام:٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا (٣) تسمع إلى قول لقمان : ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (٤) .

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البّر بالوالدين . كما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ﴾ . قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد .

وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذَكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى :﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ولهذا قال: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : فإنى سأجزيك (٥) على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ، ومحمود بن غَيْلان قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق (٦) ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ ابن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنى [رسول] (٧) رسول الله ﷺ إليكم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً ، وأن المصير إلى

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى البخارى بسنده » . (٣) فى أ : « ألم » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٤) .

(٥) فى أ : « سأجازيك » .

(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) زيادة من ت ، أ .

الله، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما (١) على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ،ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا ، أي : محسناً إليهما ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعنى : المؤمنين ، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند [عن أبى عثمان النهدى](٢) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فىَّ هذه الآية : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّر بى ، فيقال : «ياقاتل أمه ». فقلت : لا تفعلى يا أمَه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً [آخر] (٣) وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرَجت نَفْساً نَفْساً،ما تركت دينى هذا لشىء ،فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى .فأكلت (٤) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] (٥) خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير الشأن والقصة .وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ والأول أولى .

وقوله :﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى :

---

(١) فى أ : « تبايعهما » . (٢) زيادة من أسد الغابة ، والدر المنثور . (٣) زيادة من ت ، ف .

(٤) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ٢١٦) عن داود بن أبى هند .

(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صمَّاء ، أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض (١) ، فإن اللّه يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ ولهذا قال :﴿إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خبير﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله :﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ : أنها صخرة تحت الأرضين (٢) السبع ، ذكره السُّدِّى بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى ، وأبى مالك ، والثورى ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا واللّه أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والظاهر ـ واللّه أعلم ـ أن المراد : أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن اللّه سيبديها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال(٣) الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا دَراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صمَّاء، ليس لها باب ولا كُوَّة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ،﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك،﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ ،علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، لابد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلَة ، والمخيلة لا يحبها اللّه » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقرَ (٥) عبادَ اللّه ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلَّم وأنت معرض . وكذا رُوى عن مجاهد ، وعِكْرِمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم.

وقال إبراهيم النَّخعى : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام .

---

(١) فى ف : « والأرض » . (٢) فى ف ،أ : « الأرض » . (٣) فى ت : « كما روى » .

(٤) المسند (٣/٢٨) ، وحسنه الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٢٥) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .

(٥) فى ت ، أ : « فتحتقر » .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَتَ (١) أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُنى التَّغْلَبى :

وَكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّر خَدَّه أَقَمْنَا لَه مِنْ مَيْلِه فَتَقَوَّمَا (٢)

وقال أبو طالب فى شعره :

وَكُنَّا قَدِيماً لا نقر ظُلامَة إذ ما ثَنوا صُعْر الرؤوس نُقِيمها (٣)

وقوله : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى : جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال معجب فى نفسه ، فخور : أى على غيره ، وقال تعالى (٤) : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا محمد بن عمران ابن أبى ليلى ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى (٥) ، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه ، فقال : «إن الله لا يحب كل مختال فخور » .فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ، ويعجبنى شراك نعلى ، وعِلاقة سَوْطى ، فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسفَه الحق وتَغْمط(٦) النَّاس » (٧).

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته (٨).

وقوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى : لا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج (٩) ،عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ [أنه] (١٠) قال : « إذا سمعتم صياح الديكة

---

(١) فى ت : « تلتفت » ، وفى أ : « بلغت » .

(٢) البيت فى مجاز القرآن لأبى عبيدة (٢/ ١٢٧) .

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٩) .

(٤) فى أ : « وقد قال الله تعالى » . (٥) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « تغمص » .

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٦٩) وفيه انقطاع بين ابن أبى ليلى وثابت .

(٨)المعجم الكبير (٢/ ٧٠) من طريق عبد الرحمن بن يزيد، عن عطاء، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢): «وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقية رجاله رجال الصحيح» .

(٩) فى ت : « وروى النسائى عند تفسير هذه الآية بإسناده » . (١٠) زيادة من أ .

فاسألوا اللّه من فضله،وإذا سمعتم نهيق الحمير (١) فتعوذوا باللّه من الشيطان ،فإنها رأت شيطاناً » .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به (٢) ، وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فاللّه أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرنى نَهْشَل بن مُجَمِّع الضبى عن قزعة ، عن ابن عمر (٣) ، رضى اللّه عنه (٤) ، قال : أخبرنا رسول اللّه ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن اللّه إذا استودع شيئا حفظه » (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعى ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيْمِرة يحدث عن أبى موسى الأشعرى] (٦) أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار»(٧).

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَة ، حدثنا السَّرِىّ بن يحيى (٨) قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودى(٩) ، عن عَوْن بن عبد اللّه قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعنى السلام ـ ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر اللّه فَأَجِلْ سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة (١٠) ، عن حفص ابن عمر ، رضى اللّه عنه ، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفد الخردل ، فقال : يا بنى ، لقد وعظتك موعظة لو وُعظَها جبل لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبد الباقى المِصِّيصى، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرانى ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى ، حدثنا أبينَ (١١) بن سفيان المقدسى ، عن خليفة ابن سلام ، عن عطاء بن أبى رباح (١٢) ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اتخذوا

---

(١) فى ت : « الحمار» .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى (١١٣٩١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٠١)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٩) وسنن أبى داود برقم (٥١٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٥٩) .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف : « عنهما » .

(٥) المسند (٢/٨٧) .

(٦) زيادة من أ ، و المستدرك .

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١١) وقال : « هذا متن شاهده إسناد صحيح » وأقره الذهبى.

(٨) فى ت : « وروى أيضا بإسناده عن السرى بن يحيى » . (٩) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن القاسم بن مخيمرة ».

(١٠) فى ت : « وروى أيضا » . (١١) فى ت ،أ ،ف ،هـ : « أنس » ، والتصويب من المعجم الكبير وكتب الرجال .

(١٢) فى ت : « وروى الطبرانى بسنده » .

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن » (١) .

قال أبو القاسم الطبرانى : أراد الحبش .

فصل فى الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتاباً مفرداً [و] (٢) نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله ابن موسى المدنى ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «رُبَّ أشعثَ ذى طِمْرَين يُصْفَح عن أبواب الناس ، إذا (٣) أقسم على الله لأبره»(٤).

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبى ﷺ ، فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (٥).

[وروى أيضا عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة »] (٦) .

وقال أبو بكر بن سهل التميمى : حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » (٧) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عَثَّام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « رُبَّ ذى طمرين لا يُؤبَه له ، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال : اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً » (٨) .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو

---

(١) المعجم الكبير (١١/١٩٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٣٥) : « فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف »

(٢) زيادة من ت ، ف . (٣) فى ت ، ف: « لو » .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٥٤) « مجمع البحرين » قال : « حدثنا أحمد بن يحيى الحلوانى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، فذكر مثله ـ ثم قال ـ : لم يروه عن حفص إلا أسامة » ، وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٢٦٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تنبيه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم(٣٨٥٤) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به، وقال: « هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه »

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم(٨) .

(٨) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٢٤٦) من طريق ابن أبى الدنيا .

فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله (١) الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عَوْف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ملوك الجنة كُل (٣) أشعثَ أغبر ذى طمرين لا يُؤبَه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » (٤).

قال : وأنشدنى عمر بن شَبَّةَ ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبَّ ذى طِمْرَيـن فى مَنْزل غَداً ... زَرَابِيــه مَبْثُـوثَـةً ونَـمَـارِقُـه
قَد اطَّرَدَتْ أنهــاره حَـوْلَ قَصـْره ... وَأشرَقَ والتـفَّتْ عَلَيه حَدَائقُه (٥)

وروى ـ أيضا ـ من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن زيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعا : « قال الله : منْ أغبط أوليائى عندى : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك». قال : ثم نَقَد رسول الله بيده وقال : « عُجِّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه » (٦) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله (٧) إلى الله الغرباء . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم (٨) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى (٩) يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ؟ألم . . ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرَف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله.

وكان ابن مُحَيْريز يقول : اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (١٠) :

باب ما جاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد ابن أبى حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسب امرئ من

(١) فى ت : « ولو سأل الله » .
(٢) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (١) ، وهو مرسل .
(٣) فى ت ، ف ، أ : « من هو » .
(٤) ورواه ابن أبى الدنيا فى الأولياء برقم (٩) عن الحسن مرسلاً بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .
(٥) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (٥) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٣) وقد قال ابن حبان :«إذا روى عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم».
(٧) فى أ : « أحب العباد » .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٦) .
(٩) فى ت ، أ : « عز وجل » .
(١٠) أى ابن أبى الدنيا .

الشر ـ إلا من عصم اللّه ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن اللّه لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبى فُدَيْك ، عن محمد بن عبد الواحد الأخْنَسِيّ، عن عبد الواحد بن أبى كثير ، عن جابر بن عبد اللّه مرفوعا ، مثله (٢) .

وروى عن الحسن مرسلا نحوه (٣) ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه فى دينه بالبدعة وفى دنياه بالفسق (٤) .

وعن على ، رضى اللّه عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تَسُر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه اللّه : ما صدق اللّه من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق اللّه عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب اللّه أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سِمَاك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبَان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شعبة ، عن عَوْف ، عن أبى رَجَاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة (٥) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبى إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : واللّه لو تعلمون ما أغلِقُ عليه بابى ، ما اتبعنى منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغُمه .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت فى طول القميص ، واليوم فى تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلى النبى ﷺ ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النَّخَعى: لا تلبس من الثياب ما يُشهر فى الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التى يُشتَهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

---

(١) التواضع والخمول برقم (٣٠) وفيه سنان بن سعد ضعيف .

(٢) التواضع والخمول برقم (٣١) وقال العراقى : « ليس معروفاً من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبى هريرة » .

(٣) التواضع والخمول برقم (٣٢) .

(٤) التواضع والخمول برقم (٣٣) .

(٥) فى أ : « هارون بن أبى عشيرة » .

وحدثنا خالد بن خِداش : حدثنا حماد ، عن أبى حسنة ـ صاحب الزيادى ـ قال : كنا عند أبى قِلابة إذ دخل عليه رَجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .

وقال الحسن ، رحمه اللّه : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم ، والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه [١] ، مالهم تفاقدوا .

وفى بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبنى إسرائيل : ما لكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس ، رضى الله عنه : كان رسول اللّه ﷺ من أحسن الناس خلقا [٢] .

وعن عطاء،عن ابن عمر:قيل : يارسول اللّه ، أىّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا»[٣].

وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه دَرَك جهنم وهو عابد »[٤]. وعن سِنَان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[٥] ، وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » [٦].

وقال ابن أبى الدنيا:حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس،حدثنا عبد اللّه بن إدريس،أخبرنى أبى وعمى،عن جدى،عن أبى هريرة،رضى اللّه عنه:سُئل رسول اللّه ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنة،فقال:« تقوى اللّه وحسن الخلق» . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال: « الأجوفان: الفم والفرج » [٧] .

وقال أسامة بن شَريك : كنت عند رسول اللّه ﷺ ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول اللّه ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » [٨] .

وقال يعلى بن مملك [٩] ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ـ يبلغ به ـ قال : « ما [من] [١٠] شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق » [١١] ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به [١٢] .

وعن مسروق ، عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » [١٣].
حدثنا عبد اللّه بن أبى بدر ، حدثنا محمد بن عبيد [١٤] ، عن محمد بن أبى سارة ، عن الحسن

---

(١) فى ت ، أ : « المطرق بمطرقه » .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٦٣) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٦٤) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٦٨).
(٥) التواضع والخمول برقم (١٦٩) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٦٦) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٧٠) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٧١) .
(٩) فى ت ،أ ،ف ،هـ: « سماك » والصواب ماأثبتناه من كتب الرجال .
(١٠) زيادة من أ .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٧٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٧٣) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٧٤) .
(١٤) فى ت ، ف : « عنين » ، وفى أ : « عيسى » والصواب ما أثبتناه من التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكتب الرجال .

ابن على قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه ليعطى العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطى المجاهد فى سبيل اللّه ، يغدو عليه الأجر ويروح » (١) .

وعن مكحول، عن أبى ثعلبة مرفوعا: «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً ،أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

وعن أبى أويس ، عن محمد بن المنْكَدر ، عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .

وقال الليث ، عن يزيد بن عبد اللّه بن أسامة ، عن بكر بن أبى الفرات قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما حسَّن اللّه خَلْق رجل وخُلُقه فَتَطْعَمَه النار » (٤) .

وعن عبد اللّه بن غالب الحُدَّانى ، عن أبى سعيد مرفوعا : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » (٥) ، وقال ميمون بن مهْرَان ، عن رسول اللّه ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند اللّه من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخْرج من ذنب إلا وقع فى آخر » (٦) .

حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحْمَسىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مامن ذَنْب أعظم عند اللّه من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ،وإن الخلق السيىء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»(٧).

وقال عبد اللّه بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٨) .

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود ـ رفعه ـ : « لا يدخل الجنة مَنْ فى قلبه (٩) مثقال حبة من كِبْر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال حبة (١٠) من إيمان » (١١) .

وقال إبراهيم بن أبى عَبْلَة ، عن أبى سلمة ، عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه اللّه على وجهه فى النار » (١٢) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعا: «لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند اللّه من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب»(١٣).

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما (١٤) السلام ، ذات يوم البساط فى مائتى

---

(١) التواضع والخمول برقم (١٧٦) .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٧٧) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٧٨) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٨٠)
(٥) التواضع والخمول برقم (١٨٢) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٨٣) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٨٤) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٩٠) .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « ذرة » .
(١٠) فى ف ، أ : « ذرة » .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٩٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٩٦) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٩٨) .
(١٤) فى ت : « عليه » .

ألف من الإنس ، ومائتى ألف من الجن ، فَرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة فى السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليُقذر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين (١) .

وقال الشعبى : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص:١٩] وقال الحسن : عجبا لابن آدم، يغسل الخرء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات، قال : حدثنا خالد بن خداش، حدثنا حماد بن زيد، عن على بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم (٢) .

وقال الحسن، عن يحيى ، عن أبى قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَزَّحَه ومَلَّحه.

وقال محمد بن الحسين بن على ـ من ولد على رضى الله عنه ـ : ما دخل قلبَ رجل شىء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس فى جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن (٣) من فى بطنه خرء ؟ . فقال له كالمعتزر إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا (٤) هذه المشية .

فصل فى الاختيال

عن أبى ليلى ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه مرفوعا : «مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (٥).

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله(٦).

وحدثنا محمد بن بكَّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزِّنَاد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره »(٧). و «بينما رجل يتبختر فى برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٨) .

وروى الزهرى عن سالم ، عن أبيه : « بينما رجل . . . » إلى آخره (٩) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

(١) التواضع والخمول برقم (٢٠٠) .
(٢) التواضع والخمول برقم (٢١٠) .
(٣) فى ف ، أ : « مشى » .
(٤) فى ف ، أ : « يتعلمون » .
(٥) التواضع والخمول برقم (٢٣٨) .
(٦) التواضع والخمول برقم (٢٣٩) .
(٧) التواضع والخمول برقم (٢٣٢) .
(٨) التواضع والخمول برقم (٢٣٣).
(٩) التواضع والخمول برقم (٢٣٤) .

اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيؤون بها فى ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبَه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل فى اللّه ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته فى ذلك بغير علم ،ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ** ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين في توحيد اللّه :﴿ **اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة،﴿ **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال اللّه :﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ .

﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه للّه ، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال :﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ** ﴾ أى : فقد أخذ موثقا من اللّه متيناً أنه لا يعذبه ، ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ** ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم باللّه وبما جئت به ؛ فإن قدر اللّه نافذ فيهم ، إلى اللّه مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزيهم عليه ،﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ ، فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال :﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً** ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ **ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ** ﴾ أى : نلجئهم ﴿ **إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن اللّه خالقُ السموات والأرض ، وحدهَ لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له ؛ ولهذا قال:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أى :إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم][(1)]، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال :﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ،﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى: الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »، فقال تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر] [(2)] معه ، فكتبت بها كلمات اللّه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونَفِدَ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مَدَدا .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] [(3)] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الآخرى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فليس المراد بقوله : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ؛ لأنه لا حصر لآيات اللّه وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال اللّه : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال اللّه تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم اللّه كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل اللّه ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات اللّه والأشجار كلها أقلاما ، لا نكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت . كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شىء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثنى ابن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول اللّه ﷺ بالمدينة :يا محمد، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ؟ [الإسراء : ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « كلا » . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « إنها فى علم اللّه قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » .وأنزل اللّه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يَسَار . وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، واللّه (١) أعلم .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز قد عزَ كلٍّ شىء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .

وقوله :﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] (٢) نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده (٣) . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (٤) ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ بمعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذلك ويقصر هذا،

(١) فى ت ، ف : « فاللّه » . (٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وتوكيده » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفى هـ: « الآية » .

وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يسرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون فى الشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر ، رضى الله عنه ، الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟» . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربَّها فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت » (١) .

وقال ابن أبى الحاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جُرَيْج، عن عَطَاء بن أبى رباح (٢) ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر . إسناده صحيح .

وقوله :﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ (٣) وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما (٤) فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى: العلى: الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل (٥) شىء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩) .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٣) فى ت : « السموات » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « من » .
(٥) فى ت ، ف : « وكل » .

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِه ﴾ أى : من قدرته ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء .

ثم قال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَل ﴾ أى : كالجبال والغمام ، ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ،وقال:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال :﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله :﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَات ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم اللّه عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن (١) زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر : أتَم الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب :

وإنــَّكَ لَو رَأيــتَ أبـَا عُـمَـير مَلأتَ يَدَيْكَ مِنْ غَـدْر وَخَتْـر (٢)

وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه،والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] (٣) ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعدهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شىء بل كما قال تعالى :

---

(١) فى أ : « و » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/ ٥٤) .

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

قال وهب بن منبه : قال عزير ، عليه السلام : لما رأيت بلاء قومى اشتد حزنى وكثر همى ، وأرق نومى ، فضرعت (١) إلى ربى وصليت وصمت فأنا فى ذلك أتضرع أبكى إذ أتانى الملك فقلت له : أخبرنى هل تشفع أرواح المصدقين (٢) للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها (٣) فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره(٤) ولا يحزن لحزنه ، ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يَهُم همه ويبكى عَوله ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر اللّه تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا اللّه ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه [اللّه] (٥) تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد اللّه كان ، لاعلم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد اللّه بن بُرَيدة ، سمعت أبى ـ بُرَيدة ـ (٦) يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٧) .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه .

حديث ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد اللّه بن دينار ، عن ابن عمر (٨) قال : قال رسول اللّه (٩) ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

---

(١) فى ف : « وتضرعت » . (٢) فى ت ، ف : « الصديقين » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « إن يوم القيامة فيه » .
(٤) فى ت « ولا يهتم بهم أحد » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت:«وروى الإمام أحمد بإسناده عن بريدة » .
(٧) المسند (٥/٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٨) فى ت : « وروى البخارى عن عبد اللّه بن عمر » . (٩) فى ت : « النبى » .

أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى « كتاب الاستسقاء » من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان بن سعيد الثورى ، به (١) . ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد اللّه بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ ، انفرد به أيضا (٢) .

ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد ؛ أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ » (٣) .

[**حديث ابن مسعود** ، رضى اللّه عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مُرَّة ، عن عبد اللّه بن سلمة قال : قال عبد اللّه (٤) : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾] (٥) (٦) .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : قال: قلت له : أنت سمعته من عبد اللّه ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة (٧).

ورواه أيضا عن وَكِيع ، عن مِسْعَر ، عن عمرو بن مرة به (٨) .

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه (٩) ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول اللّه ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » .قال : يارسول اللّه ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام :أن تعبد اللّه ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان».فقال : يا رسول اللّه ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان: أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .قال : يا رسول اللّه، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة

---

(١) المسند (٢/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (١٠٣٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧) .

(٣) المسند (٢/ ٨٥) .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (١/ ٣٨٦)

(٧) المسند (١/ ٤٣٨) .

(٨) المسند (١/ ٤٤٥) .

(٩) فى ت : « وروى البخارى » .

العُرَاة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن (١) إلا الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** .... ﴾ » ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه عَلَىَّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم» (٢) .

ورواه البخارى أيضا فى « كتاب الإيمان » ، ومسلم من طرق ، عن أبى حيان ، به (٣) . وقد تكلمنا عليه فى أول شرح البخارى . وذكرنا ثم حديثَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم (٤) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شَهْر ، حدثنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ (٥) واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، [حدثنى] (٦) ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا (٧) فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان: أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ». قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمسٍ لا يعلمهن إلا هو (٨) : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأَمَةَ ولدت ربَّتَها ـ أو : ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون فى البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب »] (٩) (١٠) .

حديث غريب ، ولم يخرجوه

حديث رجلٍ من بنى عامر : روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعى بن حِرَاش ، عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرُجى إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسَمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن، فدخلت، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن

(١) فى ت : « لا يعلمهم » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٧) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠) وصحيح مسلم برقم (٩) .
(٤) صحيح مسلم برقم (٨) .
(٥) فى ف ، أ : « بين يديه » .
(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٧) فى ف : « فإذا » .
(٨) فى أ : « الله » .
(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند
(١٠) المسند (١/٣١٨) .

تَدَعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد عَلَم اللّه عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا اللّه عز وجل : الخمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ » (١). وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جَدِبَةٌ ، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد عَلمتُ متى وُلدتُ فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل اللّه عز وجل :﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ]** (٢) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ . قال مجاهد : وهى (٣) مفاتيح الغيب التى قال اللّه تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] .رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا** ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ : قال قتادة : أشياء استأثر اللّه بهن ، فلم يُطلع عليهن مَلَكا مقرباً ، ولا نبيا مرسلا : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾ ، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلا أو نهاراً ، ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ ، فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود ، وما هو ،﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا** ﴾ ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد اللّه قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم،أخبرنا عبد الرزاق،أخبرنا مَعْمَر،عن أيوب،عن أبى المليح،عن أسامة(٥) بن زيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما جعل اللّه ميتة (٦) عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٧) .

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحَفَرىّ ، عن

---

(١) المسند (٥/٣٦٨) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى أ : « وهن » .
(٤) تفسير الطبرى (٢١/٥٦) .
(٥) فى ت : « فروى أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير فى مسند أسامة » .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « منية » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٩٦) ، « ورجاله رجال الصحيح» وفيها: « منية » بدل : « ميتة » .

سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مَطَر بن عُكَامِس قال : قال رسول الله ﷺ (١) : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به (٢) . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى ﷺ غير هذا الحديث . وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » (٣) ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبى المليح بن أسامة (٤) ، عن أبى عزة(٥) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

وأبو عزة هذا هو : يَسَار (٦) بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهُذَلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل [بن إبراهيم ـ وهو ابن عُلَيّة (٧) ، وقال : صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهانى ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل] (٨) ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (٩) .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَرىّ ومحمد بن يحيى القُطَعى قالا : حدثنا عُمَر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » . ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمَر بن على المُقَدّمى (١٠) . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سليمان بن أبى مسيح(١١) قال : أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى هَمْدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُه ... سِوَى حَنُوط غَدَاةَ البَيْن مَعْ خرَق
وَغَيْرَ نَفْحَة أعْوَاد تُشَبّ لَهُ ... وَقَلّ ذَلكَ مِنْ زَاد لمُنْطَلق !
لاَ تَأسَيَنّ عَلَى شَىْء فَكلّ فَتَى ... إلَى مَنيّته سَيَّارٌ فى عَنَق (١٢)
وَكُلّ مَنْ ظَنّ أنّ الموتَ يُخْطئُه ... مُعَلّلٌ بأعَاليل مِنَ الحَمق
بأيّمَا بَلْدَة تُقْدَرْ منيته ... إنْ لا يُسَيَّرْ إلَيهَا طَائعاً يُسَق

(١) فى ت : «روى عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده أن رسول الله ﷺ قال » .
(٢) زوائد المسند (٥/٢٢٧) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٦) .
(٣) لم أجده فى المطبوع من المراسيل .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (٥) فى أ : « عن أبى عزة الهذلى » . (٦) فى ف : « بشار » .
(٧) المسند (٣/٤٢٩) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٧) .
(٨) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٩) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٨) « مجمع البحرين » من طريق عباد بن صهيب، عن عبيد الله بن أبى حميد به، وعباد ابن صهيب متروك .
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/٣٦٧) من طريق محمد بن خالد الوهبى ، عن إسماعيل بن أبى خالد بنحوه .
(١١) فى ت ، ف ، أ : « شيخ » . (١٢) فى ت : « يسير فى غنق » .

أورده الحافظ ابن عساكر ، رحمه اللّه ، فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحارث [١] ، وهو أعشى هَمْدَان ، وكان الشعبى زوجَ أخته ، وهو مُزَوّج بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرِف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على [٢] مرفوعا : «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَتْه [٣] إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره [٤] ، قبضه اللّه عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » [٥] .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما جعل اللّه منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة » [٦] .

[آخر تفسير سورة « لقمان » والحمد للّه رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل] [٧]

---

(١) لم أجد الأبيات فيما بين يدى من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور .

(٢) فى ت ، ف : « عكرمة » .

(٣) فى ف : « أتت » .

(٤) فى ت ، ف : « أمره » .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٤) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » . والكلام هنا متعلق برواية البزار ولم أستسغ تقديمها ؛ لورودها هكذا فى النسخ .

(٦) المعجم الكبير (١/ ١٧٨) وقد مر ذكره .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

/ سورة لقمان [٣٢٠و]

مكيّة، قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ[1] يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٤/٣١]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة.[2] وقيل:[3] إلّا ثلاثًا، مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٢٧/٣١].[4]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سلفَ بيانه في نظائره. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو هو وصف له بنَعتِه تعالى، أو أصله "الحكيمِ مُنزِلُه أو قائلُه"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكَنّ في الصفة المشبَّهة. وقيل: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ "فَعِيل" بمعنى "مُفْعَل"، كما قالوا: "أَعقَدتُ اللبَنَ، فهو عَقيد"، أي: مُعقَد، وهو قليل. وقيل: بمعنى "فاعِل".

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحاليّة مِن "الآيات"، والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وقُرئا بالرفع[5] على أنّهما خبران آخران لاسم الإشارة، أو لمبتدإٍ محذوف.

---

[1] م - الذين.

[2] نقَل القول وضعّفه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٢/٤.

[3] نقَله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٢/٤.

[4] ط س - قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٤/٣١]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة. وقيل: إلّا ثلاثًا، مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٢٧/٣١]؛ ط س + وهي أربع وثلاثون آيةً. وقيل: ثلاث وثلاثون.

[5] أي: "هُدًى وَرَحْمَةٌ". قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العاملين للحسنات، فإن أريدَ بها مشاهيرها المعهودة في الدين فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لِما عملوها مِن الحسنات، على طريقة قوله:

الألمعيّ الذي يظنّ بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سَمِعا[١]

وإن أريدَ بها جميعُ الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر مِن بين سائر شُعَبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها. وتخصيص الوجه الأوّل بصورة كون الموصول صفةً لـ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ ممّا لا وجهَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، والناجون مِن كلّ مَهروب لحِيازتهم قُطرَي العلم والعمل، وقد مرّ ما فيه مِن المقال في مطلع سورة البقرة بما لا مَزيد عليه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ محلّه الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه، أو بتقدير الموصوف. و﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ موصولة أو موصوفة محلّها الرفع على الخبريّة، والمعنى: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ مِن الناس الذي يشتري، أو فريقٌ يشتري، على أنّ مناط الإفادة والمقصودَ بالأصالة هو اتّصافُهم بما في حيّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذوات أولئك المذكورين، / كما مرّ في قوله [٣٢٠ظ]
تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٨/٢].

و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عمّا يَعني مِن المهمّات، كالأحاديث التي لا أصلَ لها، والأساطيرِ التي لا اعتدادَ بها، والمَضاحكِ، وسائرِ ما لا خيرَ فيه مِن فضول الكلام.

---

[١] لأوس بن حجر في ديوانه، ص ٣٥. "الألمعيّ": الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله:
الـذي يـظـنّ بـك الـظـ ـنّ كـأن قـد رأى وقـد سمعا
الكامل للمبرّد، ٣٣/٤.

والإضافة بمعنى "مِن" التبيينيّة إن أريدَ بـ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ المُنكَرُ، وبمعنى التبعيضيّة إن أريدَ به الأعمّ مِن ذلك.

وقيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث؛ اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدّث بها قريشًا، ويقول: إن كان محمّد عليه السلام يحدّثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة.[١] وقيل: كان يشتري القِيانَ ويحملهنّ على معاشرة مَن أراد الإسلام ومنعِه عنه.[٢]

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِه الحقّ المُوصلِ إليه تعالى، أو عن قراءة كتابه الهادي إليه تعالى. وقُرئ: "لِيَضِلَّ" بفتح "الياء"،[٣] أي: ليَثبُت ويستمرّ على ضلاله، أو ليزداد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بحال ما يشتريه، أو بالتجارة، حيث استبدل الشرّ البحتَ بالخير المَحض. ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفًا على ﴿يُضِلَّ﴾، والضميرُ للسبيل، فإنّه ممّا يُذكّر ويُؤنّث، وهو دين الإسلام، أو القرآن، أي: ويتّخذَها ﴿هُزُوًا﴾ مهزوءً به. وقُرئ: "وَيَتَّخِذُهَا" بالرفع[٤] عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلَين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بذِكر المشار إليه للإيذان ببُعد مَنزلتهم في الشرارة، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الاشتراء للإضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لِما اتّصفوا به مِن إهانتهم الحقّ بإيثار الباطل عليه، وترغيبِ الناس فيه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على المشتري، أُفردَ الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأُوَل باعتبار لفظة ﴿مَن﴾[٥] / بعد ما جُمع فيما بينهما باعتبار معناها. [٣٢١و]

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٢/٤.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٩٩/٢.
٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.
٥ في الآية السابقة.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾،[١] و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.[٢] ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرضَ عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مبالغًا في التكبّر ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال مِن ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو مِن ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والأصل "كأنّه"، فحُذف ضمير الشأن، وخُفِفَت المثقّلة، أي: مُشبهًا حالُه حالَ مَن لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمز إلى أنّ مَن سمِعها لا يُتَصوَّر منه التولية والاستكبار، لِما فيها مِن الأمور الموجِبة للإقبال عليها والخضوع لها، على طريقة قَول مَن قال:

كأنّك لم تجزعْ على ابن طريف[٣]

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ حال مِن ضمير ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: مُشْبِهًا حالُه حالَ مَن في أذنَيه ثِقَلٌ مانع مِن السماع، ويجوز أن يكونا استئنافَين. وقُرِئ: "فِي أُذْنَيْهِ" بسكون "الذال".[٤] ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأَعلِمْه بأنّ العذاب المُفرِط في الإيلام لاحِقٌ به لا محالةَ. وذِكر البشارة للتهكّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثرَ بيان[٥] الكافرين بها، أي: الذين آمنوا بآياته تعالى[٦] وعمِلوا بموجَبها ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة ما ذُكر مِن إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نعيمُ جنّاتٍ، فعُكس للمبالغة. والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والأحسن أن يُجعل ﴿لَهُمْ﴾ هو الخبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مرتفِعًا به على الفاعليّة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾،[٧] أو مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾،

---

١ لقمان، ٢/٣١.
٢ لقمان، ٣/٣١.
٣ وفي هامش م: صدره:
أيا شجر الخابور ما لك مُورِقًا
مِن قصيدة للَيلى بنت طريف التغلبيّة، ترثي أخاها الوليد. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١٤٨/١.
٤ قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.
٥ س + حال.
٦ ط س - تعالى.
٧ في الآية السابقة.

لاشتماله على ضميرَيهما، والعامل ما تعلّق به "اللام". ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكِّدان، والأوّل لنفسه، والثاني لغيره؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] في معنى: وعدَهم الله جنّاتِ النعيم، فأكّد معنى الوعد بالوعد. وأمّا ﴿حَقًّا﴾ فدالّ على معنى الثبات، أُكِّد به معنى الوعد، ومؤكِّدُهما جميعًا ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.[2] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنعه / مِن إنجاز وعدِه، أو تحقيقِ وعيده، [٣٢١ظ] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾... إلخ استئناف مَسوق للاستشهاد بما فُصِّل فيه على عزّته تعالى التي هي كمال القدرة، وحكمتِه التي هي كمال العلم، وتمهيدِ قاعدة التوحيد وتقريرِه، وإبطالِ أمرِ الإشراك وتبكيتِ أهله. و"العَمَد" جمعُ "عِماد" كـ"أَهَبٍ" جمعِ "إهاب"، وهو ما يُعْمَدُ به، أي: يُسنَد. يقال: "عمَدتُ الحائطَ" إذا أدعمتَه، أي: بغير دعائم، على أنّ الجمع لِتعدّد السماوات.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذُكر مِن خلقه تعالى لها غيرَ مَعمودة بمشاهدتهم لها كذلك، أو صفةٌ لِـ﴿عَمَدٍ﴾، أي: خلَقها بغير عَمَدٍ مرئيّة، على أنّ التقييد للرمز إلى أنّه تعالى عَمَدها بعَمَدٍ لا تُرى، هي عَمَد القدرة.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ بيان لصنعه البديع في قرار الأرض إثرَ بيان صنعه الحكيم في قرار السماوات، أي: ألقى فيها جبالًا ثوابت. وقد مرّ ما فيه مِن الكلام في سورة الرعد.[3] ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أن تَميل بكم، فإنّ بساطة أجزائها تقتضي تبدّلَ أحيازها وأوضاعها، لامتناع اختصاص كلّ منها لذاته أو لشيءٍ مِن لوازمه بحيّز معيّن ووضعٍ مخصوص.

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الرعد، ٣/١٣.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواعها، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ مِن كلّ صنف كثير المنافع. والالتفات إلى "نون العظمة" في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن السماوات والأرض وما تعلّق بهما مِن الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ممّا اتّخذتموهم شركاءَ له سبحانه في العبادة حتّى استحقّوا به المعبوديّة. و﴿مَاذَا﴾ نصب بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿مَا﴾ مرتفع بالابتداء، وخبره ﴿ذَا﴾ بصلته، / و﴿أَرُونِى﴾ متعلّق به. [٣٢٢و]

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّنِ المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدّمات المعقولة الحقّة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئًا فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثّروا مِن الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للدلالة على أنّهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومتعدّون عن الحدّ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بطلان الشرك. وهو لقمان بن باعوراء مِن أولاد آزَر ابن أخت أيّوب عليه السلام أو خالتِه، وعاش حتّى أدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثه. وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل. والجمهور على أنّه كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا. و"الحكمة" في عرف العلماء: "استكمال النفس الإنسانيّة باقتباس العلوم النظريّة، واكتسابُ المَلَكة التامّة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها".[١]

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

ومِن حكمته أنّه صحب داود عليه السلام شهورًا، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلمّا أتمّها لبِسها، فقال: «نِعمَ لَبوسُ الحرب أنت»، فقال: «الصمت حكمة، وقليل فاعله»، فقال له داود عليه السلام: «بحقّ ما سُمّيتَ حكيمًا».[1]

وأنّ داود عليه السلام قال له يومًا: «كيف أصبحتَ؟» فقال: «أصبحتُ في يدي غيري»، فتفكّر داود عليه السلام فيه فصعِق صعقة.[2]

وأنّه أمَره مولاه بأن يذبح شاة[3] ويأتيَ بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثمّ بعد أيّام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضًا، فسأله عن ذلك، فقال: «هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيء إذا خَبُثا».[4]

ومعنى ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ / أي: اشكر له تعالى، على أنّ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، فإنّ "إيتاء الحكمة" في معنى القول. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، موجِب للامتثال بالأمر، أي: ومَن يشكر له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لأنّ منفعته -التي هي ارتباط العتيد واستجلابُ المزيد- مقصورة عليها. [٣٢٢ظ]

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كلّ شيء، فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرّر بكفر مَن كفر، ﴿حَمِيدٞ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود بالفعل، يَنطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال. وعدم التعرّض لكونه تعالى مشكورًا[5] لِمَا أنّ الحمد متضمّن للشكر؛ بل هو رأسه، كما قال عليه السلام: «الحمد رأس الشكر، لم يشكر اللهَ عبدٌ لم يحمده»،[6] فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعًا.

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾ أَنْعَم، وقيل: أَشكَم، وقيل: ماثان، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٢/٨.

٣ س: شاتًا.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٥ ط س: شكورًا.

٦ المصنّف لعبد الرزّاق، ٤٢٠/٨ (٢٠٤٨١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/١ (الفاتحة، ٢/١).

تصغير إشفاق. وقُرئ: "يَا بُنَيْ" بإسكان "الياء"،[١] وبكسرها.[٢] ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: كان ابنه كافرًا فلم يزل به حتّى أسلم. ومَن وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ قسَمًا. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، أو الانتهاء عن الشرك.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾... إلخ كلام مستأنَف اعتُرض به على نهج الاستطراد في أثناء وصيّة لقمان تأكيدًا لِما فيها مِن النهي عن الشرك. وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ اعتراض بين المفسَّرِ والمفسِّرِ. وقوله تعالى: ﴿وَهْنًا﴾ حال مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾، أي: ذاتَ وَهْن، أو مصدر مؤكِّد لفعل هو الحال، أي: تَهِنُ وَهنًا. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة للمصدر، أي: كائنًا على وَهْن، أي: تَضعُف ضعفًا فوقَ ضعف، فإنّها لا يزال يتضاعف ضَعفها.

وقُرئ: "وَهَنًا عَلَى وَهَنٍ" بالتحريك،[٣] يقال: وَهَنَ يَهِن وَهْنًا، وَوَهِنَ يَوْهَنُ وَهَنًا.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: فِطامه في تمام عامين، وهي مدّة الرضاع عند الشافعي،[٤] وعند أبي حنيفة رحمهما الله هي ثلاثون شهرًا.[٥] وقد بُيّن وجهه في موضعه. وقُرئ: "وَفَصْلُهُ".[٦]

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لـ﴿وَصَّيْنَا﴾، وما بينهما اعتراض مؤكِّد للوصيّة في حقّها خاصّةً، ولذلك قال عليه السلام لِمَن قال له عليه السلام: «مَنْ أَبَرُّ؟»:[٧] «أُمَّكَ[٨] ثمّ أُمَّكَ»، ثمّ قال بعد ذلك: / «ثمّ أباك».[٩] [٣٢٣و]

---

١ مِن غير تشديد. قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

٢ مع تشديدها. قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي وأحمد بن موسى عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

٤ انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١١/٣٦٧.

٥ انظر: الهداية للمرغيناني، ١/٢١٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة والجَحدري ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤١٤.

٧ وفي هامش م: أي: أفعلُ البرّ. «منه».

٨ وفي هامش م: أي: برّ أمّك. «منه».

٩ سنن أبي داود، ٧/٤٥٣ (٥١٣٩)؛ سنن الترمذي، ٤/٣٠٩ (١٨٩٧).

﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر، أي: إليّ الرجوع، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدَر عنك مِن الشكر والكفر.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ أي: صِحابًا معروفًا يرتضيه الشرع، ويقتضيه المروءة. ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: مرجعُك ومرجعُهما ومرجعُ مَن أناب إليّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلًّا منكم بما صدَر عنه مِن الخير والشرّ.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾... إلخ شروع في حكاية بقيّة وصايا لقمان إثرَ تقرير ما في مطلعها مِن النهي عن الشرك وتأكيده بالاعتراض. ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ أي: إنّ الخَصلة مِن الإساءة أو الإحسان إن تَكُ مثلًا في الصغر كحَبّة الخَرْدل. وقُرئ برفع ﴿مِثۡقَالَ﴾،[1] على أنّ الضمير للقصّة، و"كان" تامّة. والتأنيث لإضافة المثقال إلى الحبّة، كما في قول مَن قال:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة مِن الدمِ[2]

أو لأنّ المراد به الحسنة أو السيّئة.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٢ صدره:

وتَشرَقَ بالقول الذي قد أذعتَه

للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. و"تَشرَق" مِن "شَرِق بِريقه" إذا غصّ، وهو مِن باب "عَلِم يعلَم". و"أذعتَه" -بالذال المعجمة والعين المهملة- مِن "الإذاعة"، وهي الإفشاء. و"القناة": الرمح. وأنّثَ "شَرِقت" وإن كان مسندًا الى "صدر" وهو مذكّر؛ لأنّه اكتسب التأنيث مِن المضاف إليه. شرح شواهد المغني للسيوطي، ٨٨٢/٢.

﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[١] أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فَتكُن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقَماءة في أخفى مكان وأحرَزِه، كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يُحضِرْها ويُحاسِبْ عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصلُ علمه إلى كلّ خفيّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بكُنهه.

وبعد ما أمره بالتوحيد الذي هو أوّل ما يجب على الإنسان في ضمن النهي عن الشرك، ونبّهَه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمرَه بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلًا له مِن حيث العمل بعد تكميله مِن حيث الاعتقاد، فقال مستميلًا له: ﴿يَٰبُنَىَّ / أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلًا لنفسك، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلًا [٣٢٣ظ]
لغيرك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِن الشدائد والمِحَن، لا سيّما فيما أُمِرتَ به.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كلّ ما ذُكر، وما فيه مِن معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الفضل. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ممّا عزمه الله تعالى وقطعه على عباده مِن الأمور لمزيد مزيّتها. مصدر أطلق على المفعول. وقد جُوّز أن يكون بمعنى الفاعل مِن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد، ٤٧/٢١]، أي: جَدَّ. والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق مِن الأمر والنهي، وإيذان بأنّ ما بعدها ليس بمثابته.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُمِلْه ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما هو دَيدن المتكبّرين، مِن "الصَعَر"، وهو الصَّيَد؛ وهو داء يصيب البَعير، فيُلوى منه عنقُه. وقُرئ: "وَلَا تُصَاعِرْ".[٢] وقُرئ: "وَلَا تُصْعِرْ"[٣] مِن "الإفعال"، والكلّ بمعنًى، مِثل: "علاه" و"عالاه" و"أعلاه".

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فرحًا، مصدر وقع موقع الحال، أو مصدر مؤكِّد لِفعلٍ هو الحال، أي: تمرح مرَحًا، أو لأجل المرَح والبطَر.

---

[١] م ط س: السماء.

[٢] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ تعليل للنهي، أو موجَبِه،[1] وتأخير "الفَخور" مع كونه بمقابلة "المصعِّر خدَّه" عن "المختال" وهو بمقابلة "الماشي مَرحًا" لرعاية الفواصل.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المرَح فيه، أي: توسَّطْ بين الدبيب والإسراع، وعنه عليه السلام: «سرعة المشي يُذهب بهاء المؤمن».[2] وقول عائشة في عمر رضي الله تعالى[3] عنهما: «كان إذا مشى أسرع»،[4] فالمراد به ما فوق دبيب المتماوِت. وقُرئ بقطع "الهمزة"[5] مِن "أقصَدَ الرامي" إذا سدّد سهمَه نحو الرميّة.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ وانقص منه واقصر، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أي: أوحَشها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكَده، مبنيٌّ على تشبيه الرافعين أصواتَهم بالحمير، وتمثيلِ أصواتهم بالنُّهاق، وإفراطٌ في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه. وإفراد الصوت مع إضافتهِ إلى الجمع لِما أنّ المراد ليس بيانَ حالِ صوت كلّ واحد مِن آحاد هذا الجنس حتّى يُجمع؛ بل بيانُ حال صوتِ هذا الجنس مِن بين / أصوات سائر الأجناس. [٣٢٤و]

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ رجوع إلى سَنَن ما سلف قبل قصّة لقمان مِن خطاب المشركين، وتوبيخٌ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد. والمراد بالتسخيرِ إمّا جعلُ المسخَّرِ بحيث ينفع المسخَّرَ له أعمَّ مِن أن يكون منقادًا له يتصرّف فيه

---

١ م ط س - أو موجَبه ["صح" في هامش م].
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٧؛ حلية الاولياء لأبي نعيم، ٢٩٠/١٠.
٣ ط س - تعالى.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٥/٤. وذكره ابن الأثير في النهاية، «موت». وهو في الطبقات لابن سعد، ٢٢٠/٣، مِن قول الشفاء ابنة عبد الله.
٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٦/٨.

كيف يشاء، ويستعمله حسبما يريد كعامّة ما في الأرض مِن الأشياء المسخَّرة للإنسان المستعمَلة له مِن الجماد والحيوان، أو لا يكون كذلك؛ بل يكون سببًا لحصول مراده مِن غير أن يكون له دخل في استعماله، كجميع ما في السماوات مِن الأشياء التي نِيطت بها مصالح العباد معاشًا أو معادًا، وإمّا جَعْلُه منقادًا للأمر مذلَّلًا، على أنّ معنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم، فإنّ جميع ما في السماوات والأرض مِن الكائنات مسخَّرة لله تعالى مستتبِعة لمنافع الخلق، وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخَّرًا له[١] بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخَّر لله تعالى.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسةً ومعقولةً، معروفةً لكم وغيرَ معروفة، وقد مرّ شرح "النعمة" وتفصيلها في الفاتحة. وقُرئ: "أَصْبَغَ" بـ"الصاد"،[٢] وهو جارٍ في كلّ "سين" قارَنَه "الغين" أو "الخاء" أو "القاف" كما تقول في "سلَخ": "صلَخ"، وفي "سَقْر": "صَقْر"، وفي "سالغ":[٣] "صالغ". وقُرئ: "نِعْمَةً".[٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ مِن دليل، ﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن جهة الرسول عليه السلام ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه؛ بل بمجرّد التقليد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمَن يجادل، والجمع باعتبار المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريدون به عبادة الأصنام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: آباءَهم، / لا أنفسَهم كما قيل،[٥] فإنّ مدار إنكار الاتّباع واستبعادِه [٣٢٤ظ]

---

[١] م ط س - وإن كان مسخَّرًا له ["صح" في هامش م].

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زكريّا بن يحيى بن عمارة عن أبيه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[٣] وفي هامش م: سلَغَت الشاة: خرجَت نابَاها. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «سلغ».

[٤] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

[٥] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢١٦.

كونُ المتبوعين تابعين للشيطان، لا كونُ أنفسهم كذلك، أي: أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه مِن الشرك ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهم متوجّهون إليه حسب دعوته. والجملة في حيّز النصب على الحاليّة، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ١٧٠/٢] بما لا مزيدَ عليه.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأن فوّض إليه مجامع أموره، وأقبل عليه بكلّيته، وحيث عُدّي بـ"اللام" قُصِد معنى الاختصاص. وقُرئ بالتشديد.[١] ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في أعماله، آتٍ بها جامعةً بين الحسن الذاتي والوصفي، وقد مرّ في آخر سورة النحل. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: تعلّق بأوثَقِ ما يتَعلّق به مِن الأسباب، وهو تمثيل لحال المتوكّل المشتغِل بالطاعة بحال مَن أراد أن يترقّى إلى شاهِق جبل، فتمسّك بأوثَقِ عُرى الحبل المتدلّي منه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فيجازيه أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنّه لا يضرّك في الدنيا ولا في الآخرة. وقُرئ: "فَلَا يُحْزِنْكَ"،[٢] مِن "أَحْزَنَ" المنقولِ مِن "حَزِنَ" بكسر "الزاء"، وليس بمستفيض. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لا إلى غيرنا، ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في الدنيا مِن الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب. والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الأوّل باعتبار لفظها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل للتنبئة المعبّر بها عن التعذيب.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

٢ قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعًا، أو زمانًا قليلًا، فإنّ ما يزول وإن كان بعد أمَدٍ طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثِقَلَ الأجرام الغلاظ، أو يُضمّ إلى الإحراق الضغطُ والتضييق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[٣٢٥و] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ / لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لغاية وضوح الأمر بحيث اضطُرّوا إلى الاعتراف به. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضًا. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم. وقيل: لا يعلمون أنّ ذلك يلزمهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] فلا يستحقّ العبادةَ فيهما غيرُه. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن العالَمين، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد وإن لم يحمَده أحد، أو المحمودُ بالفعل يحمَده كلّ مخلوق بلسان الحال.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: لو أنّ الأشجار أقلام. وتوحيد "الشجرة" لِما أنّ المراد تفصيل الآحاد. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: مِن بعد نَفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: والحال أنّ البحر المحيط بسَعته يمدّه الأبحر السبعة مدًّا لا ينقطع أبدًا، وكُتبت بتلك الأقلام وبذلك المِداد كلماتُ الله ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ ونفِدت تلك الأقلام والمِداد، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩].

---

١ م ط س: وما في الأرض.

وقُرئ: "يُمِدُّهُ"[١] مِن "الإمداد" بـ"الياء" و"التاء". وإسناد المدّ إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظمَ منها وأطمّ؛ لأنّها هي المجاوِرة للجبال ومنابعِ المياه الجارية، وإليها يَنصبّ الأنهار العظام أوّلًا، ومنها يَنصبّ[٢] إلى البحر المحيط ثانيًا. وإيثارُ جمع القِلّة في الكلمات للإيذان بأنّ ما ذُكر لا يَفي بالقليل منها، فكيف بالكثير؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرج عن علمه وحكمته أمرٌ، فلا تنفَد كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

/ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلّا كخلقها وبعثها في سهولة التأتّي، إذ لا يشغله شأن عن شأن؛ لأنّ مناط وجود الكلّ تعلّق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتيّة، حسبما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا[٣] لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل، ١٦/٤٠]. [٣٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كلّ مسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصرُ كلَّ مبصَر، لا يشغله عِلم بعضِها عن عِلم بعض، فكذلك الخلق والبعث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: عامّ لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، وهو الأوفَق لِما سبق وما لحِق، أي: ألَمْ تعلم علمًا قويًا جاريًا مَجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخِل كلَّ واحد منهما في الآخر، ويضيفه إليه، فيتفاوت بذلك حالُه زيادةً ونقصانًا، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾، والاختلاف بينهما صيغةً،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٩.

٢ س: تنصب.

٣ م ط س: أمرنا.

لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوَين[١] في الآخر متجدِّد في كلّ حين، وأمّا تسخير النيّرَين فأمر لا تعدّدَ فيه ولا تجدّدَ، وإنّما التعدّد والتجدّد في آثاره، وقد أشيرَ إلى ذلك حيث قيل:

﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القسريّة على المدارات اليوميّة المتخالفة المتعدّدة حسب تعدّد الأيّام جريًا مستمرًّا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة، كما رُوي عن الحسن رحمه الله،[٢] فإنّه لا ينقطع جريهما إلّا حينئذ.

والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفَين لبيان الواقع بطُرق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به عليه السلام يجوز أن تكون حالًا مِن ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، فإنّ جريانهما إلى يوم القيامة مِن جملة ما في حيّز رؤيته عليه السلام.

هذا، وقد جُعل جريانهما عبارةً عن حركتهما الخاصّة بهما في فلكهما، والأجلُ المسمّى عن منتهى دورتهما، وجُعل مدّةُ الجريان للشمس سنةً، وللقمر [٣٢٦و] شهرًا، فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما، / وتنبيهٌ على كيفيّة إيلاج أحد المَلَوَين في الآخر، وكونِ ذلك بحسب اختلاف جرَيان الشمس على مداراتها اليوميّة، فكلّما كان جريانُها متوجّهًا إلى سَمت الرأس تزداد القوس التي هي فوق الأرض كِبَرًا، فيزداد النهار طولًا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات إلى سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان، ثمّ ترجع متوجّهةً إلى التباعد عن سَمْت الرأس، فلا تزال القِسيّ التي فوق الأرض تزداد صِغرًا، فيزداد النهارُ قِصَرًا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المَدارات اليوميّة عن سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها برجَ الجَدْي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾... إلخ، داخل معه في حيّز الرؤية على تقديرَي خصوص الخطاب وعمومه،

---

[١] المَلَوان: الليل والنهار. **الصحاح** للجوهري، «ملا».

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٢/٣؛ **تفسير القرطبي**، ٧٨/١٤.

فإنّ مَن شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبيرِ اللائق لا يكاد يَغفُل عن كون صانعه عزّ وجلّ محيطًا بجلائل أعماله ودقائقها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تُلِيَ مِن الآيات الكريمة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها في الفضل، وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: بسبب بيان أنّه تعالى هو الحقّ إلهيّتُه فقط ولأجلِه، لكونها ناطقة بحقّيّة التوحيد، ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: ولأجل بيان بطلان إلهيّة ما يدعونه مِن دونه تعالى، لكونها شاهدةً بذلك شهادةً بيّنةً لا ريبَ فيها. وقُرئ بـ"التاء"،[1] والتصريحُ بذلك مع أنّ الدلالة على اختصاص حقّيّة الإلهيّة به تعالى مستتبِعة للدلالة على بطلان إلهيّة ما عداه لإبراز كمال الاعتناءِ / بأمر التوحيد، وللإيذان بأنّ الدلالة على بطلان ما ذُكر ليست بطريق الاستتباع فقط؛ بل بطريق الاستقلال أيضًا. [٣٢٦ظ]

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: وبيانِ أنّه تعالى هو المترفّع عن كلّ شيء، المتسلّطُ عليه، فإنّ ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبيّن لاختصاص العلوّ والكبرياء به تعالى أيَّ بيان.

هذا، وقيل:[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن سَعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاصِ الباري تعالى به بسبب أنّه الثابت في ذاته الواجبُ مِن جميع جهاته، أو الثابتُ إلهيّته. وأنت خبير بأنّ حقّيّته تعالى وعلوّه وكبرياءَه وإن كانت صالحةً لمناطيّة ما ذُكر مِن الأحكام المعدودة لكنّ بطلان إلهيّة الأصنام لا دخلَ له في المناطيّة قطعًا، فلا مساغَ[3] لنظمه في سلك الأسباب؛ بل هو تعكيس للأمر، ضرورةَ أنّ الأحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها، لا أنّ بطلانها يقتضيها.

---

١ أي: "تدْعُونَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٧/٤.

٣ وفي هامش م: اللّهمّ إلّا أن يُجعل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾... إلخ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّ ما يدعون مِن دونه الباطل، على أنّ الجملة معترضة، وُسّطت بين المعطوفين مسارعةً إلى تحقيق حقّيّته تعالى وتقريرِها. «منه».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه. وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وغايةِ حكمته، وشمولِ إنعامه. و"الباء" إمّا متعلّقة بـ﴿تَجْرِى﴾، أو بمقدّر هو حال مِن فاعله، أي: ملتبسةً بنعمته تعالى. وقُرئ: "الْفُلُكَ" بضمّ "اللام"،[١] و"بِنِعْمَاتِ اللهِ"،[٢] وعين "فِعلَاتِ" يجوز فيه الكسر والفتح والسكون.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعضَ دلائل وَحدته وعلمه وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تعليل لِما قبله، أي: إنّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتها، كثيرةً في عددها، لكلِّ مَن يبالغ في الصبر على المشاقّ، فيُتعب نفسه في التفكّر في الأنفس والآفاق، ويبالغ في الشكر على نَعمائه. وهما صفتا المؤمن، فكأنّه قيل: لكلّ مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾

[٣٢٧و] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: عَلاهم وأحاط بهم ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ / كما يُظِلّ مِن جبل أو سحاب أو غيرهما. وقُرئ: "كَالظِّلَالِ"،[٣] جمع "ظُلّة"، كـ"قُلّة" و"قِلال". ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة مِن الهوى والتقليد بما دهاهم مِن الدواهي والشدائد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مقيم على القصد السويّ الذي هو التوحيد، أو متوسّطٌ في الكفر لانزجاره في الجملة. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّارٍ، فإنّه نقضٌ للعهد الفطري، أو رفضٌ لِما كان في البحر. و"الخَتْر": أشدّ الغَدر وأقبحُه. ﴿كَفُورٍ﴾ مبالغٍ في كفران نِعم الله تعالى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش وابن يعمر. وعن ابن أبي عبلة: "بِنَعِمَاتِ" بفتح النون وكسر العين. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٤٢٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمد بن الحنفيّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يَقضي عنه. وقُرئ: "لَا يُجْزِئُ"،[1] مِن "أَجزأَ" إذا أغنى. والعائد إلى الموصول محذوف، أي: لا يَجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على ﴿وَالِدٌ﴾، أو هو مبتدأ، خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغيير النظم للدلالة على أنّ المولود أَولى بأن يَجزي، وقطعِ طمَع مَن توقّع مِن المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه أصلًا، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان المبالغ في الغرور، بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم، ويُرجئكم التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقتِ قيامها، لِما رُوي أنّ الحارث بن عمرو[2] أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «متى الساعة؟ وإنّي قد ألقيتُ حبّاتي في الأرض، فمتى السماء تُمطر؟ وحملُ امرأتي ذكر أم أنثى؟ وما أعمل غدًا؟ وأين أموت؟» فنزلت.[3] وعنه عليه السلام: «مفاتح / الغيب خمس»، وتلا هذه الآية.[4] [٣٢٧ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب وأبي السماك وعامر بن عبد الله وأبي السوار. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٢٤.

[2] اختُلف في اسم السائل؛ ففي أسباب النزول للواحدي، ص ٣٤٧: "الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٢٣: "الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي الدرّ المنثور للسيوطي، ٦/٥٣٠: "الوارث، مِن بني مازن بن حفص بن قيس بن عيلان". وفي البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٢٥: "الحارث بن عمارة المحاربي".

[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠٥.

[4] مسند أحمد، ٨/٣٨٦ (٤٧٦٦)؛ صحيح البخاري، ٦/١١٥ (٤٧٧٨).

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه الذي قدّره، وإلى محلّه الذي عيّنه في علمه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"[١] مِن "الإنزال". ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِن ذكر أو أنثى، أو تامّ أو ناقص.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ مِن النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِن خير أو شرّ، وربّما يعزم على شيء منهما فيفعل خلافَه، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أيّ وقت تموت.

رُوي أنّ ملَك الموت مرّ على سليمان عليهما السلام، فجعل ينظر إلى رجل مِن جلسائه، فقال الرجل: «مَن هذا؟» قال: «ملَك الموت»، فقال: «كأنّه يريدني، فمُرِ الريح أن تحملني وتلقيَني ببلاد الهند»، ففعل، ثمّ قال الملَك لسليمان عليهما السلام: «كان دوام نظري إليه تعجّبًا منه حيث كنتُ أُمِرت بأن أقبِض روحه بالهند وهو عندك».[٢]

ونسبةُ العلم إلى الله تعالى والدرايةِ إلى العبد للإيذان بأنّه إن أعمَلَ حِيَلَهُ وبذَلَ في التعرّف وُسعَه لم يعرف ما هو لاحقٌ به مِن كسبه وعاقبته، فكيف بغيره ممّا لم يُنصب[٣] له دليل عليه؟ وقُرئ: "بِأَيَّةِ أَرْضٍ".[٤] وشَبّه سيبويه تأنيثَها بتأنيث "كلّ" في "كلّتهنّ".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا يَعزُب عن علمه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة لقمان كان لقمان رفيقًا له يوم القيامة، وأعطي مِن الحسنات عشرًا بعدد مَن عمل بالمعروف ونهى عن المنكر».[٥]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٢٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠٥.

٣ س: ينضب.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٥ ط س + تم. | الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٠٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٤٠. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سُورَةُ لُقْمَانَ

أخرج ابنُ الضريس وابن مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنزلت سورة لقمان بمكة[1]. ولا استثناء في هذه الرواية، وفي رواية النحاس في «تاريخه»[2] عنه استثناءُ ثلاث آياتٍ منها، وهي: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى تمام الثلاث، فإنها نزلْنَ بالمدينة، وذلك أنه ﷺ لمَّا هاجر قال له أحبار اليهود: بَلَغنا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] أعَنَيْتَنا أم قومَك؟ قال: «كلًّا عَنَيْتُ» فقالوا: إنك تعلمُ أننا أوتينا التوراةَ، وفيها بيانُ كلِّ شيءٍ. فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك في علم الله تعالى قليلٌ» فأنزل الآيات.

ونقل الداني عن عطاء، وأبو حيان عن قتادة، أنهما قالا: هي مكيةٌ إلا آيتين، هما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيتين[3].

وقيل: هي مكيةٌ إلا آيةً، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإنَّ إيجابهما بالمدينة. وأنت تعلم أنَّ الصلاة فُرِضتْ بمكةَ ليلة الإسراء كما في صحيح البخاريِّ وغيره[4]، فما ذُكر من أنَّ إيجابها بالمدينة غيرُ مسلَّم، ولو سلِّم فيكفي كونُهم مأمورين بها بمكةَ ولو ندباً، فلا يتمُّ التقريبُ فيها؛ نعم المشهورُ أنَّ الزكاة إيجابها بالمدينة، فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معاً تحقَّق بالمدينة لا أنَّ إيجابَ كلٍّ منهما تحقَّق فيها، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ إيجاب الصلاة كان بمكة.

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٣، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٥٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٨، ولعله أراد ناسخه إلا أنه أطلق عليه ذلك نظراً إلى موضوعه، والخبر في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٩.

(٣) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠٦، والبحر ٧/ ١٨٣.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقيل: إنَّ الزكاة إيجابُها كان بمكة كالصلاة، وتقديرُ الأنصباء هو الذي كان بالمدينة، وعليه لا تقريبَ فيهما.

وآيُها ثلاثٌ وثلاثون في المكيِّ والمدنيِّ، وأربعٌ وثلاثون في عدد الباقين.

وسببُ نزولها ـ على ما في «البحر» ـ أنَّ قريشاً سألتْ عن قصة لقمان مع ابنه وعن برِّ والديه، فنزلت[1].

ووجه مناسبتها لِمَا قبلها ـ على ما فيه أيضاً ـ أنه قال تعالى فيما قبلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة، وأنه كان في آخر ما قبلها ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ وفيها ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾[2].

وقال الجلال السيوطيُّ: ظهر لي في اتِّصالها بما قَبْلَها مع المؤاخاة في الافتتاح بـ«ألم» أن قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: فيما قبلُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ الآيةَ، فهذا عينُ إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر. وأيضاً ففي كلتا السورتين جملةٌ من الآيات وابتداء الخلق.

وذكر في السابقة: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ وقد فسِّر بالسماع، وذكر هنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وقد فسِّر بالغناء وآلات الملاهي[3]. اهـ. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك.

وأقول في الاتِّصال أيضاً: إنه قد ذكر فيما تقدَّم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهنا قوله سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وكلاهما يفيد سهولةَ البعث وقرَّر[4] ذلك هنا بقوله عز قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تناسق الدرر للسيوطي ص٧٣.
(٤) في الأصل: ونوّر.

وذكر سبحانه هناك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فذكر سبحانه في كلٍّ من الآيتين قِسْماً لم يذكره في الأخرى، إلى غير ذلك.

وما ألطفَ هذا الاتِّصال من حيث إن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم وغَلَبتهم، المَبْنيَّتين على المحاربة بين مَلِكَيْنِ عظيمين من ملوك الدنيا تَحارَبا عليها وخرجا[1] بذلك عن مقتضى الحكمة؛ فإنَّ الحكيم لا يحارب على دنيا دنيَّةٍ لا تعدِلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ، وهذه ذكر فيها قصة عبدٍ مملوك على كثيرٍ من الأقوال، حكيمٍ زاهدٍ في الدنيا، غير مكترثٍ بها ولا ملتفتٍ إليها، أوصى ابنَه بما يأبى المحاربةَ ويقتضي الصبرَ والمسالمةَ، وبين الأمرين من التقابُل ما لا يخفى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: ذي الحكمة، ووَصْفُ الكتاب بذلك عند بعض المغاربة مجازٌ؛ لأنَّ الوصف بذلك للتملُّك وهو لا يملك الحكمة بل يَشْتَمِلُ عليها ويتضمَّنها، فلأَجْلِ ذلك وُصف بالحكيم بمعنى: ذي الحكمة. واستَظْهَر الطيبيُّ أنه على ذلك من الاستعارة المكنية[2].

والحقُّ أنه من باب: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] على حدِّ: لابِنٍ وتامرٍ. نعم يجوز أن يكون هناك استعارةٌ بالكناية، أي: الناطق بالحكمة كالحي.

ويجوز أن يكون الحكيم من صفاته عز وجل ووُصِفَ الكتاب به من باب الإسناد المجازيِّ، فإنه منه سبحانه بدأ، وقد يُوصف الشيء بصفةِ مبدئه كما في قول الأعشى:

وغريبةٍ تأتي الملوك حكيمةٍ قد قلتُها ليقال مَن ذا قالها[3]

---

(١) في (م): وخرج.
(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٣) ديوان الأعشى ص١٥١.

وأن يكون الأصل: الحكيم مُنْزِلُه، أو: قائلُه، فحذف المضافُ إلى الضمير المجرور وأُقيم المضافُ إليه مقامَه، فانقلب مرفوعاً ثم استكنَّ في الصفة المشبهة.

وأن يكون «الحكيم» فعيلاً بمعنى مُفْعَل، كما قالوا: عقدتُ العسل فهو عقيد، أي: مُعْقَد، وهذا قليل. وقيل: هو بمعنى حاكم. وتمامُ الكلام في هذه الآية قد تقدَّم في الكلام على نظيرها(١).

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحالية من «آيات»، والعاملُ فيهما معنى الإشارة على ما ذكره غيرُ واحد، وبُحث فيه.

وقرأ حمزةُ والأعمش والزعفرانيُّ وطلحةُ، وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي ونظيفٍ بالرفع(٢) على الخبر بعد الخبر لـ «تلك» على مذهب الجمهور، أو الخبرِ لمحذوفٍ، أي: هي، أو هو، هدًى ورحمةٌ عظيمةٌ.

﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ أي: العاملين الحسنات، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً للمتعاطفَيْنِ، وقولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ كاشفةٌ أو بدلٌ أو بيانٌ لِمَا قبله، وإمَّا منصوبٌ أو مرفوع على القطع، وعلى كلٍّ فهو تفسيرٌ لـ «المحسنين» على طريقة قول أوس بن حجر:

الألْمعيّ الذي يَظُنُّ بك الظـ ... ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا(٣)

فقد حكي عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعيّ فأنشده ولم يَزِدْ عليه(٤). وهذا

---

(١) ١١/ ٩، عند تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].
(٢) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٣٤٦ عن حمزة، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٧/ ١٨٣.
ونظيف هو ابن عبد الله أبو الحسن الكسروي الحلبي، من كبار القراء، قرأ على قنبل في قول جماعة من المحققين، وقيل: بل على أحمد بن محمد اليقطيني عن قنبل. وانفرد عنه الهذلي بتقديم البسملة على التكبير، لم يروه أحد سواه. طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٤٢.
(٣) ديوان أوس بن حجر ص٥٣، والكشاف ٣/ ٢٢٩، والبحر ٧/ ١٨٣، ورواية الديوان: لك، بدل: بك.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

ظاهرٌ على تقديرِ أنْ يراد بالحسنات مشاهيرُها المعهودةُ في الدِّين، وأمَّا على تقدير أن يراد بها جميعُ ما يَحْسُنُ من الأعمال، فلا يَظْهَرُ إلا باعتبارِ جَعْلِ المذكورات بمنزلة الجميع من باب: كلُّ الصيد في جوف الفَرَا(١).

وقيل: إذا أُريدَ بالحسنات المذكوراتُ يكون الموصولُ صفةً كاشفةً، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ استئنافاً، وإذا أُريدَ بها جميعُ ما يَحْسُنُ من الأعمال، وكان تخصيصُ المذكورات بالذكر لفَضْلِ اعتدادٍ بها، يكون الموصول مبتدأً وجملةُ «أولئك على هدى» إلخ خبرَه، والكلامُ استئنافٌ بذِكْرِ الصفة الموجبة للاستئهال.

وقيل: إنَّ الموصول على التقديرين صفةٌ، إلَّا أنه على التقدير الأول كاشفةٌ، وعلى التقدير الثاني صفةٌ مادحةٌ للوصف لا للموصوف.

وبناءُ «يوقنون» على «هم» للتقوِّي، وأُعيدَ الضمير للتأكيد، ولدَفْعِ تَوهُّمِ كونِ «بالآخرة» خبراً، وجَبْراً للفصل بين المبتدأ وخبرِه، ولم يؤخَّر الفاصلُ للفاصلة.

وذكر بعضُ أجلَّة المفسِّرين في قوله تعالى أولَ سورة البقرة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [الآية: ٤] أنَّ بناء «يوقنون» على «هم» يدلُّ على أنَّ مقابليهم ليسوا من اليقين في ظلٍّ ولا فَيْءٍ، وأنَّ تقديم «في الآخرة»(٢) يدلُّ على أنَّ ما عليه مُقابِلوهم ليس من الآخرة في شيءٍ، وذلك لإفادةِ تقديم الفاعلِ المعنويِّ وتقديمِ الجارِّ على متعلَّقه الاختصاصَ، فانظر هل يتسنَّى نحوُ ذلك هنا؟

وقد مرَّ أولَ سورة البقرة(٣) ما يُعلم منه وجهُ اختيارِ اسم الإشارة ووجهُ تكراره، وفي الآية كلامٌ بعدُ لا يخفى على مَن راجَعَ ما ذكروه من الكلام على ما يُشْبِهها هناك وتأمَّلَ، فراجعْ وتأمَّلْ.

---

(١) الفرأ: حمار الرحش، وهو في المثل دون همز لأن الأمثال موضوعة على الوقف، وأصل المثل أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبياً، وآخر أرنباً، وآخر فرأً، فقال لأصحابه: كل الصيد. . . ، أي: كلُّه دونه. جمهرة الأمثال٢/ ١٦٢، والمستقصى٢/ ٢٢٤، ومجمع الأمثال٢/ ١٣٦، والقاموس(فرأ).

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: بالآخرة.

(٣) ١/ ٣٧٢-٣٧٣.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضٌ من الناس، أو بعضُ الناس ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: الذي - أو فريقٌ - يشتري، على أنَّ مناط الإفادة والمقصودَ بالأصالة هو اتِّصافُهم بما في حيِّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين.

والجملةُ عطفٌ على ما قبلها بحَسَبِ المعنى، كأنه قيل: من الناس هادٍ مهديٌّ، ومنهم ضالٌّ مضلٌّ، أو عطف قصةٍ على قصة.

وقيل: إنها حالٌ من فاعل الإشارة، أي: أُشيرُ إلى آيات الكتاب حالَ كونها هدًى ورحمةً والحالُ «من الناس مَن يشتري» إلخ.

و«لهو الحديث» على ما روي عن الحسن: كلُّ ما شَغَلَكَ عن عبادة الله تعالى وذِكْرِه، من السَّمَر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوِها، والإضافةُ بمعنى «من» إن أريد بالحديث المنكَرُ، كما في حديث «الحديثُ في المسجد يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ البهيمةُ الحشيشَ»[1] بناءً على أنها بيانيةٌ.

وتبعيضيةٌ إن أُريدَ به ما هو أعمُّ منه بناءً على مذهب بعض النحاة كابن كيسان والسيرافي؛ قالوا: إضافةُ ما هو جزءٌ من المضاف إليه بمعنى «من» التبعيضيةِ، كما يدلُّ عليه وقوعُ الفصل بها في كلامهم، والذي عليه أكثرُ المتأخِّرين وذهب إليه ابن السرَّاج[2] والفارسيُّ - وهو الأصحُّ - أنها على معنى اللام، كما فصَّله أبو حيان في «شرح التسهيل» وذكره شارحُ «اللمع».

وعن الضحاك أنَّ لهو الحديث: الشرك. وقيل: السحر.

وأخرج ابن أبي شيبة وابنُ أبي الدنيا وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر، والحاكمُ وصحَّحه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن أبي الصهباء قال: سألتُ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ) قال: هو واللهِ الغناء[3]. وبه فسَّر كثيرٌ.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ١٥٢: لم أقف له على أصل. وسلف ١٠/ ٢٥٨.

(٢) ينظر الأصول في النحو ١/ ٥٣، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٢.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٥، والمستدرك ٢/ ٤٤٥، والشعب (٥٠٩٨)، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

والأحسنُ تفسيرُه بما يعمُّ كلَّ ذلك كما ذكرناه عن الحسن، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» وابن أبي الدنيا وابن جرير وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس أنه قال: «لهو الحديث» هو الغناءُ وأشباهُه[١]. وعلى جميع ذلك يكون الاشتراءُ استعارةً لاختياره على القرآن واستبدالِه به.

وأخرج ابن عساكر عن مكحول في قوله تعالى: ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: الجواري الضاربات[٢].

وأخرج آدم وابن جرير والبيهقيُّ في «سننه» عن مجاهد أنه قال فيه: هو اشتراؤُه المغنِّي والمغنِّيَةَ، والاستماعُ إليه وإلى مثله من الباطل[٣].

وفي روايةٍ ذكرها البيهقيُّ في «الشعب»[٤] عن ابن مسعود أنه قال في الآية: هو رجلٌ يشتري جاريةً تغنِّيه ليلاً أو نهاراً.

واشتهر أنَّ الآية نزلت في النضر بن الحارث؛ ففي روايةِ جويبرٍ عن ابن عباس[٥] أنه اشترى قينةً فكان لا يسمعُ بأحدٍ يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسْقِيه وغنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوكَ إليه محمدٌ - ﷺ - من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه. فنزلت.

وفي «أسباب النزول» للواحدي عن الكلبيِّ ومقاتل أنه كان يخرجُ تاجراً على فارس فيشتري أخبار الأعاجم - وفي بعض الروايات كتبَ الأعاجم - فيرويها ويحدِّثُ بها قريشاً، ويقول لهم: إنَّ محمداً (عليه الصلاة والسلام) يحدِّثكم بحديث

---

(١) الأدب المفرد (٧٨٦) و(١٢٦٥)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٥، وسنن البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٨/ ١٤٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٣٧، وسنن البيهقي ١٠/ ٢٢٥، وعزاه لآدم (وهو ابن أبي إياس) السيوطي في الدر ٥/ ١٦٠.

(٤) في الأصل و(م): السنن، وهو خطأ، والمثبت من الدر المنثور ٥/ ١٦٠، والكلام منه، والخبر في شعب الإيمان (٥١٠٤).

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٩.

عاد وثمود، وأنا أحدِّثكم بحديثِ رستم وإسفنديار، وأخبارِ الأكاسرة. فيَسْتَمْلِحون حديثَه ويتركون استماعَ القرآن، فنزلت(١).

وقيل: إنها نزلت في ابن خطل، اشترى جاريةً تغنِّي بالسب(٢).

ولا يأبى نزولَها فيمَن ذُكر الجمعُ في قوله تعالى بعدُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ كما لا يخفى على الفَطِنِ.

والاشتراءُ على أكثر هذه الروايات على حقيقته، ويحتاج في بعضها إلى عموم المجاز، أو الجمعِ بين الحقيقة والمجاز كما لا يخفى على مَن دقق النظر، وجَعْلِ المغنِّية ونحوِها نفسَ لَهْوِ الحديث مبالغةً كما جُعِلَ «النساء» في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤] نفس الزينة.

وفي «البحر»: إن أُريدَ بلهو الحديث ما يقع عليه الشراء كالجواري المغنِّيات وككتب الأعاجم فالاشتراءُ حقيقةٌ، ويكونُ الكلام على حذف مضافٍ، أي: مَن يشتري ذاتَ لهوِ الحديث(٣).

وقال الخفاجيُّ عليه الرحمة: لا حاجةَ إلى تقدير ذات؛ لأنه لـمَّا اشتُريت المغنية لغنائها فكأنَّ المشتَرَى هو الغناء نفسه(٤). فتدبَّره.

وفي الآية عند الأكثرين ذمٌّ للغناء بأعلى صوتٍ، وقد تضافرتِ الآثارُ وكلماتُ كثيرٍ من العلماء الأخيار على ذمِّه مطلقاً لا في مقامٍ دون مقام، فأخرج ابنُ أبي الدنيا والبيهقيُّ في «شعبه» عن ابن مسعود قال: إذا ركب الرجلُ الدابة ولم يسمِّ رَدفَه شيطانٌ فقال: تغنَّه. فإن كان لا يُحْسِنُ قال: تمنَّه(٥).

وأخرجا أيضاً عن الشعبي عن القاسم بن محمد أنه سئل عن الغناء فقال

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٢.
(٢) البحر ٧/ ١٨٣.
(٣) البحر٧/ ١٨٣-١٨٤.
(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٣.
(٥) شعب الإيمان (٥١٠٣)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (١٩٤٨١).

للسائل: أنهاك عنه وأكرهُه لك. فقال السائل: أحرامٌ هو؟ قال: انظر يا ابن أخي إذا ميَّز الله تعالى الحقَّ من الباطل في أيِّهما يَجعَلُ سبحانه الغناء؟[١].

وأخرجا عنه أيضاً أنه قال: لعن الله تعالى المغنِّي والمغنَّى له[٢].

وفي «السنن» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الغناء ينبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماء البقلَ»[٣] وأخرَج عنه نحوه ابن أبي الدنيا[٤]، ورواه ابن عدي[٥] عن أبي هريرة، والديلميُّ عنه وعن أنس[٦]، وضعَّفه ابن القطان[٧]، وقال النووي[٨]: لا يصحُّ، وقال العراقي: رفعُه غير صحيح لأنَّ في إسناده مَن لم يسمَّ[٩]. وفيه إشارة إلى أنَّ وقفه على ابن مسعود صحيح وهو في حكم المرفوع إذ مثلُه لا يقال من قِبَلِ الرأي.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحدٌ صوته بغناءٍ إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على مَنْكِبَيْه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك»[١٠].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وهو في سنن البيهقي ١٠/ ٢٢٤ من طريق يحيى بن سليم عن عبيد الله بن عمر عن القاسم.

(٢) الشعب (٥١٠٥)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٣) سنن البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) دون التشبيه. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٩: وفيه شيخ لم يسمَّ، وفي الباب عن أبي هريرة رواه ابن عدي، وقال ابن طاهر: أصح الأسانيد في ذلك أنه من قول إبراهيم.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، كما في الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وفيض القدير ٤/ ٤١٣.

(٥) في الأصل: ورواه عدي، وقوله: ابن عدي، ساقط في (م)، ووقع في مطبوع فيض القدير ٤/ ٤١٣ (والكلام منه): أبو عدي، والصواب ما أثبتناه، وهو في الكامل ٤/ ١٥٩٠، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣١٠) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٦) فيض القدير ٤/ ٤١٣، وهو في مسند الفردوس ٣/ ١١٥ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٧) في بيان الوهم والإيهام ٣/ ٢٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير.

(٨) كما في فيض القدير ٤/ ٤١٣.

(٩) المغني عن حمل الأسفار للعراقي على هامش الإحياء ٢/ ٢٨٦، والكلام من فيض القدير.

(١٠) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وهو قطعة من حديث أخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٤١، والبغوي ٣/ ٤٨٩، من طريق

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ عن أبي عثمان الليثي قال: قال يزيد بن الوليد الناقص: يا بني أمية إياكم والغناءَ فإنه ينقصُ الحياءَ، ويزيدُ في الشهوة، ويهدمُ المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعلُ ما يفعلُ السُّكْرُ، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين فجنِّبوه النساء فإنَّ الغناء داعيةُ الزنى[1].

وقال الضحَّاك: الغناءُ مَنْفَدةٌ للمال، مَسْخَطةٌ للربِّ، مفسدةٌ للقلب.

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذيُّ وابن ماجه وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وغيرهم، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القَيْناتِ، ولا تشتروهنَّ، ولا تعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ، وثَمنُهنَّ حرامٌ، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إلى آخر الآية»[2].

وفي رواية ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى حرَّم القَيْنَةَ وبيعَها وثمنَها وتعليمَها والاستماعَ إليها» ثم قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾[3]. ويعودُ هذا ونحوُه إلى ذمِّ الغناء.

وقيل: الغناء جاسوسُ القلب، وسارقُ المروءة والعقول، يتغلغلُ في سويداء القلوب، ويطَّلعُ على سرائر الأفئدة، ويدبُّ إلى بيت التخييل فينشر ما غُرِزَ فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة، فبينما ترى الرجل وعليه سَمْتُ الوقار وبهاءُ

= عبيد الله بن زَحْر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة به. وأخرج قطعة أخرى منه غير المذكورة أحمد والترمذي وابن ماجه كما سيرد قريباً. وعبيد الله بن زحر الإفريقي ضعيف، وعلي بن يزيد الألهاني ضعيف جدًّا. وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد، وهو منكر الحديث كما قال الدارقطني وغيره. الميزان ٤/ ٣٤٩.

(١) شعب الإيمان (٥١٠٨)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩.

(٢) مسند أحمد (٢٢٢٨٠)، وسنن الترمذي (١٢٨٢) و(٣١٩٥)، وسنن ابن ماجه (٢١٦٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٢، والمعجم الكبير (٧٨٦٢)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٩، وهو قطعة من حديث أبي أمامة السالف وإسناده ضعيف جدًّا كما سلف قريباً.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٩، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٠٩)، وأعله بليث بن أبي سليم.

العقل وبهجةُ الإيمان ووقارُ العلم، كلامُه حكمةٌ، وسكوتهُ عبرةٌ، فإذا سمع الغناء نقصَ عقلُه وحياؤه، وذهبت مروءته وبهاؤه، فيَسْتَحْسِنُ ما كان قبل السماع يستقبحُه، ويبدي من أسراره ما كان يكتمُه، وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان، والاهتزازِ كأنه جانّ، وربما صفَّق بيديه، ودقَّ الأرض برجليه، وهكذا تفعل الخمر، إلى غير ذلك.

واختلف العلماء في حُكْمِه؛ فحكَى تحريمَه عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه القاضي أبو الطيب والقرطبيُّ والماورديُّ والقاضي عياض[1].

وفي «التاتارخانية»: اعلم أنَّ التَّغنِّيَ حرامٌ في جميع الأديان. وذكر في «الزيادات»[2] أنَّ الوصية للمغنِّين والمغنِّيات مما هو معصيةٌ عندنا وعند أهل الكتاب. وحُكي عن ظهير الدين المرغيناني[3] أنه قال: مَن قال لمقرئ زماننا أحسنتَ عند قراءته كَفَر. وصاحبا «الهداية» و«الذخيرة» سمَّياه كبيرةً. هذا في التغنِّي للناس في غير الأعياد والأعراس، ويدخل فيه تغنِّي صوفية زماننا في المساجد، والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمُرْدِ، بل هذا أشدُّ من كلِّ تغنٍّ؛ لأنه مع اعتقاد العبادة، وأمَّا التغنِّي وحده بالأشعار لدَفْعِ الوحشة، أو في الأعياد والأعراس، فاختلفوا فيه، والصوابُ منعُه مطلقاً في هذا الزمان. انتهى.

وفي «الدر المختار»[4]: التغنِّي لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به[5] عند العامة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦٢، وإكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٠٦. أما الماوردي فقد قال في الحاوي ١٧/ ١٨٨: كرهه (يعني الغناء) الشافعي وأبو حنيفة ومالك في أصح ما نقل عنهم، فلم يبيحوه على الإطلاق ولم يحظروه على الإطلاق، فتوسطوا فيه بالكراهة بين الحظر والإباحة.

(٢) كما في البحر الرائق ٧/ ٨٨. وكتاب الزيادات في فروع الحنفية لمحمد بن الحسن الشيباني.

(٣) هو الحسن بن علي أبو المحاسن، له كتاب الأقضية والشروط، والفتاوى، والفوائد، وغيرها، تفقه على برهان الدين الكبير عبد العزيز بن عمر بن مازه، وعلى أبيه علي بن عبد العزيز ظهير الدين الكبير المرغيناني المتوفى سنة (٥٠٦هـ). الفوائد البهية ص١٠٧ و٢٠٤. وينظر كلامه في البحر الرائق ٨/ ٢٣.

(٤) ٢/ ١٦٨.

(٥) جاء في حاشية (م): قوله: لا بأس به.. إلخ، لِمَا جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من زهَّاد الصحابة، وكان يتغنى. وأُجيبَ بأنه يجوز أن يكون =

على ما في «العناية»، وصحَّحه العينيُّ[١] وغيرُه، قال: ولو فيه وعظٌ وحكمةٌ فجائزٌ اتِّفاقاً، ومنهم مَن أجازه في العرس كما جاز ضربُ الدفِّ فيه، ومنهم مَن أباحه مطلقاً، ومنهم مَن كرهه مطلقاً. انتهى. وفي «البحر»: والمذهبُ حرمتُه مطلقاً فانقطع الاختلاف[٢]، بل ظاهرُ «الهداية» أنه كبيرةٌ ولو لنفسه، وأقرَّه المصنفُ، وقال: ولا تُقبل شهادةُ مَن يسمع الغناء أو يجلسُ مجلسَه. انتهى كلام «الدر».

وذكر الإمام أبو بكر الطرطوشي[٣] في كتابه في «تحريم السماع» أنَّ الإمام أبا حنيفة يكره الغناء ويجعلُه من الذنوب، وكذلك مذهبُ أهل الكوفة سفيان وحماد وإبراهيم والشعبيِّ وغيرهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك، ولا نعلم خلافاً بين أهل البصرة في كراهة ذلك والمنعِ منه. انتهى. وكأنَّ مراده بالكراهة الحرمةُ، والمتقدِّمون كثيراً ما يريدون بالمكروه الحرام، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨].

ونَقَل عليه الرحمةُ فيه أيضاً عن الإمام مالكٍ أنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جاريةً فوجدها مغنِّيةً فله أنْ يردَّها بالعيب. وأنه سُئل: ما[٤] يرخِّصُ فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: إنما يفعلُه عندنا الفسَّاق.

= معنى يتغنى: ينشد الأشعار، أي: المباحة. اهـ منه. قلت: قوله: زهَّاد، تحرف في حاشية (م) إلى: دهاة، والمثبت من فتح القدير لابن الهمام ٦/ ٣٦، والبناية في شرح الهداية ٧/ ١٧٥.

(١) جاء في هامش (م): قوله: وصححه العيني، وإليه ذهب شمس الأئمة السرخسي. اهـ منه. وينظر كلام العيني والسرخسي في البناية في شرح الهداية ٧/ ١٧٥، وفتح القدير ٦/ ٣٥-٣٦.

(٢) البحر الرائق ٧/ ٨٩.

(٣) في الأصل و(م): الطرسوسي، وهو تصحيف، والمثبت من إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٠٢، والكلام منه، ومثله في عون المعبود ١٣/ ٢٢٣. وأبو بكر الطرطوشي هو محمد بن الوليد بن خلف الفهري الأندلسي، شيخ المالكية، عالم الإسكندرية، له مؤلف في تحريم الغناء، وكتاب في الزهد، ومؤلف في البدع والحوادث، وغير ذلك، توفي سنة (٥٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠.

(٤) في إغاثة اللهفان: عما، ومثله في تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦٢، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/ ٣٣٦.

ونُقِلَ التحريم عن جمعٍ من الحنابلة على ما حكاه شارح «المقنع»[(١)] وغيرُه. وذكر شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ في كتاب «البلغة»[(٢)] أنَّ أكثر أصحابهم على التحريم. وعن عبد الله ابن الإمام أحمد أنه قال: سألتُ أبي عن الغناء؟ فقال: ينبتُ النفاق في القلب، لا يعجبني. ثم ذكر قولَ مالكٍ: إنما يفعلُه عندنا الفسَّاق[(٣)].

وقال المحاسبيُّ في رسالة «الإنشاد»[(٤)]: الغناء حرامٌ كالميتة.

ونَقَل الطرطوشي[(٥)] أيضاً عن كتاب «أدب القضاء» أنَّ الإمام الشافعي ﷺ قال: إنَّ الغناء لهوٌ مكروهٌ يُشْبِهُ الباطل والمحال، مَن استكثر منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه[(٦)]. وفيه أنه صرَّحَ أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على مَن نسب إليه حِلَّه، كالقاضي أبي الطيب الطبري[(٧)]، والشيخ أبي إسحاق في «التنبيه»[(٨)]، وذكر بعضُ تلامذة البغوي في كتابه الذي سماه «التقريب» أنَّ الغناء حرامٌ فعلُه وسماعُه. وقال ابن الصلاح في «فتاواه» بعد كلام طويل: فإذن هذا السماعُ حرامٌ بإجماع أهل الحلِّ والعقد من المسلمين[(٩)]. انتهى.

---

(١) «الشرح الكبير على كتاب المقنع» لشمس الدين أبي الفرج ابن قدامة المقدسي ٢٩/ ٣٧٠.

(٢) لم نقف على كتاب البلغة لابن تيمية، وإنما هو لتلميذه أحمد بن إبراهيم الواسطي الحزامي عماد الدين المتوفى سنة (٧١١هـ)، واسم كتابه: البلغة والإقناع في حل شبهة مسألة السماع، وله بلغة أخرى في الفقه الحنبلي، وهو مختصر الكافي. الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي ص٧١، وكشف الظنون ١/ ٢٥٢.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٧، وهو في مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله ٣/ ١٠٠٤ دون قول مالك.

(٤) في (م): الإنشاء.

(٥) في الأصل و(م): الطرسوسي، وهو تصحيف.

(٦) ونقل كلام الشافعي في كتاب أدب القضاء أيضاً الغزالي في إحياء علوم الدين٢/ ٢٦٩، وابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٤، وهو بنحوه في الأم ٦/ ٢١٤-٢١٥.

(٧) في الأصل و(م): والطبري، وهو خطأ، والمثبت من إغاثة اللهفان ٢/ ٣٢٤، وعنه نقل المصنف.

(٨) إغاثة اللهفان ١/ ٣٢٤، وكلام أبي إسحاق في التنبيه ص١٢٣، ولفظه: ولا تصح ـ يعني الإجارة ـ على منفعة محرَّمة، كالغناء والزمر وحمل الخمر. اهـ. قال ابن القيم: ولم يذكر فيه خلافاً. اهـ. قلت: ولكن أبا إسحاق قال في المهذب ٢/ ٣٢٧: ويكره الغناء وسماعه من غير آلة مطربة، ولا يحرم.

(٩) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٠١.

والذي رأيته في «الشرح الكبير للجامع الصغير»[١] للفاضل المُناويِّ أنَّ مذهب الشافعيِّ أنه مكروهٌ تنزيهاً عند أَمْنِ الفتنة.

وفي «المنهاج»: يُكره الغناءُ بلا آلةٍ. قال العلَّامة ابن حجر[٢]: لِمَا صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه. وذَكَر الحديثَ السابق الموقوفَ عليه، وأنه جاء مرفوعاً من طرقٍ كثيرةٍ بيَّنها في كتابه «كفُّ الرَّعاع عن محرَّمات اللهو والسماع»[٣].

ثم قال: وزَعْمُ أنه لا دلالةَ فيه على كراهته لأنَّ بعض المباح كلبس الثياب الجميلة ينبتُ النفاقَ في القلب وليس بمكروهٍ، يُردُّ بأنَّا لا نسلِّم أنَّ هذا ينبتُ نفاقاً أصلاً، ولئن سلَّمناه فالنفاقُ مختلفٌ، فالنفاقُ الذي ينبته الغناءُ من التخنُّث وما يترتَّبُ عليه أقبحُ وأشنع كما لا يخفى.

ثم قال: وقد جزم الشيخان - يعني النووي والرافعي - في موضعٍ بأنه معصيةٌ، وينبغي حملُه على ما فيه وصفُ نحوِ خمرٍ أو تشبُّبٌ بأمردَ أو أجنبيةٍ، ونحو ذلك ممَّا يُحْمَلُ غالباً على معصية، قال الأذرعيُّ: أمَّا ما اعتيد عند محاولةِ عملٍ وحمل ثقيل، كحداء الأعراب لإبلهم والنساءِ لتسكين صغارهنَّ، فلا شكَّ في جوازه، بل ربَّما يُندَبُ إذا نشَّط على سيرٍ، أو رغَّب في خير، كالحداء[٤] في الحجِّ والغزو، وعلى هذا يُحْمَلُ ما جاء عن بعض الصحابة. انتهى، وقضيةُ قولهم: بلا آلةٍ، حرمتُه مع الآلة، قال الزركشيُّ: لكنَّ القياس تحريمُ الآلة فقط، وبقاءُ الغناء على الكراهة. انتهى[٥].

ومِثْلُ الاختلافِ في الغناء الاختلافُ في السماع، فأباحه قومٌ كما أباحوا الغناء، واستدلُّوا على ذلك بما رواه البخاريُّ عن عائشة قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) واسمه: فيض القدير، والكلام فيه ٤/ ٤١٤.

(٢) في تحفة المحتاج بشرح المنهاج ١٠/ ٢١٨.

(٣) كف الرعاع على هامش الزواجر ١/ ١٠ و١٦. وقد ذكر فيه الحديث مرفوعاً عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر، وحديث ابن مسعود وأبي هريرة تقدم الكلام فيهما، وأما حديث جابر ففيه علي بن حماد، قال الدارقطني: متروك. وعبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد، قال أبو حاتم: أحاديثه منكرة، وقال ابن الجنيد: لا يساوي فلساً. فيض القدير ٤/ ٤١٤.

(٤) في الأصل: كالجد.

(٥) يعني كلام ابن حجر في «تحفة المحتاج في شرح المنهاج».

وعندي جاريتان تغنِّيان بغناءِ بُعَاث، فاضْطَجَع على الفراش وحوَّل وجهه ـ وفي روايةٍ لمسلم: تسجَّى بثوبه ـ ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارةُ الشيطان عند النبيِّ ﷺ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غَفَلَ غمزْتُهما فخرجتا، وكان يوم عيد، الحديثَ[1].

ووجهُ الاستدلال أنَّ هناك غناءً أو سماعاً، وقد أنكر عليه الصلاة والسلام إنكارَ أبي بكر ﵁، بل فيه دليلٌ أيضاً على جواز سماع الرجل صوتَ الجارية ولو لم تكن مملوكةً؛ لأنه عليه الصلاة والسلام سمع ولم ينكر على أبي بكر سماعَه، بل أَنْكَر إنكارَه، وقد استمرَّتا تغنيان إلى أنْ أشارت إليهما عائشةُ بالخروج. وإنكارُ أبي بكر على ابنته ﵂ مع عِلْمِه بوجود رسول الله ﷺ كان لظنٍّ أنَّ ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام؛ لكونه دخل فوجده مغطًّى بثوبه فظنَّه نائماً.

وفي «فتح الباري»[2]: استدلَّ جماعةٌ من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلةٍ وبغيرِ آلةٍ، ويكفي في ردِّ ذلك ما رواه البخاريُّ أيضاً بُعيدَه عن عائشةَ أيضاً قالت: دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنِّيان بما تقاوَلَت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنِّيتين. فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟! وذلك في يوم عيدٍ. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ لكلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدُنا»[3] فنفت فيه عنهما من طريق المعنَى ما أثبتته لهما باللفظ؛ لأنَّ الغناء يطلقُ على رفع الصوت وعلى الترنُّم الذي تسمِّيه العربُ النَّصْبَ ـ بفتح النون وسكونِ المهملة ـ وعلى الحداء، ولا يسمَّى فاعلُه مغنِّياً وإنما يسمَّى بذلك مَن ينشدُ بتمطيطٍ وتكسيرٍ وتهييجٍ وتشويقٍ، بما فيه تعريضٌ بالفواحش أو تصريحٌ.

قال القرطبيُّ[4]: قولُها: ليستا بمغنِّيتين، أي: ليستا ممن يَعْرِفُ الغناءَ كما تعرفه

---

(١) صحيح البخاري (٩٤٩)، وصحيح مسلم (٨٩٢).
(٢) ٢/ ٤٤٢.
(٣) صحيح البخاري (٩٥٢).
(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم، والكلام من كتابه: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٢/ ٥٣٤، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الفتح ٢/ ٤٤٢.

المغنِّياتُ المعروفاتُ بذلك، وهذا منها تحرُّزٌ[1] عن الغناء المعتاد عند المشتهِرينَ به، وهو الذي يحرك الساكنَ ويبعثُ الكامن، وهذا النوعُ إذا كان في شعرٍ فيه وصفُ محاسنِ النساء والخمرِ وغيرِهما من الأمور المحرَّمة لا يُختلفُ في تحريمه، وأمَّا ما ابتدعه الصوفيةُ في ذلك فمن قبيل ما لا يُختلف في تحريمه، لكنَّ النفوس الشهوانيةَ غَلَبَتْ على كثيرٍ ممن يُنسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت في[2] كثيرٍ منهم فعلاتُ المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركاتٍ متطابقةٍ وتقطيعاتٍ متلاحقة، وانتهى التواقُحُ بقومٍ منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَبِ وصالحِ الأعمال، وأنَّ ذلك يُثْمِر سَنيَّ الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقولِ أهلِ المَخْرَقة، والله تعالى المستعان. انتهى كلام القرطبي، وكذا الغرضُ من كلام «فتح الباري»، وهو كلامٌ حسنٌ، بيدَ أنَّ قوله: وإنما يسمَّى بذلك مَن يُنْشِدُ. . إلخ، لا يخلو عن شيءٍ، بناءً على أنَّ المتبادر عمومُ ذلك لِمَا يكونُ في المنشَدِ منه[3] تعريضٌ أو تصريحٌ بالفواحش ولِمَا لا يكونُ فيه ذلك.

وقال بعض الأجلَّة: ليس في الخبر الإباحةُ مطلقاً، بل قُصارى ما فيه إباحتُه في سرورٍ شرعيٍّ كما في الأعياد والأعراس، فهو دليلٌ لمن أجازه في العرس كما أجاز ضربَ الدُّفِّ فيه.

وأيضاً إنكارُ أبي بكر ﷺ ظاهرٌ في أنه كان سمع من رسول الله ﷺ ذمَّ الغناءِ والنهيَ عنه، فظنَّ عمومَ الحُكْم فأَنْكَر، وبإنكاره عليه الصلاة والسلام عليه إنكارَه تبيَّن له عدمُ العموم. وفي الخبر الآخرِ ما يدلُّ على أنه أوضحَ له ﷺ الحالَ مقروناً ببيانِ الحكمة، وهو أنه يومُ عيدٍ فلا يُنْكَرُ فيه مثلُ هذا، كما لا يُنْكَر في الأعراس. ومع هذا أشار ﷺ بالتفافه بثوبه وتحويلِ وجهه الشريف إلى أنَّ الإعراض عن ذلك أولى.

وسماعُ صوتِ الجاريةِ الغيرِ المملوكة بمثلِ هذا الغناء إذا أُمِنَتِ الفتنةُ مما لا بأس به، فليكن الخبرُ دليلاً على جوازه.

---

(١) في الأصل و(م): وهذا منهما تجوز، والمثبت من المفهم وفتح الباري.

(٢) في المفهم والفتح: من.

(٣) قوله: منه، ليس في الأصل.

واستدلَّ بعضُهم على ذلك بما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك ـ وكان من دهاة الصحابة ﷺ ـ وكان يتغنَّى[(١)]. ولا يخفى ما فيه؛ فإنَّ هذا التغنِّيَ ليس بالمعنَى المشهور، ونحوُه التغنِّي في قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن»[(٢)] وسفيان بن عيينة وأبو عبيدة فسَّرا التغنِّيَ في هذا الحديث بالاستغناء، فكأنه قيل: ليس منَّا مَن لم يَسْتَغْنِ بالقرآن عن غيره.

وهو مع هذا تغنٍّ لإزالة الوحشة عن نفسه في عقر داره، ومثلُه ما روي عن عبد الرحمن[(٣)] بن عوف قال: أتيتُ بابَ عمر ﷺ فسمعتُه يغنِّي:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً منها جميل بنُ معمر

أراد به جميلاً الجمحيَّ وكان خاصًّا به، فلمَّا استأذنتُ عليه قال لي: أسمعتَ ما قلتُ؟ قلت: نعم. قال: إنَّا إذا خَلَوْنا قلنا ما يقول الناسُ في بيوتهم[(٤)].

وحرَّم جماعةٌ السماعَ مطلقاً، وقال الغزاليُّ[(٥)]: السماعُ إمَّا محبوبٌ بأنْ غَلَبَ على السامع حبُّ الله تعالى ولقائه؛ ليستخرج به أحوالاً من المكاشفات والملاطفات، وإما مباحٌ بأن كان عنده عشقٌ مباحٌ لحليلته، أوْ لم يغلب عليه حبُّ الله تعالى ولا الهوى، وإما محرَّمٌ بأنْ غلب عليه هوًى محرَّمٌ.

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الإنشاد في المحبة والرقص فقال: الرقصُ بدعةٌ لا يتعاطاه إلا ناقصُ العقل، فلا يصلُح إلا للنساء، وأمَّا استماعُ الإنشاد المحرِّك للأحوال السَّنِية وذِكْرِ أمور الآخرة فلا بأس به، بل يُندَبُ عند

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/ ١٧، والحاكم ٣/ ٢٩١ وصححه. وليس فيهما قوله: وكان من دهاة الصحابة، وقد ذكرنا ص١٦ من هذا الجزء أن الصواب: زهَّاد، بدل: دهاة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ١٣/ ٥٤٤.

(٣) في الأصل و(م): عبد الله، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) الكامل للمبرد ٢/ ٥٦٤-٥٦٥، وذكر القصة الزبير بن بكار كما في أسد الغابة ١/ ٣٥١، والتمهيد ٢٢/ ١٩٧-١٩٨، فجعل المتغنِّي عبد الرحمن والداخل عمر. قال ابن الأثير: وروى محمد بن يزيد هذا الخبر فقلبه، والزبير أعلم بهذا الشأن. اهـ. وقال ابن عبد البر: والصواب ما قال الزبير.

(٥) في الإحياء ٢/ ٣٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٩.

الفتور وسآمةِ القلب، ولا يحضُر السماعَ مَن في قلبه هوًى خبيثٌ؛ فإنه يحرِّك ما في القلب.

وقال أيضاً: السماعُ يختلفُ باختلاف السامعين والمسموعِ منهم، وهم إما عارفون بالله تعالى، ويختلفُ سماعُهم باختلافِ أحوالهم:

فمن غَلَبَ عليه الخوفُ أثَّر فيه السماعُ عند ذكر المخوفات نحوَ حزنٍ وبكاءٍ وتغيُّر لون، وهو إما خوفُ عقابٍ، أو [خوف] فواتِ ثوابٍ، أو [فوات] أنسٍ وقُرْبٍ، وهو أفضلُ الخائفين والسامعين، وتأثيرُ القرآن فيه أشدُّ.

ومَن غلب عليه الرجاءُ أثَّر فيه السماعُ عند ذكر المُطْمِعات والمُرْجِيات، فإن كان رجاؤه للأنس والقُرْبِ كان سماعُه أفضلَ سماع الراجين، وإن كان رجاؤه للثواب، فهذا في المرتبة الثانية، وتأثيرُ السماع في الأول أشدُّ من تأثيره في الثاني.

ومَن غلب عليه حبُّ الله تعالى لإنعامه فيؤثِّر فيه سماعُ الإنعام والإكرام، أو لجماله سبحانه المطلَقِ فيؤثِّرُ فيه ذكرُ شرف الذات وكمالِ الصفات، وهو أفضلُ مما قبله؛ لأنَّ سبب حبِّه أفضلُ الأسباب، ويشتدُّ التأثير فيه عند ذكر الإقصاء والإبعاد.

ومَن غلب عليه التعظيمُ والإجلال، وهو أفضلُ من جميع ما قبله، وتختلفُ أحوال هؤلاء في المسموع منه، فالسماعُ من الوليِّ أشدُّ تأثيراً من السماع من عاميٍّ، ومن نبيٍّ أشدُّ تأثيراً منه ومن وليٍّ، ومن الربِّ عز وجل أشدُّ تأثيراً من السماع من نبيٍّ؛ لأنَّ كلام المهيب أشدُّ تأثيراً في الهائب من كلام غيره، كما أنَّ كلام الحبيب أشدُّ تأثيراً في المحبِّ من كلام غيره، ولهذا لم يشتغل النبيون والصدِّيقون وأصحابُهم بسماع الملاهي والغناء، واقتصروا على كلام ربِّهم جلَّ شأنه.

ومَن يغلب عليه هوًى مباحٌ ـ كمَن يعشقُ حليلته ـ فهو يؤثِّر فيه آثارَ الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق، فسماعُه لا بأس به.

ومَن يغلب عليه هوًى محرَّمٌ ـ كعشق أمردَ أو أجنبيةٍ ـ فهو يؤثِّر فيه السعيَ إلى الحرام، وما أدَّى إلى الحرام فهو حرام.

وأما مَن لم يجد في نفسه شيئاً من هذه الأقسام الستة فيكره سماعه من جهةِ أنَّ الغالب على العامَّة إنما هي الأهواءُ الفاسدةُ، فربما هيَّجه السماعُ إلى صورةٍ محرَّمةٍ، فيتعلَّق بها ويميلُ إليها، ولا يحرُمُ عليه ذلك لأنَّا لا نتحقَّقُ السببَ المحرِّم. وقد يحضرُ السماعَ قومٌ من الفَجَرة فيبكون وينزعجون لأغراضٍ خبيثةٍ انطوَوْا عليها، ويراؤون الحاضرين بأنَّ سماعهم لشيءٍ محبوب، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين إيهام كونهم من الصالحين. وقد يحضر السماعَ قومٌ قد فقدوا أهاليهم ومَن يعزُّ عليهم، ويذكِّرهم المنشدُ فراقَ الأحبَّةِ وعدم الأنس، فيبكي أحدُهم ويُوهِمُ الحاضرين أنَّ بكاءه لأَجْلِ ربِّ العالمين جل وعلا، وهذا مراءٍ بأمرٍ غيرِ محرَّمٍ.

ثم قال: اعْلَمْ أنه لا يحصلُ السماعُ المحمودُ إلا عند ذكر الصفات الموجبةِ للأحوال السنيَّةِ والأفعال الرضيَّة، ولكلِّ صفةٍ من الصفات حالٌ مختصٌّ بها، فمَن ذَكَر صفةَ الرحمة أو ذُكِّر بها كانت حالُه حالَ الراجين وسَمْعُه سماعَهم، ومَن ذَكَر شدةَ النقمة أو ذكِّر بها كانت حالُه حالَ الخائفين وسماعُه سماعَهم، وعلى هذا القياسُ، وقد تَغلبُ الأحوال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشدُ، ولا يلتفتُ إليه لغلبةِ حاله الأولى عليه[1]. انتهى، وقد نقله بعضُ الأجلَّة وأقرَّه، وفيه ما يخالفُ ما نُقِل عن الغزالي.

ونقل القاضي حسين[2] عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه قال: الناسُ في السماع إما عوامٌ وهو حرامٌ عليهم لبقاء نفوسهم، وإما زهَّادٌ وهو مباحٌ لهم لحصول مجاهدتهم، وإما عارفون وهو مستحبٌّ لهم لحياة قلوبهم. وذكر نحوَه أبو طالب المكيُّ[3]، وصحَّحه السهرورديُّ عليه الرحمة في «عوارفه»[4].

---

(١) فتاوى العز بن عبد السلام ص٣١٩-٣٢٥، وما سلف بين حاصرتين منه ومن كف الرعاع ١/ ٢٠.

(٢) كما في كف الرعاع ١/ ١٨.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي المنشأ العجمي الأصل، الزاهد شيخ الصوفية، توفي سنة (٣٨٦هـ). السير ١٦/ ٥٣٦. وينظر كلامه في كتابه قوت القلوب ٢/ ٦١-٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٨.

(٤) ينظر عوارف المعارف في التصوف للشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي الشافعي المتوفى سنة (٦٣٢هـ) ص ١٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في كف الرعاع ١/ ١٩.

والظاهرُ أنَّ الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحيَّ، واستظهر بعضهم أنه لم يُرِدْ ذلك وإنما أراد أنه لا ينبغي.

ونقل بعضهم عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه سئل عن السماع فقال: هو ضلالٌ للمبتدي، والمنتهي لا يحتاج إليه. وفيه مخالفةٌ لِمَا سمعتَ.

وقال القشيريُّ[(١)] رحمه الله تعالى: إنَّ للسماع شرائطَ منها معرفةُ الأسماء والصفات؛ ليعلم صفاتِ الذات من صفات الأفعال، وما يمتنعُ في نعت الحقِّ سبحانه وما يجوزُ وصفُه تعالى به وما يجبُ، وما يصحُّ إطلاقه عليه عز شأنه من الأسماء وما يمتنعُ. ثم قال: فهذه شرائطُ صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوي العقول، وأمَّا عند أهل الحقائق فالشرطُ فناءُ النفسِ بصِدْقِ المجاهَدةِ، ثم حياةُ القلب بروح المشاهدة، فَمَنْ لم تتقدَّم بالصحة معاملتُه، ولم تحصل بالصِّدق منازلتُه، فسماعُه ضياعٌ، وتواجُدُه طِباعٌ، والسماعُ فتنةٌ يدعو إليها استيلاءُ العشق إلا عند سقوط الشهوة وحصولِ الصفوة. وأطال بما يطولُ ذِكْرُه، قيل: وبه يتبيَّن تحريمُ السماع على أكثر متصوِّفة الزمان؛ لفَقْدِ شروط القيام بأدائه.

ومن العجب أنهم ينسبون السماع والتواجُدَ إلى رسول الله ﷺ، ويروون عن عطيةَ أنه عليه الصلاة والسلام دخل على أصحاب الصُّفَّة يوماً فجلس بينهم، وقال عليه الصلاة والتحية: «هل فيكم مَن ينشدنا أبياتاً؟» فقال واحد:

لَسَعتْ حيةُ الهوى كبدي ... ولا طبيبَ لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شُغِفْتُ به ... فعنده رُقيتي وترياقي

فقام عليه الصلاة والسلام وتَمايَلَ حتى سقط الرداءُ الشريف عن منكبيه، فأخذه أصحابُ الصفَّةِ فقسَّموه فيما بينهم بأربع مئةِ قطعةٍ[(٢)].

---

(١) في كتاب السماع له، كما في كف الرعاع ١/ ٢٢.

(٢) أخرجه ابن طاهر في السماع كما في اللسان ٤/ ٢٧٠، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٤ في ترجمة عمار بن إسحاق: كأنه واضعٌ هذه الخرافة التي فيها: قد لسعت حية الهوى كبدي، فإن الباقين ثقات. اهـ. وقال ابن تيمية كما في المقاصد الحسنة ص٣٣٣: هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وما روي في ذلك فموضوع. اهـ. وقال ابن حجر الهيتمي في كف الرعاع ١/ ٤٣: من الأحاديث الموضوعة الكذب، التي لا تحلُّ روايتها إلا لبيان حالها حتى

وهو لعمري كذبٌ صريحٌ وإفكٌ قبيحٌ، لا أصلَ له بإجماع محدِّثي أهلِ السنَّة، وما أراه إلا من وضع الزنادقة، فهذا القرآنُ العظيم يتلوه جبريلُ عليه السلام عليه ﷺ، ويتلوه هو أيضاً ويسمعُه من غير واحدٍ، ولا يعتريه عليه الصلاة والسلام شيءٌ مما ذكروه في سماع بيتين هما كما سمعتَ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

وأنا أقول: قد عَمَّتِ البلوى بالغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع، ولا يُتَحاشَى من ذلك في المساجد وغيرها، بل قد عيِّن مغنُّون يغنُّون على المنائر في أوقاتٍ مخصوصةٍ شريفةٍ بأشعارٍ مشتملةٍ على وصف الخمر والحانات، وسائر ما يعدُّ من المحظورات، ومع ذلك قد وظِّف لهم من غلَّة الوقف ما وظِّف، ويسمُّونهم الممجِّدين، ويَعُدُّون خلوَّ الجوامع من ذلك من قِلَّة الاكتراث بالدِّين.

وأشنعُ من ذلك ما يفعله أبالسةُ المتصوِّفة ومَرَدتُهم، ثم إنهم قبَّحهم الله تعالى إذا اعتُرِض عليهم بما اشتَملَ عليه نشيدُهم من الباطل، يقولون: نعني بالخمر المحبةَ الإلهية، وبالسُّكر غلبتَها، وبميَّةَ وليلى وسعدى مثلاً المحبوبَ الأعظم، وهو الله عز وجل، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وفي «القواعد الكبرى» للعزِّ بن عبد السلام[1]: ليس من أدب السماع أن يشبَّه غلبةُ المحبة بالسُّكر من الخمر فإنه سوءُ أدبٍ، وكذا تشبيهُ المحبة بالخمر لأنَّ الخمر أمُّ الخبائث، فلا يشبَّه ما أحبَّه الله تعالى بما أبغضه وقضى بخُبْثِه ونجاستِه، فإنَّ تشبيه النفيس بالخسيس سوءُ أدبٍ بلا شكٍّ فيه، وكذا التشبيهُ بالخصر والردف، ونحوِ ذلك من التشبيهات المستَقْبَحات، ولقد كُره لبعضهم قولُه: أنتم روحي ومعلم[2] راحتي، ولبعضهم قولُه: فأنت السمعُ والبصر؛ لأنه شبَّه مَن لا شبيهَ له بروحه الخسيسةِ وسمعِه وبصرِه اللذَيْنِ لا قَدْرَ لهما.

ثم إنه وإن أباح بعضَ أقسام السماع حطَّ على مَن يرقصُ ويصفِّقُ عنده فقال[3]:

= لا يغتر العامة بها ما رواه الكذاب ابن طاهر بسنده الباطل عن أنس، وذكر الحديث.

(١) ٢/ ١٨٤.

(٢) في القواعد: ومعكم.

(٣) في القواعد ٢/ ١٨٦.

أما الرقصُ والتصفيقُ فخفَّةٌ ورعونةٌ مشبَّهةٌ برعونة الإناث، لا يفعلها إلا أرعنُ أو متصنعٌ كذَّاب، وكيف يتأتَّى الرقصُ المتَّزنُ بأوزان الغناء ممن طاش لبُّه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خيرُ القرون قَرْني ثم الذين يَلُونَهم»[١] ولم يكن أحدٌ من هؤلاء الذين يُقتدَى بهم يفعلُ شيئاً من ذلك، وإنَّما استَحْوذَ الشيطانُ على قوم يظنُّون أنَّ طربهم عند السماع إنما هو متعلِّقٌ بالله تعالى شأنُه. ولقد مانوا[٢] فيما قالوا، وكَذَبوا فيما ادَّعوا، من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين: إحداهما: لذةُ قليلٍ من الأحوال[٣] المتعلِّقةِ بذي الجلال. والثانية: لذةُ الأصوات والنغماتِ والكلماتِ الموزونات، المُوجِبات لِلَذَّاتٍ ليست من آثار الدِّين ولا متعلِّقةً بأموره، فلمَّا عَظُمتْ عندهم اللذَّاتُ غلطوا فظنُّوا أنَّ مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال، وليس كذلك، بل الأغلبُ عليهم حصولُ لذَّاتِ النفوس التي ليست من الدِّين في شيءٍ.

وقد حرَّم بعضُ العلماء التصفيقَ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما التصفيق للنساء»[٤] ولعن رسول الله ﷺ المتشبِّهات من النساء بالرجال، والمتشبِّهين من الرجال بالنساء[٥]. ومَن هاب الإله وأدرك شيئاً من تعظيمه لم يُتصوَّر منه رقصٌ ولا تصفيقٌ، ولا يَصْدُران إلا من جاهل، ويدلُّ على جهالة فاعلهما أنَّ الشريعة لم تَرِدْ بهما في كتاب ولا سنَّةٍ، ولم يفعل ذلك أحدٌ من الأنبياء، ولا معتَبَرٌ من أتباعهم، وإنما يفعل ذلك الجهلةُ السفهاء الذين التبست عليهم الحقائقُ بالأهواء، وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولقد مضى السَّلَفُ وأفاضلُ الخلف ولم يلابِسوا شيئاً من ذلك، فما ذاك إلا غرضٌ من أغراض النفس، وليس بقربةٍ إلى الربِّ جل وعلا، وفاعلُه إن كان ممن يقتدَى به ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربةً فبئسَ ما صنع؛ لإيهامه أنَّ هذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرُّعونات.

---

(١) سلف ١١/ ٥٥.

(٢) أي: كذبوا. القاموس (مان).

(٣) في القواعد: إحداهما لذة المعارف والأحوال.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٣٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس ﷺ.

وأمَّا الصياحُ والتغاشي ونحوُهما فتصنُّعٌ ورياء، فإن كان ذلك عن حالٍ لا يقتضيهما فإثمُ الفاعل من جهتين: إحداهما: إيهامُه الحالَ الثابتة الموجبة لهما. والثانية: تصنُّعه ورياؤه. وإن كان عن مقتضٍ أَثِمَ إثْمَ رياءٍ لا غير.

وكذلك نتفُ الشعور وضربُ الصدور وتمزيقُ الثياب محرَّمٌ لِمَا فيه من إضاعة المال، وأيُّ ثمرةٍ لضَرْبِ الصدور ونتفِ الشعور وشقِّ الجيوب إلا رعونات صادرة عن النفوس؟! اهـ كلامُه، ومنه يُعلم ما في نَقْلِ الإسْنَويِّ عنه رحمه الله تعالى أنه كان يرقصُ في السماع، والعلّامة ابن حجر قال: يُحمل ذلك على مجرَّد القيام والتحرُّك لغَلَبةِ وَجْدٍ وشهودٍ وتَجَلٍّ لا يعرفه إلا أهله[1]. ومن ثَمَّ قال الإمام إسماعيلُ الحضرميُّ مُوْقِفُ الشمسِ[2] عن قومٍ يتحرَّكون في السماع: هؤلاء قومٌ يروِّحون قلوبَهم بالأصوات الحسنة حتى يصيروا روحانيين، فهم بالقلوب مع الحقِّ وبالأجساد مع الخلق، ومع هذا فلا يؤمَنُ عليهم العدوُّ، ولا يعوَّلُ عليهم فيما فَعَلوا، ولا يُقتدَى بهم فيما قالوا. اهـ.

وما ذكره فيمَن يصدُرُ عنه نحوُ الصياحِ والتغاشي عن حالٍ يقتضيه لا يخلو عن شيءٍ، فقد قال البلقينيُّ فيما يصدُر عنهم من الرقص الذي هو عند جمع ليس بمحرَّمٍ ولا مكروهٍ؛ لأنه مجرَّدُ حركاتٍ على استقامةٍ أو اعوجاجٍ، ولأنه عليه الصلاة والسلام أقرَّ الحبشةَ عليه في مسجده يوم عيد[3]، وعند آخرين مكروهٌ، وعند هذا القائل حرامٌ إذا كثُر بحيث أسقط المروءة: إن كان[4] باختيارهم فهم كغيرهم،

---

(١) بنحوه في كف الرعاع ١/ ٤٨.

(٢) هو إسماعيل بن محمد الحضرمي اليمني، أبو العباس، كان إماماً من أئمة المسلمين وعَلَماً من أعلام الولاية، يحكى من كراماته أنه كان في سفر، فقاربت الشمس من الغروب وهو بعيد عن المدينة، فطلب من الشمس أن تقف، فوقفت حتى بلغ مقصده، توفي سنة (٦٧٧هـ). جامع كرامات الأولياء ١/ ٣٥٥.

(٣) أخرجه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال ابن حجر في كف الرعاع ١/ ٥٢: إن ذلك لم يكن من الحبشة رقصاً على غناء، ولا ضرباً بالأقدام، ولا إشارة بالأكمام، بل كان لعباً بالسلاح، وتأهُّباً للكفاح، تدريباً على استعمال السلاح في الحرب، وتمريناً على الكر والفر والطعن والضرب.

(٤) قوله: إن كان... إلخ، هو جملة مقول القول. لقوله: فقد قال البلقيني...

وإلا فليسوا بمكلَّفين. واستوضحه بعضُ الأجلَّة وقال: يجبُ اطِّراده في سائر ما يُحكى عن الصوفية ممَّا يخالف ظواهرَ الشرع، فلا يحتجُّ به لأنه إن صدر عنهم في حالِ تكليفهم فهم كغيرهم، أو مع غيبتهم لم يكونوا مكلَّفين به.

والذي يظهر لي أنَّ غناء الرجل بمثْلِ هذه الألحانِ إنْ كان لدَفْعِ الوحشةِ عن نفسه فمباحٌ غيرُ مكروهٍ كما ذهب إليه شمسُ الأئمة السرخسيُّ، لكنْ بشرطِ أنْ لا يسمعَه مَن يُخشى عليه الفتنةُ من امرأةٍ أو غيرِها. ولا مَن يستخفُّ به ويسترذلُه، وبشرطِ أنْ لا يغيَّر اسمٌ معظَّمٌ بنحوِ زيادةٍ ليست فيه في أصلِ وَضْعِه؛ لأَجْلِ أنْ لا يَخْرجَ عن مقتضَى الصنعة، مثل أن يقول في الله: إيلاه، وفي محمد: موحامَّد، هذا مع كونِ ما يتغنَّى به ممَّا لا بأسَ بإنشاده.

وإن كان للناس لِلَهْوِ في غير حادثِ سرورٍ كعرسٍ، بأجرةٍ أو بدونها، ازدُري به لذلك أو لم يُزْدَرَ، كان ما يتغنَّى به مباحَ الإنشاد أو لم يكن، فحرامٌ وإن أُمنت الفتنة، وأراه من الصغائر كما يقتضيه كلام الماورديِّ حيث قال: وإذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهي من الصغائر دون الكبائر[1].

وإن كان في حادثِ سرورٍ، فهو مباحٌ إن أُمنت الفتنة، وكان ما يُتَغنَّى به جائزَ الإنشاد، ولم يُغيَّر فيه اسمٌ معظَّمٌ، ولم يكن سبباً للازدراء به وهَتْكِ مروءته، ولا لاجتماع الرجال والنساء على وجهٍ محظور. وإن كان سبباً لمحرَّمٍ فهو حرامٌ، وتتفاوتُ مراتبُ حرمته حَسْبَ تفاوُتِ حرمة ما كان هو سبباً له.

وإن كان للناس لا لِلَهوِ بل لتنشيطهم على ذكر الله تعالى، كما يُفعل في بعض حِلَقِ التهليل في بلادنا، فمحتمِلُ الإباحةِ إن لم يتضمَّن مفسدةً، ولعله إلى الكراهة أقرب.

وربما يقال: إنه حينئذٍ قربةٌ كالحُداء ـ وهو ما يقال خلف الإبل من رَجَزٍ[2] وغيره ـ إذا كان منشِّطاً لسيرٍ هو قربةٌ، لأنَّ وسيلةَ القربة قربةٌ اتفاقاً.

---

(١) الحاوي ١٧/ ١٩٢.

(٢) في الأصل و(م): زجر، والمثبت هو الصواب. ينظر نهاية المحتاج ٨/ ٢٩٦، ومغني المحتاج ٤/ ٤٣٠.

فيقال: لم نقف على خبرٍ في اشتمال حِلَقِ الذكر على عهد رسول الله ﷺ، وكذا على عهد خلفائه وأصحابِه ﷺ - وهم أحرصُ الناس على القُرَبِ - على هذا الغناء ولا على سائر أنواعه، وصحَّت أحاديثُ في الحداء[1]، ولذا أطلق جمعٌ القولَ بنَدْبِه، وكونُهم نَشِطينَ بدون ذلك لا يمنعُ أن يكون فيهم مَن يزيدُه ذلك نشاطاً. فلو كان لذلك قربةٌ لفعلوه ولو مرةً، ولم يُنقل أنهم فعلوه أصلاً.

على أنه لا يَبعُدُ أن يقال: إنه يشوِّش على الذاكرين، ولا يتمُّ لهم معه تدبُّرُ معنى الذكرِ وتصوُّرُه، وهو بدون ذلك لا ثوابَ فيه بالإجماع. ولعل ما يُفعل على المنائر مما يسمُّونه تمجيداً منتظِمٌ عند الجهلة في سلكِ وسائلِ القرب، بل يَعدُّه أكثرهم قربةً من حيث ذاتُه، وهو لعمري عند العالِم بمعزلٍ عن ذلك.

وإن كان لحاجةِ مرضٍ تعيَّنَ شفاؤه به فلا شكَّ في جوازه.

والإكبابُ على المباح منه يخرمُ المروءة، كاتخاذه حرفةً، وقولُ الرافعي: لا يخرمُها إذا لاق به، ردَّه الزركشيُّ بأنَّ الشافعيَّ نصَّ على ردِّ شهادته[2]، وجرى عليه أصحابُه؛ لأنها حرفةٌ دَنِيَّةٌ ويعدُّ فاعلُها في العُرْفِ ممن لا حياءَ له.

وعن الحسن أنَّ رجلاً قال له: ما تقولُ في الغناء؟ قال: نِعْمَ الشيءُ الغناءُ، يوصَلُ به الرَّحِمُ، وينفَّس به عن المكروب، ويُفْعَلُ فيه المعروف. قال: إنما أعني الشَّدْوَ. قال: وما الشَّدْوُ[3]، أتعرف منه شيئاً؟ قال: نعم. قال: فما هو؟ فاندفع الرجل يغنِّي ويَلْوي شدقَيْهِ ومنخرَيْه، ويكسر عينيه، فقال الحسن: ما كنتُ أرى أنَّ عاقلاً يبلغ من نفسه ما أرى.

واختلفوا في تعاطي خارم المروءة على أوجُهٍ؛ ثالثها: إن تعلَّقتْ به شهادةٌ حَرُمَ وإلا فلا؛ قال بعض الأجلَّة: وهو الأوجَهُ؛ لأنه يحرُمُ عليه التسبُّبُ في إسقاط ما تحمَّله وصار أمانةً عنده لغيره، ويظهر لي أنه إن كان ذلك من عالِمٍ يُقْتَدَى به، أو

---

(١) ينظر حديث سلمة بن الأكوع عند البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)، وحديث أنس بن مالك ﷺ عند البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٢٣٢٣).

(٢) سلف كلام الشافعي ص١٧ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(م): الشد، في الموضعين، وهو تصحيف.

كان ذلك سبباً للازدراء، حَرُمَ أيضاً، وأنَّ سماعه ـ أي: استماعَه، لا مجرَّدَ سماعِه بلا قصدٍ ـ عند أمنِ الفتنة، وكونِ ما يُتغنَّى به جائزَ الإنشادِ، وعدمِ تسبُّبه لمعصيةٍ كاستدامةِ مغنٍّ لغناءٍ آثم به، مباحٌ، والإكبابُ عليه كما قال النوويُّ: يُسْقِطُ المروءةَ، كالإكباب على الغناء المباح، والاختلافُ في تعاطي مسقطها قد ذكرناه آنفاً. وأمَّا سماعُه عند عَدَم أمن الفتنة، وكونِ ما يُتغنَّى به غيرَ جائزِ الإنشاد، وكونِه متسبِّباً لمعصيةٍ، فحرامٌ، وتتفاوتُ مراتبُ حرمته، ولعلها تصلُ إلى حرمةٍ كبيرةٍ.

ومن السماع المحرَّم سماعُ متصوِّفةِ زماننا وإن خلا عن رقصٍ، فإنَّ مفاسده أكثرُ من أن تُحْصَى، وكثيرٌ مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يُتلَى، ومع هذا يعتقدونه قربةً، ويزعمون أنَّ أكثرهم رغبةً فيه أشدُّهم رغبةً أو رهبةً، قاتلهم الله تعالى أنَّى يؤفكون.

ولا يخفى على مَن أحاط خُبراً بما تقدَّم عن القشيريِّ وغيره أنَّ سماعَهم مذمومٌ عند مَن يعتقدون انتصاره لهم، ويحسبون أنهم وإياه من حزبٍ واحدٍ، فويلٌ لمن شفعاؤه خُصماؤه، وأحبَّاؤه أعداؤه.

وأمَّا رَقْصُهم عليه فقد زادوا به في الطنبور رنَّةً، وضمُّوا ـ كَسَر الله تعالى شوكتَهم ـ بذلك إلى السَّفَهِ جُنَّةً. وقد أفاد بعضُ الأجلَّة أنه لا تقبل شهادةُ الصوفية الذين يرقصون على الدفِّ الذي قيل: يباحُ ـ أو يسنُّ ـ ضربُه لعرسٍ وختانٍ وغيرهما من كلِّ سرورٍ، ومنه قدومُ عالِمٍ ينفع المسلمين، رادًّا على مَن زعم القبولَ، فقال: وعن بعضهم: تُقبلُ شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدفِّ لاعتقادهم أنَّ ذلك قربةٌ كما تُقبلُ شهادة حنفيٍّ شرب النبيذ لاعتقاده إباحتَه، وكذا كلُّ مَن فَعَلَ ما اعْتَقَد إباحتَه. اهـ، وردَّ بأنه خطأٌ قبيحٌ؛ لأنَّ اعتقاد الحنفيِّ نشأ عن تقليدٍ صحيحٍ، ولا كذلك غيرُه، وإنما منشؤه الجهلُ والتقصيرُ فكان خيالاً باطلاً لا يُلتفت إليه. اهـ.

ثم إنِّي أقول: لا يبعدُ أن يكون صاحبَ حالٍ يحرِّكه السماعُ ويثيرُ منه ما يلجئهُ إلى الرقص أو التصفيق، أو الصَّعْقِ والصياح، أو تمزيقِ[1] الثياب، أو نحوِ ذلك

(١) في (م): وتمزيق.

مما هو مكروهٌ أو حرامٌ، فالذي يظهر لي في ذلك أنه إنْ عَلِمَ من نفسه صدورَ ما ذكر كان حكمُ الاستماع في حقِّه حكمَ ما يترتَّب عليه، وإن تردَّد فيه فالأحوطُ في حقِّه إن لم نقل بالكراهة عدمُ الاستماع، ففي الخبر: «دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ»(١).

ثم إنَّ مَن حَصَلَ له شيءٌ من ذلك بمجرَّد السماع من غيرِ قَصْدٍ، ولم يقدر على دفعه أصلاً، فلا لومَ ولا عتابَ فيه عليه، وحُكْمُه في ذلك حُكْمُ مَن اعتراه نحوُ عطاسٍ وسعالٍ قَهْرِيَّيْنِ، ولا يُشترط في دَفْع اللوم والعتاب عنه كونُ ذلك مع غيبته، فلا يجب على مَن صدر منه ذلك إن لم يَغِبْ إعادةُ الوضوء للصلاة مثلاً.

ولْيُنْظَرْ فيما لو اعتراه وهو في الصلاة بدون غيبة، هل حُكْمُه حُكْمُ نحوِ العطاس والسعال إذا اعتراه فيها أم لا؟ والذي سمعتُه عن بعض الكبار الثاني، فتدبَّر.

ومن الناس مَن يعتريه شيءٌ مما ذكر عند سماع القرآن، إمَّا مطلقاً أو إذا كان بصوتٍ حسنٍ، وقلَّما يقع ذلك من سماع القرآن أو غيره لكاملٍ؛ وعن عائشة رضي الله عنها أنه قيل لها: إنَّ قوماً إذا سمعوا القرآن صُعِقوا؟ فقالت: القرآن أكرمُ من أن يُسرق منه عقولُ الرجال، ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣](٢).

وكثيراً ما يكون لضَعْفِ تحمُّل الوارد، وبعضُ المتصنِّعين يفعلُه رياءً. وعن ابن سيرين أنه سُئل عمَّن يسمع القرآن فيصعق؟ فقال: ميعادُ ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائطٍ، فيُقرأ عليهم القرآنُ من أوَّله إلى آخره، فإن صُعقوا فهو كما قالوا.

ولا يَرِدُ على إباحة الغناء وسماعِه في بعض الصُّور خبرُ ابن مسعود: «الغناء ينبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماءُ البقلَ» لا لأنَّ الغناء فيه مقصورٌ وأنَّ المراد به غنى المال الذي هو ضدُّ الفقر؛ إذ يَرُدُّ ذلك أنَّ الخبر روي من وجهٍ آخر بزيادةٍ:

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي ٨/ ٣٢٧ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١١-١١٢.

«والذكر يُنْبِتُ الإيمانَ في القَلْبِ كما يُنْبِتُ الماءُ الزرعَ»(١) ومقابلةُ الغناء بالذكر ظاهرٌ في [أنَّ](٢) المراد به التغنِّي، على أنَّ الرواية كما قال بعضُ الحفاظ بالمدّ، بل لأنَّ المراد أنَّ الغناء من شأنه أنْ يترتَّبَ عليه النفاقُ ـ أي: العَمَليُّ ـ بأن يحرِّك إلى غدرٍ وخُلْفِ وعدٍ وكذبٍ ونحوِها، ولا يلزمُ من ذلك اطِّرادُ الترتُّب، وربما يشير إلى ذلك التشبيهُ في قوله: «كما ينبتُ الماء البقلَ»، فإنَّ إنباتَ الماءِ البقلَ غيرُ مطَّردٍ، ونظيرُ ذلك في الكلام كثير، والقائلُ بإباحته في بعض الصور إنما يبيحه حيث لا يترتَّبُ عليه ذلك. نعم لا شكَّ أنَّ ما هذا شأنُه الأحوطُ بعد كلِّ قيل وقال عدمُ الرغبةِ فيه، كذا قيل.

وقيل: يجوز أن يكون أريدَ بالنفاق الإيمانيُّ، ويؤيِّدهُ مقابلتُه في بعض الروايات بالإيمان، ويكونُ مساقُ الخبر للتنفير عن الغناء؛ إذ كان الناسُ حديثي عهدٍ بجاهليةٍ كان يُستعمل فيها الغناء للَّهو، ويُجتمع عليه في مجالس الشرب، ووجهُ إنباته للنفاق إذ ذاك أنَّ كثيراً منهم لقُرْبِ عَهْدِه بلذَّةِ الغناء وما يكون عنده من اللهو والشرب وغيره من أنواع الفسق يتحرَّك قلبه لِمَا كان عليه، ويحنُّ حنينَ العِشَارِ إليه، ويكره لذلك الإيمانَ الذي صدَّه عمَّا هنالك، ولا يستطيعُ لقوَّةِ شوكة الإسلام أن يُظْهِرَ ما أضْمَر، وينبذُ الإيمانَ وراءَ ظهره ويتقدَّمُ إلى ما عنه تأخَّر، فلم يَسَعْه إلا النفاقُ لمَّا اجْتَمَعَ عليه مخافةُ الردَّة والاشتياق، فتأمَّلْ ذاك واللهُ تعالى يتولَّى هُداك.

وأمَّا الآيةُ فإن كان وجه الاستدلال بها تسميةَ الغناء لهواً، فكم لهوٍ هو حلالٌ، وإنْ كان الوعيدَ على اشترائه واختياره، فلا نسلِّم أنَّ ذلك على مجرَّدِ الاشتراء؛ لجواز أن يكون على الاشتراء ليضل عن سبيل الله تعالى، ولا شكَّ أنَّ ذلك من الكبائر، ولا نزاعَ لنا فيه، وقال ابنُ عطية: الذي يترجَّح أن الآية نزلت في لهوِ الحديث مضافاً إلى الكفر، فلذلك اشتدَّت ألفاظُ الآية بقوله تعالى: (لِيُضِلَّ) إلخ(٣). اهـ.

---

(١) وردت هذه الزيادة في الرواية الموقوفة على ابن مسعود عند البيهقي ١٠/ ٢٢٣، وينظر التلخيص الحبير٤/ ٢٠٠.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

ومما ذكرنا يُعلَم ما في الاستدلال بها على حُرْمةِ الملاهي، كالرباب والجنك[١] والسنطير[٢] والكمنجة والمزمار وغيرها من الآلات المطربة، بناءً على ما رُوي عن ابن عباس والحسنِ أنهما فسَّرا «لهو الحديث» بها، نعم إنه يحرُمُ استعمالُها واستماعُها لغير ما ذكر، فقد صحَّ من طرقٍ خلافاً لِمَا وَهِمَ فيه ابنُ حزم الضالُّ المضلُّ، فقد علَّقه البخاريُّ وَوَصَله الإسماعيليُّ وأحمدُ وابنُ ماجه وأبو نعيم وأبو داود بأسانيدَ صحيحةٍ لا مَطْعنَ فيها، وصحَّحه جماعةٌ آخرون من الأئمة كما قاله بعضُ الحفاظ، أنه ﷺ قال: «ليكوننَّ في أمتي قومٌ يستحلُّون الخز والخمر والمعازف»[٣] وهو صريحٌ في تحريم جميع آلاتِ اللهو المُطْرِبةِ.

---

(١) الجنك: آلة يضرب بها كالعود، معرَّب. التاج (جنك).

(٢) السنطير: آلة من آلات الطرب تشبه القانون، أوتارها من نحاس يضرب عليها. المعجم الوسيط (سنط).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٩٠)، ومسند أحمد (٢٢٩٠٠)، وسنن أبي داود (٤٠٣٩)، وسنن ابن ماجه (٤٠٢٠)، وعزاه للإسماعيلي وأبي نعيم في مستخرجيهما ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٣، ووصله أيضاً ابن حبان (٦٧٥٤)، والطبراني (٣٤١٧)، وهو من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.
ورواية أحمد وابن ماجه سياقها مختلف، ورواية أبي داود مختصرة بلفظ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير». وجاء عند البخاري: الحِرَ بالحاء المهملة المكسورة والراء الخفيفة، وهو الفَرْج، والمعنى: يستحلُّون الزنا، ووقع عند أبي داود بمعجمتين والتشديد؛ قال الحافظ في الفتح: والراجح بالمهملتين، ويؤيِّده ما وقع في الزهد لابن المبارك من حديث عليٍّ بلفظ: «يوشك أن تستحل أمتي فروج النساء والحرير» ووقع عند الداودي بالمعجمتين ثم تعقبه بأنه ليس بمحفوظ لأن كثيراً من الصحابة لبسوه، وقال ابن العربي: الخزُّ بالمعجمتين والتشديد مختلف فيه، والأقوى حلُّه، وليس فيه وعيد ولا عقوبة بإجماع.
وقد تكلم ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٩ على هذا الحديث فقال: وهذا منقطع، ولا يصح في هذا الباب شيءٌ أبداً، وكل ما فيه فموضوع، ووالله لو أُسند جميعه أو واحد منه فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ لما ترددنا في الأخذ به. اهـ.
وكلام ابن حزم هذا ردَّه كثير من العلماء والمحدثين، منهم النووي في شرح صحيح مسلم ١/ ١٨، والزركشي كما في فتح الباري ١٠/ ٥٢، وابن الصلاح في علوم الحديث ص٦٨، وقال ابن الصلاح: وأخطأ - يعني ابن حزم - من وجوه، والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح، والبخاري قد يفعل ذلك لكون الحديث معروفاً من جهة الثقات عن ذلك الشخص الذي علقه عنه، وقد يفعل ذلك لكونه قد ذكر ذلك الحديث في موضع آخر من كتابه مسنداً متصلاً، وقد يفعل ذلك لغير ذلك من الأسباب التي لا يصحبها خلل الانقطاع، والله أعلم.

ومما يُشْبِهُ الصريحَ في ذلك ما رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب «ذم الملاهي» عن أنس، وأحمدُ والطبرانيُّ عن ابن عباس وأبي أمامةَ مرفوعاً: «ليكوننَّ في هذه الأمة خَسْفٌ وقذفٌ ومسخٌ، وذلك إذا شربوا الخمورَ واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف»(١) وهي الملاهي التي سمعتَها، ومنها الصنجُ العَجَميُّ، وهو صُفْرٌ يُجعَلُ عليه أوتارٌ يُضرَبُ بها على ما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، خلافاً للماورديِّ حيث قال: إن الصنج يُكْرَهُ مع الغناء ولا يُكره منفرداً؛ لأنه بانفراده غيرُ مُطْرِبٍ. ولعله أراد به العربيَّ، وهو قطعتان من صُفْرٍ تُضْرَبُ إحداهما بالأخرى، فإنه بحسب الظاهر هو الذي لا يُطْرِبُ منفرداً، لكن يزيدُ الغناءَ طرباً، وذُكر أنه يستعمله المخنَّثون في بعض البلاد، ولا يبعُدُ عليه القولُ بالحرمة.

ومنها اليراعُ وهو الشبابةُ، فإنه مُطْرِبٌ بانفراده، بل قال بعض أهل الموسيقى: إنه آلةٌ كاملةٌ جامعةٌ لجميع النغمات إلا يسيراً. وقد أطنب الإمام الدَّوْلعيُّ(٢) وهو من أجلَّة العلماء في دلائل تحريمه، ومنها القياسُ وهو إما أَوْلَى أو مَساوٍ، وقال: العجبُ كلُّ العجبِ ممن هو من أهل العلم يزعم أنَّ الشبابة حلالٌ. اهـ.

ومنه يُعلم ما في قول التاج السبكيِّ في «توشيحه»: لم يقرَّ عندي دليلٌ على تحريم اليراع مع كثرة التتبُّع، والذي أراه الحِلَّ، فإن انضمَّ إليه محرَّمٌ فلكلٌ منهما حُكْمُه، ثم الأَوْلى عندي لمن ليس من أهل الذوق الإعراضُ عنه مطلقاً؛ لأنَّ غايةَ ما فيه حصولُ لذةٍ نفسانيةٍ وهي ليست من المطالب الشرعية، وأما أهلُ الذوق فحالُهم مسلَّمٌ إليهم، وهم على حَسَبِ ما يجدونه من أنفسهم(٣). اهـ.

---

(١) عزاه لابن أبي الدنيا من حديث أنس بهذا اللفظ السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٣٢٤، وهو بنحوه من حديث أبي أمامة وابن عباس في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (٢٢٧٩٠)، وعزاه للطبراني من حديث أبي أمامة وحده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٠، وفي إسناده فرقد السبخي وهو ضعيف.

(٢) في الأصل و(م) وكف الرعاع ١/ ١١١ (والكلام منه): الدولقي، والصواب ما أثبتناه. والدَّولعية بفتح أوله وعين مهملة من قرى الموصل. وهو أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين، ضياء الدين التغلبي الأرقمي الموصلي الشافعي، خطيب دمشق، توفي سنة (٥٩٨هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٥٠، ومعجم البلدان ٢/ ٤٨٦.

(٣) كف الرعاع ١/ ١٢١.

وحُكي عن العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد أنهما كانا يسمعان ذلك، والظاهرُ أنه كذبٌ لا أصل له، وبذلك جزم بعضُ الأجلَّة[١].

ولا يبعدُ حِلُّها إذا صفر فيها كالأطفال والرِّعاءِ على غير القانون المعروف من الإطراب.

ومنها العودُ، وهو آلةٌ للَّهو غيرُ الطنبور، وأطلقه بعضهم عليه، وحكايةُ النَّجِسِ ابنِ طاهرٍ[٢] عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازيِّ أنه كان يسمعُ العود من جملةِ كذبه وتهوُّرِه، كدعواه إجماعَ الصحابة والتابعين على إباحة الغناء واللَّهو، ومثلُه في المجازفة وارتكابِ الأباطيل على الجَزْم ابنُ حَزْمٍ، لا الدفُّ فيجوزُ ضَرْبُه من رجلٍ وامرأةٍ لا من امرأةٍ فقط، خلافاً للحَليميِّ[٣]، واستماعُه لعرسٍ ونكاحٍ وكذا غيرُهما من كلِّ سرورٍ في الأصحِّ. وبحِلِّ ذي الجلاجل منه ـ وهي إما نحوُ حِلَقٍ تُجعل داخلَه كدفِّ العرب، أو صنوجُ عِرَاضٌ من صُفْرٍ تُجعَلُ في حروفِ دائرته كدفِّ العجم ـ جَزَمَ جماعةٌ، وجزم آخرون بحرمته، وبها أقول؛ لأنه كما قال الأذرعي: أشدُّ إطراباً من أكثر الملاهي المتفقِ على تحريمها.

وبعضُ المتصوِّفة ألَّفوا رسائلَ في حِلِّ الأوتار والمزامير وغيرِها من آلات اللهو، وأتوا فيها بكذبٍ عجيبٍ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وعلى أصحابه رضي الله عنهم والتابعين والعلماء العاملين، وقلَّدهم في ذلك مَن لعب به الشيطانُ، وهوى به الهوى إلى هوَّة الحرمان، فهو عن الحقِّ بمعزلٍ، وبينه وبين حقيقةِ التصوُّف ألفُ ألفِ منزلٍ.

---

(١) جاء تحتها في الأصل: كابن حجر.

(٢) محمد بن طاهر المقدسي الحافظ، الظاهري الصوفي، ذو التصانيف، قال ابن عساكر: جمع أطراف الكتب الستة، فأخطأ في مواضع خطأً فاحشاً. وقال ابن ناصر: محمد بن طاهر لا يحتج به، وقال أيضاً: كان لُحنَةً وكان يصحِّف. وقال الذهبي: ليس بالقوي؛ فإنه له أوهام في تواليفه، وله انحراف عن السنَّة إلى تصوُّفٍ غير مرضيٍّ. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦١، والميزان ٣/ ٥٨٧. وكلام ابن طاهر في كف الرعاع ١/ ٦١ و١٣٠-١٣١، والزواجر ٢/ ١٩٣.

(٣) في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٩، حيث قال: وضرب الدفِّ لا يحل إلا للنساء؛ لأنه في الأصل من أعمالهن، ولعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء. اهـ. ونقل ذلك عنه ابن حجر في كف الرعاع ١/ ٨٣.

وإذا تحقَّق لديك قولُ بعضِ الكبار بحلِّ شيء من ذلك فلا تغترَّ به؛ لأنه مخالفٌ لِمَا عليه أئمةُ المذاهب الأربعة وغيرُهم من الأكابر، المؤيَّدِ بالأدلَّةِ القوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك ما عدا رسول الله ﷺ، ومَن رُزق عقلاً مستقيماً وقلباً من الأهواء الفاسدةِ سليماً لا يشكُّ في أنَّ ذلك ليس من الدِّين، وأنه بعيدٌ بمراحلَ عن مقاصد شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

واستدلَّ بعضُ أهل الإباحة على حلِّ الشبابة بما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن نافعٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع صوتَ زمارةِ راعٍ فجعل إصبعيه في أذنيه وعدل عن الطريق، وجعل يقول: يا نافع أتسمعُ؟ فأقول: نعم، فلما قلت: لا، رجع إلى الطريق ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يفعله[1]. وأخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ عن نافع أيضاً[2]. وسئل عنه الحافظ محمد بن نصر[3] السَّلاميُّ فقال: إنه حديثٌ صحيح.

ووجه الاستدلال به أنه ﷺ لم يأمر ابنَ عمر وكان عمره إذ ذاك كما قال الحافظ المذكور سبعَ عَشْرةَ سنةً بسدِّ أذنيه، ولا نَهى الفاعلَ، فلو كان ذلك حراماً لأَمَر ونهى عليه الصلاة والسلام، وسدُّ أذنيه عليه الصلاة والسلام يحتمل أن يكون لكونه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك في حالِ ذكرٍ أو فكرٍ، وكان السماعُ يشغله عليه الصلاة والسلام والتحيةُ، ويحتمل أن يكون إنما فَعَله ﷺ تنزيهاً؛ وقال الأذرعيُّ: بهذا الحديث استدلَّ أصحابنا على تحريم المزامير، وعليه بَنَوْا التحريم في الشبابة[4]. اهـ.

والحقُّ عندي أنه ليس نصّاً في حُرمتها؛ لأنَّ سدَّ الأذنين عند السماع من باب فِعْلِه ﷺ وليس ممَّا وَضح فيه أمرُ الجبلَّة، ولا ثَبَتَ تخصيصُه به عليه الصلاة

---

(١) صحيح ابن حبّان (٦٩٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٢) شعب الإيمان (٥١٢٠)، وعزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر ٥/ ١٦٠.

(٣) كذا في الأصل و(م) وكف الرعاع ١/ ١١٧، والزواجر ٢/ ١٩٦، والصواب: محمد بن ناصر، وهو الإمام أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد السَّلامي البغدادي المحدث الحافظ، وكان من أئمة اللغة أيضاً، توفي سنة (٥٥٠هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٦٥.

(٤) الزواجر ٢/ ١٩٦.

والسلام، ولا ممَّا وضح أنه بيانٌ لنصٍّ علم جهته من الوجوب والندب والإباحة، فإن كان ممَّا عُلِمَتْ صفته فلا يخلو من أن تكون الوجوبَ أو الندبَ أو الإباحةَ، لا جائز أن تكون الوجوبَ المستلزمَ لحرمة سماع اليراع؛ إذ لا قائل بأنه يجبُ على أحدٍ سدُّ الأذنين عند سماع محرَّمٍ؛ إذ يأمن الإثم بعدم القَصْدِ، فقد قالوا: إنَّ الحرام الاستماعُ لا مجرَّدُ السماعِ بلا قصدٍ، وفي «الزَّواجر»: الممنوعُ هو الاستماعُ لا السماعُ لا عن قصد اتفاقاً، ومن ثمَّ صرَّح أصحابنا ـ يعني الشافعيةَ ـ أنَّ مَن بجواره آلاتٌ محرَّمةٌ ولا يمكنُه إزالتُها لا يلزمه النقلةُ، ولا يأثمُ بسماعها لا عن قصدٍ وإصغاءٍ[1]. اهـ. والظاهر أنَّ الأمر كذلك عند سائر الأئمة.

نعم لهم تفصيلٌ في القعود في مكانٍ فيه نحوُ ذلك، قال في «تنوير الأبصار» وشَرْحِه «الدر المختار»[2]: دُعي إلى وليمةٍ وثَمَّةَ لعبٌ وغناءٌ قَعَدَ وأَكَلَ، ولو على المائدة لا ينبغي أن يقعد بل يخرجُ مُعْرِضاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإن قدر على المنع فَعَلَ، وإلَّا يَقْدِرْ صَبَرَ[3] إن لم يكن ممَّن يُقْتَدَى به، فإن كان مقتدًى به ولم يقدر على المنع خرج ولا يقعد، لأنَّ فيه شينَ الدِّينِ، والمحكيُّ عن الإمام أبي حنيفةَ رضي الله عنه كان قبل أن يصير مقتدًى به[4]، وإن عَلم أولاً لا يَحضُرُ أصلاً سواءٌ كان ممن يقتدَى به أوْ لا. اهـ فتعيَّن كونُها الندبَ أو الإباحةَ وكِلَا الأمرين لا يستلزمان الحرمةَ، فيحتمل أن يكون ذلك حراماً أو مكروهاً يندب سدُّ الأذنين عند سماعه احتياطاً من أن يدعوَ إلى الاستماع المحرَّم أو المكروه.

وإن كان ممَّا لم تُعلم صفتُه، فقد قالوا فيما كان كذلك: المذاهب فيه بالنسبة إلى الأمة خمسةٌ: الوجوبُ، والندبُ، والإباحة، والوقفُ، والتفصيلُ: وهو أنه إن ظهر قَصْدُ القُربةِ فالندبُ، وإلا فالإباحةُ، ويُعلم مما ذكرنا الحالُ على كلِّ مذهبٍ.

---

(١) الزواجر ٢/ ١٩٦.

(٢) ٢/ ٣٨٠.

(٣) قوله: فإن قدر على المنع فعل وإن لا يقدر صبر. . .، هذا فيما لو كان المنكَر في المنزل لا على المائدة. حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٤٨.

(٤) قوله: والمحكي عن الإمام. . .، يعني به قول أبي حنيفة: ابتليتُ بهذا مرةً فصبرتُ هداية. حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٤٨.

والذي يغلبُ على الظنِّ أنَّ ما أشار إليه الخبرُ: إن كان الزمرُ بزمارةِ الراعي على وجه التأنُّق وإجراء النغمات التي تحرِّك الشهوات، كما يفعلُه مَن جَعَلَ ذلك صنعتَه اليومَ، فاستماعُه حرامٌ، وسدُّ الأذنين المشارُ إليه فيه لعله كان منه عليه الصلاة والسلام تعليماً للأمة أحدَ طرق الاحتياط المعلوم حالُه؛ لئلَّا يجرَّهم ذلك إلى الاستماع، وإلا فالاستماعُ لمكان العصمة ممَّا لا يتصوَّر في حقِّه ﷺ، ومَن عرف قَدْرَ الصحابة واطَّلع على سبيلهم وحِرْصِهم على التأسِّي به عليه الصلاة والسلام لم يشكَّ في أنَّ ابن عمر ﷺ سدَّ أذنيه أيضاً تأسِّياً، ويكون حينئذٍ قولُه عليه الصلاة والسلام الذي يشير إليه الخبرُ له ﷺ: «أتسمع؟» على معنى: تَسمَّعْ أَتَسْمَعُ؟ وإنما أسقط «تسمَّع» لدلالة الحال عليه؛ إذ مَن سدَّ أذنيه لا يسمع، وإنما أَذِنَ له ﷺ بذلك لموضع الحاجة، وهذا أقربُ من احتمال كونِ سدِّ الأذنين منه ﷺ لأنه كان في حالِ ذكرٍ أو فكرٍ، وكان يشغلُه ﷺ عند السماع.

وأمَّا عدمُ نهيه عليه الصلاة والسلام مَن كان يَزْمرُ عن الزَّمْرِ والإنكارِ عليه فلا يسلَّم دلالتُه على الجواز؛ فإنه يجوز أن يكون الصوتُ جاء من بعيدٍ وبين الزامر وبينه عليه الصلاة والسلام ما يمنعُ من الوصول إليه، أَوْ لَمْ يعرف عينَه ﷺ لأنَّ الصوت قد جاء من وراء حجاب، ولا تتحقَّقُ القدرة معه على الإنكار. ويجوز أيضاً أن يكون التحريم معلوماً من قبلُ، وعُلم من النبيِّ ﷺ الإصرارُ عليه، وأن يكون قد علم إصرار ذلك الفاعل على فِعْلِه، فيكون ذلك كاختلاف أهل الذمة إلى كنائسهم، وفي مثل ذلك لا يدلُّ السكوتُ وعدمُ الإنكار على الجواز إجماعاً، ومَن قال بأنَّ الكافر غيرُ مكلَّفٍ بالفروع قال: يجوز أن يكون ذلك الزامرُ كافراً، وأنَّ السكوت في حقِّه ليس دليلَ الجواز.

وإن كان الزمرُ بها لا على وجه التأنق وإجراءِ النغمات التي تحرِّكُ الشهوات فلا بُعْدَ في أن يقال بالجواز والإباحة فعلاً واستماعاً، وسدُّ الأذنين عليه لغايةِ التنزُّهِ اللائقِ به عليه الصلاة والسلام، وقولُ الأذرعيِّ في الجواب: إن قوله في الخبر: زمارة راع، لا يعيِّنُ أنها الشبابةُ، فإنَّ الرعاة يضربون بالشعيبية وغيرها = يوهم أنَّ ما يسمَّى شعيبيةً مباحٌ مفروغٌ منه، وفيه نظرٌ؛ فإنها عبارةٌ عن عدَّةِ قصباتٍ صغارٍ

ولها إطرابٌ بحسب حذقِ مُتعاطيها، فهي شبابةٌ أو مزمارٌ لا محالةَ[1]. وفي إباحة ذلك كلامٌ.

وبعد هذا كلِّه نقول: إن الخبر المذكورَ رواه أبو داود وقال: إنه منكر[2]. وعليه لا حجةَ فيه للطرفين، وكفى الله تعالى المؤمنين القتال.

ثم إنك إذا ابتليتَ بشيءٍ من ذلك فإياك ثم إياك أن تعتقد أنَّ فِعْلَه أو استماعَه قربةٌ كما يعتقد ذلك من لا خَلاقَ له من المتصوِّفة، فلو كان الأمر كما زعموا لَما أَهمل الأنبياء أن يفعلوه ويأمروا أتباعهم به، ولم ينقل ذلك عن أحدٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا أشار إليه كتابٌ من الكتب المنزلة من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

ولو كان استعمال الملاهي المطربات أو استماعُها من الدِّين ومما يقرِّبُ إلى حضرة ربِّ العالمين، لبيَّنه ﷺ وأوضحَه كمالَ الإيضاح لأمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده ما تركتُ شيئاً يقرِّبكم من الجنة ويباعدُكم عن النار إلا أمرتُكم به، وما تركتُ شيئاً يقرِّبكم من النار ويباعدُكم عن الجنة إلَّا نهيتُكم عنه»[3] وما ذكر داخلٌ في الشقِّ الثاني كما لا يخفى على مَن له قلبٌ سليم وعقلٌ مستقيمٌ، فتأمَّل وأَنْصِفْ، وإياك من الاعتراض قبل أن تُراجِعَ وتَعْرِف، ولنا عودةٌ إن شاء الله تعالى للكلام في هذا المطلب، يسَّر الله تعالى ذلك لنا بحرمة حبيبه الأعظم ﷺ.

واستدلَّ بعضهم بالآية ـ على القول بأنَّ لهو الحديث الكتبُ التي اشتراها النضر بنُ الحارث ـ على حرمة مطالعة كتب تواريخ الفرس القديمة، وسماع ما فيها وقراءتِه. وفيه بحثٌ، ولا يخفَى أنَّ فيها من الكذب ما فيها، فالاشتغالُ بها لغير غرضٍ دينيٍّ خوضٌ في الباطل، وعدَّه ابنُ نجيم في رسالته في بيان المعاصي من الصغائر، ومثَّل له بذِكرِ تنعُّمِ الملوك والأغنياء[4]، فافهم هذا.

---

(١) الزواجر ٢/ ١٩٦.

(٢) سنن أبي داود إثر الحديث (٤٩٢٤).

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٤٩٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧، والحاكم ٢/ ٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رسائل ابن نجيم ص٢٥٢.

ومن الغريب البعيدِ ـ وفيه جَعْلُ الاشتراء بمعنى البيع ـ ما ذهب إليه صاحبُ «التحرير» قال: يظهر لي أنه أراد سبحانه بلهو الحديث ما كانوا يُظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم والأمرِ بالدوام عليه، وتغييرِ صفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنَّ التوراة تدلُّ على أنه من ولد إسحاق عليه السلام، يقصدون صدَّ أتباعهم عن الإيمان، وأطلق اسم الاشتراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائلَ من ملوكهم، وقال: يؤيِّده قولُه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو كما ترى.

والمراد بسبيله تعالى دينُه عزَّ وجلَّ، أو قراءةُ كتابه سبحانه، أو ما يعمُّهما، واللامُ في «لِيُضِلَّ» للتعليل. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «لِيَضِلَّ» بفتح الياء[1]، والمراد: ليَثْبُتَ على ضلاله ويزيدَ فيه، فإنَّ المخبَرَ عنه ضالٌّ قبلُ، واللامُ للعاقبة، وكونُها على أصلها ـ كما قيل ـ بعيدٌ.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون قد وضع «لِيَضِلَّ» على هذه القراءة موضعَ لِيُضِلَّ، من قِبَلِ أنَّ مَن أضلَّ كان ضالًّا لا محالةَ، فدلَّ بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الإضلال[2]. ووجهُ الدلالة أنه أُريدَ بالضلال الضلالُ المضاعَفُ في شأنِ مَن جانَبَ سبيلَ الله تعالى وتَرَكَه رأساً، وهذا الضلالُ لا ينفكُّ عن الإضلال وبالعكس، وبه يندفعُ نظرُ صاحب «الفرائد» بأنَّ الضلال لا يلزمُه الإضلالُ، وفيه تَوافُقُ القراءتين وبقاءُ اللام على حقيقتها، وهي على الوجهين متعلِّقةٌ بقوله سبحانه: (يَشْتَرِي) وقولُه عز وجل: (بِغَيْرِ عِلْمٍ) يجوزُ أن يكون متعلِّقاً به أيضاً، أي: يشتري ذلك بغير علمٍ بحالِ ما يشتريه، أو بالتجارة حيث استبدل الضلال بالهدى والباطلَ بالحق. ويجوز أن يكون متعلِّقاً بـ «يُضِل»، أي: ليُضِلَّ عن سبيله تعالى جاهلاً أنها سبيلُه عز وجل، أو جاهلاً أنه يضلُّ، أو جاهلاً الحقَّ.

﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على «يُضِلَّ»، والضميرُ للسبيل فإنه مما يذكَّرُ ويؤنَّث، وجوِّز أن يكون للآيات. وقيل: يجوز أن يكون للأحاديث؛ لأنَّ الحديثَ اسمُ جنسٍ بمعنى الأحاديث، وهو كما ترى. ﴿هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً به.

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٠.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «يتَّخذُها» بالرفع[(١)] عطفاً على «يشتري» وجوَّز أن يكون على إضمارِ «هو».

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ لِمَا اتَّصفوا به من إهانتهم الحقَّ بإيثارِ الباطل عليه وترغيبِ الناس فيه، والجزاءُ من جنس العمل. و«أولئك» إشارةٌ إلى «مَن»، وما فيه من معنى البعدِ للإشارة إلى بُعْدِ المنزلة في الشرارة، والجمعُ في اسم الإشارة والضميرِ باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ففي الآية مراعاةُ اللفظ، ثم مراعاةُ المعنى، ثم مراعاةُ اللفظ، ونظيرُها في ذلك قولُه تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الطلاق: ١١]، قال أبو حيان: ولا نعلم جاء في القرآن ما حُمِلَ على اللَّفْظِ ثم على المعنى ثم على اللفظ غير هاتين الآيتين[(٢)]. وقال الخفاجيُّ: ليس كذلك، فإنَّ لها نظائرَ[(٣)].

أي: وإذا تتلى على المشتري المذكورِ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الجليلةُ الشأنِ ﴿وَلَّىٰ﴾ أعْرَضَ عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مبالغاً في التكبُّر، فالاستفعالُ بمعنى التفعُّلِ ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حالٌ من ضميرِ «ولَّى»، أو من ضمير «مستكبراً»، أي: مشابهاً حالُه في إعراضه تكبُّراً أو في تكبُّره حالَ مَن لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمزٌ إلى أنَّ مَن سمعها لا يتصوَّر منه التوليةُ والاستكبارُ؛ لِمَا فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوعِ لها، على طريقة قول الخنساء[(٤)]:

أَيَا شَجَرَ الخابور مالَكَ مُورِقاً ... كأنك لم تَجْزَعْ على ابن طريفِ

---

(١) هي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وابن كثير وأبي بكر. التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٣٤٦، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر.

(٢) البحر ٧/ ١٨٤.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٣٣.

(٤) كذا ذكر، والصواب أنه لأخت الوليد بن طريف التغلبية الخارجية ترثي أخاها الوليد، كما في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩، والأغاني ١٢/ ٩٣، والحماسة البصرية ١/ ٢٢٩، والحماسة الشجرية ١/ ٣٢٨، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٢، وخزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة ص١٣٤، وسماها ابن الشجري وابن حجة والبصري: ليلى، وفي وفيات الأعيان: الفارعة، وقيل: فاطمة، وكانت تسلك سبيل الخنساء في مراثيها لأخيها صخر.

و«كأنْ» المخففةُ ملغاةٌ لا حاجةَ إلى تقديرِ ضمير شأنٍ فيها، وبعضُهم يقدِّره.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ أي: صمماً مانعاً من السماع، وأصلُ معنى الوَقْر: الحملُ الثقيل، استُعيرَ للصَّمَم ثم غَلَبَ حتى صار حقيقةً فيه. والجملةُ حالٌ من ضميرِ «لم يسمعها»، أو هي بدلٌ منها بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بيانٌ لها، ويجوز أن تكون حالاً من أحد السابقَيْنِ، ويجوز أن تكون كلتا الجملتين مستأنفتين، والمرادُ من الجملة الثانية الترقِّي في الذمِّ، وتثقيلُ «كأنَّ» في الثانية كأنه لمناسبته للثقل في معناه.

وقرأ نافع: «في أُذْنيه» بسكون الذال تخفيفاً[١].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ أي: أَعْلِمْه أنَّ العذاب المُفْرِط في الإيلام لاحِقٌ به لا محالةَ، وذِكْرُ البشارة للتهكُّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لحالِ المؤمنين بآياته تعالى إثر بيانِ حالِ الكافرين بها، أي: إنَّ الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿لَهُمۡ﴾ بمقابلةِ ما ذُكر من إيمانهم وعملهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: النعيم الكثير، وإضافة الجنات إليه باعتبارِ اشتمالها عليه، نظير قولك: كتب الفقه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ لهم نعيمَها بطريقٍ برهانيٍّ، فهو أبلغ من: لهم نعيمُ الجنات، إذ لا يستدعي ذلك أن تكون نفسُ الجنات ملكاً لهم، فقد يتنعَّم بالشيءِ غيرُ مالكه.

وقيل في وجه الأبلغية: إنه لجعل النعيم فيه أصلاً ميِّزتْ به الجنات، فيفيدُ كثرةَ النعيم وشهرتَه.

وأيَّاما كان فجناتُ النعيم هي الجناتُ المعروفة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال: جناتُ النعيم بين جناتِ الفردوس وبين جنات عدنٍ، وفيها جَوَارٍ خُلِقْنَ من وَرْدِ الجنة. قيل: ومَن يسكنُها؟ قال: الذين همُّوا بالمعاصي فلمَّا ذكروا عظمتي راقبوني، والذين انْثَنَتْ أصلابُهم في خشيتي[٢]. والله تعالى أعلمُ بصحَّة الخبر.

والجملةُ خبرُ «إنَّ»؛ قيل: والأحسنُ أن يُجعَلَ «لهم» هو الخبر لـ «إنَّ» و«جنات

---

(١) التيسير ص٩٩، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٠.

النعيم» مرتفعاً به على الفاعلية، وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ من الضمير المجرورِ أو المستتر في «لهم» بناءً على أنه خبرٌ مقدَّمٌ، أو من «جنات» بناءً على أنه فاعل الظرف لاعتماده بوقوعه خبراً، والعاملُ ما تعلَّق به اللام.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «خالدون» بالواو[1]، وهو بتقدير هو[2].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه، أي: لِمَا هو كنفسه وهي الجملةُ الصريحةُ في معناه، أعني قولَه تعالى: (لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ) فإنه صريحٌ في الوعد. وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لتلك الجملة أيضاً، إلا أنه يعدُّ مؤكِّداً لغيره؛ إذ ليس كلُّ وعدٍ حقّاً في نفسه. وجوّز أن يكون مؤكِّداً لـ «وعد الله» المؤكِّد، وأن يكون مؤكِّداً لتلك الجملة معدوداً من المؤكِّد لنفسه بناءً على دلالتها على التحقيق والثبات من أوجهٍ عدَّةٍ، وهو بعيد، وفي «الكشف»: لا يصحُّ ذلك، لأنَّ الأخبار المؤكَّدة لا تخرج عن احتمال البطلان، فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيءٌ ليمنع من إنجاز وعده وتحقيقِ وعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة، ويُفهم هذا الحصرُ من الفحوى. والجملةُ تذييلٌ لحقِّية وعدِه تعالى المخصوصِ بمن ذُكر، المومي إلى الوعيد لأضدادهم.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ إلخ استئنافٌ جيء به للاستشهاد بما فصِّل فيه على عزَّته عزَّ وجلَّ التي هي كمالُ القدرة، وحكمتِه التي هي كمالُ العلم وإتقانِ العملِ، وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره، وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله. والعَمَدُ جمعُ عمادٍ، كأَهَبٍ جمع إهاب، وهو ما يُعْمَدُ به، أي: يُسْنَدُ، يقال: عَمَدْتُ الحائط: إذا دَعمته، أي: خَلَقها بغير دعائمَ، على أنَّ الجمع لتعدُّد السماوات.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ في جواب سؤالٍ تقديرُه: ما الدليلُ على ذلك؟ فهو مسوقٌ لإثبات كونها بلا عَمَدٍ؛ لأنها لو كانت لها عمدٌ رؤيت، فالجملةُ لا محلَّ

(١) البحر ٧/ ١٨٤.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: هم. وقد ذكر السمين في الدر ٩/ ٦٢ في إعراب «خالدون» على هذه القراءة وجهين؛ الأول: أن يكون هو الخبر، وجملة «لهم جنات» - أو الجارُّ وحده - حالٌ. والثاني: أن يكون «خالدون» خبراً ثانياً لـ «إنَّ».

لها من الإعراب، والضميرُ المنصوبُ لـ «السماوات»، والرؤيةُ بَصَريةٌ لا علميةٌ حتى يلزمَ حذفُ أحد مفعوليها.

وجوِّز أن يكون صفةً لـ «عمد» فالضميرُ لها، أي: خَلَقَها بغير عمدٍ مرئيةٍ، على التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعمدٍ لا تُرى، وهي عمد القدرة، وروي ذلك عن مجاهد.

وكونُ عمادها في كلِّ عصرٍ الإنسانَ الكاملَ في ذلك العصر، ولذا إذا انقطع الإنسانُ الكامل وذلك عند انقطاع النوعِ الإنساني تُطْوى السماواتُ كطيِّ السجلِّ للكتب = كلامٌ لا عمادَ له من كتابٍ أو سنَّةٍ فيما نعلم، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليمٌ.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ بيانٌ لصنعه تعالى البديعِ في قرار الأرض إثر بيانِ صُنْعِه عزَّ وجل الحكيمِ في قرار السماوات، أي: ألقى فيها جبالاً شوامخَ أو ثوابتَ كراهةَ ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أو: لئلا تميدَ، أي: تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ لو لم يُلْقِ سبحانه وتعالى فيها رواسيَ؛ لِمَا أنَّ الحكمة اقتضت خَلْقَها على حالٍ لو خَلَتْ معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرةِ لأكثرها، والرياح العواصفِ التي تقتضي الحكمةُ هبوبَها، أو بنحو ذلك، وقد يعدُّ منه حركةُ ثقيلٍ عليها، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناءً على كرية الأرض ووجوبِ انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتُها مع ما فيها من الجبال بسبب حركةِ ثقيلٍ من جانبٍ منها إلى آخر لتغيُّر مركزِ الثقل حينئذٍ، إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحرِّكة عليها كلا شيءٍ بالنسبة إليها مع ما فيها، ولعل مَن يَعُدُّ حركةَ الثقيل عليها من أسباب الميدِ لو خلت من الجبال يقول: لا يبعُدُ حركةُ ثقيلٍ عليها كماءٍ جرى من مكانٍ إلى آخر فاجتمع حتى صار بحراً عظيماً، مع ما ينضمُّ إلى ذلك مما تنقلُه الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدارٌ يعتدُّ به بالنسبة إلى الأرض خاليةً من الجبال، فتتحرَّكُ بحركته إلى خلافِ جهته.

ثم إنَّ الميدَ ـ لولا الرواسي ـ بنحو المياه والرياح متصوَّرٌ على تقدير كون الأرض كريةً كما ذهب إليه الغزالي، وكذا ذهب إلى كرية السماء، وجاء في روايةٍ عن ابن عباس ما يقتضيه، وإليه ذهب أكثرُ الفلاسفة مستدلِّين عليه بما في

«التذكرة»[1] وشروحِها وغيرِ ذلك، وهو الذي يشهدُ له الحسُّ والحَدْسُ، وعلى تقدير كونها غيرَ كرويةٍ كما ذهب إليه مَن ذهب، واختلفوا في شكلها عليه، وتفصيلُ ذلك يطلبُ من محلِّه.

ولا دلالةَ في الآية على انحصار حكمةِ إلقاء الرواسي فيها بسلامتها عن الميدِ، فإنَّ لذلك حِكَماً لا تُحصى، وكذا لا دلالةَ فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائماً كما ذهب إليه أصحاب فيثاغورس، ووراءه مذاهبُ أظهرُ بطلاناً منه. نعم الأدلَّة النقليةُ والعقليةُ على ذلك كثيرةٌ.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: أَوْجَدَ وأَظْهَرَ، وأصل البثِّ: الإثارةُ والتفريقُ، ومنه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٦] و﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤] وفي تأخيره إشارةٌ إلى توقُّفه على إزالة الميد.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواعها.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ، والمرادُ بالسماء جهةُ العلوِّ، وجوِّز تفسيرُها بالمُظِلَّة وكونُ الإنزال منها بضربٍ من التأويل، وتركُ التأويل لا ينبغي أن يعوَّل عليه إلا إذا وُجد من الأدلة ما يضطرُّنا إليه؛ لأنَّ ذلك خلافُ المشاهَد.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف ﴿كَرِيمٍ ۝١٠﴾ أي: شريفٍ كثير المنفعة. والالتفاتُ إلى ضمير العظمة في الفعلين لإبراز مزيدِ الاعتناء بهما لتكرُّرِهما، مع ما فيهما من استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض ما لا يخفى.

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من السماوات والأرض وسائرِ الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقُه ﴿فَأَرُونِى﴾ أي: أَعْلِموني وأخبروني، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا علمتُم ذلك فأروني ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ مما اتَّخذتُموهم شركاءَ له سبحانه في العبادة حتى استحقُّوا به العبودية، و«ماذا» يجوز أن يكون اسماً واحداً استفهاميّاً ويكون مفعولاً لـ «خَلَقَ» مقدَّماً لصدارته، وأن يكون «ما»

---

(١) هو كتاب التذكرة النصيرية في الهيئة للعلامة نصير الدين الطوسي، وهو مختصر وله شروح، منها شرح السيد علي بن محمد الجرجاني. كشف الظنون ١/ ٣٩١.

وحدها اسمُ استفهامٍ مبتدأ و«ذا» اسم موصول خبرها، وتكون الجملة معلَّقاً عنها سادَّةً مسدَّ المفعول الثاني لـ «أروني». وأن يكون «ماذا» كله اسماً موصولاً، فقد استُعمل كذلك على قلَّةٍ على ما قال أبو حيان[1]، ويكون مفعولاً ثانياً له، والعائدُ محذوفٌ في الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم بما ذُكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيِّن المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدِّمات المعقولة الحقَّةِ؛ لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثَّروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه، ووُضِعَ الظاهرُ موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومتعدُّون عن الحدِّ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلامٌ متسأنفٌ مسوقٌ لبيان بطلان الشرك بالنقل، بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل.

ولقمانُ اسمٌ أعجميٌّ لا عربيٌّ مشتقٌّ من اللقم، وهو على ما قيل: ابن باعوراء. قال وهب: وكان ابنَ أختِ أيوب عليه الصلاة والسلام. وقال مقاتل: كان ابنَ خالته، وقال عبد الرحمن السهيليُّ: هو ابن عنقا بن سرون[2].

وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألفَ سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعثه، فلمَّا بُعث قَطَع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أَكْتَفي إذا كُفيت؟

وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. ونُقل ذلك عن الواقديِّ، إلا أنه قال: وكان زمانُه بين محمدٍ وعيسى عليهما الصلاة والسلام. وقال عكرمة والشعبيُّ: كان نبيّاً. والأكثرون على أنه كان في زمن داودَ عليه السلام، ولم يكن نبيًّا.

واختلف فيه أكان حرًّا أو عبداً؟ والأكثرون على أنه كان عبداً. واختلفوا فقيل:

---

(١) في البحر ٧/ ١٨٥.

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٣٤، ووقع في مطبوعه: يثرون، بدل: سرون. ونقله القرطبي ١٦/ ٤٦٧ عن السهيلي كما ذكره المصنف.

حبشيًّا، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وأخرج ذلك ابنُ مردويه[١] عن أبي هريرة مرفوعاً. وذكر مجاهد في وَصْفِهِ أنه كان غليظ الشفتين مصفَّحَ القدمين.

وقيل: كان نوبيًّا مشقَّقَ الرجلين ذا مشافر، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباسٍ وابن المسيب ومجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال: قلتُ لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطَسَ من النُّوبة[٢].

وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال: إنَّ لقمان كان أسودَ من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمةَ ومنعه النبوة[٣].

واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال؛ فقال خالد بن الربيع: كان نجاراً، بالراء. وفي «معاني» الزجَّاج: كان نـجَّاداً بالدال[٤]، وهو على وزن كَتَّان: مَن يعالجُ الفُرُشَ والوسائدَ ويَخيطُهما.

وأخرج ابن أبي شيبةَ، وأحمدُ في «الزهد» وابنُ المنذر عن ابن المسيب أنه كان خيَّاطاً[٥]. وهو أعمُّ من النجَّاد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان راعياً.

وقيل: كان يحتطبُ لمولاه كلَّ يومٍ حزمةً.

ولا وثوقَ لي بشيءٍ من هذه الأخبار، وإنما نقلتُها تأسِّياً بمن نقلها من المفسرين الأخيار، غير أنِّي أختار أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبيّاً.

و«الحكمة» على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: العقلُ والفهمُ والفطنة[٦].

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٠.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٠.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٧، وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٦١.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨٦، ووقع في مطبوع معاني القرآن: نجاراً، رسمت بالراء ولم تقيَّد.
(٥) الزهد لأحمد ص٦٤، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر٥/ ١٦١.
(٦) الدر المنثور ٥/ ١٦١.

وأخرج الفريابيُّ وأحمد في «الزهد» وابن جرير وابنُ أبي حاتم عن مجاهدٍ: أنها العقلُ والفقهُ والإصابةُ في القول(١).

وقال الراغب: هي معرفةُ الموجودات، وفعلُ الخيرات(٢).

وقال الإمام: هي عبارةٌ عن توفيق العمل بالعلم، ثم قال: وإنْ أردنا تحديداً بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول: حصولُ العمل على وفق المعلوم(٣).

وقال أبو حيان: هي المنطقُ الذي يُتَّعظ به ويتنبه ويتناقله الناس لذلك(٤).

وقيل: إتقان الشيء علماً وعملاً.

وقيل: كمالٌ حاصلٌ باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتسابِ الملكة التامَّة على الأفعال الفاضلة على قَدْرِ طاقتها.

وفسَّرها كثيرٌ من الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقَدْرِ الطاقة البشرية.

ولهم تفسيراتٌ أُخَرُ، وما لها وما عليها من الجرح والتعديل مذكوران في كتبهم.

ومن حكمته قولُه لابنه: أي بنيَّ، إنَّ الدنيا بحرٌ عميقٌ، وقد غَرِقَ فيها ناسٌ كثيرٌ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحَشْوَها الإيمانَ، وشراعها التوكُّلَ على الله تعالى، لعلك أنْ تنجوَ ولا أراك ناجياً.

وقوله: مَن كان له من نفسه واعظٌ كان له من الله عز وجل حافظٌ، ومَن أنصف الناسَ من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزًّا، والذلُّ في طاعة الله تعالى أقربُ من التعزُّز بالمعصية.

وقوله: ضَرْبُ الوالد لولده كالسماد للزرع.

وقوله: يا بنيَّ، إياك والدَّينَ، فإنه ذلُّ النهار همُّ الليل.

---

(١) الزهد ص٦٤، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٤٦، وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٦١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١٠٥.
(٢) مفردات الراغب (حكم).
(٣) تفسير الرازي ٢٥/ ١٤٥.
(٤) البحر ٧/ ١٨٦.

وقوله: يا بنيَّ ارْجُ الله عز وجل رجاءً لا يُجريك على معصيته تعالى، وخَفِ الله سبحانه خوفاً لا يُؤْيِسُكَ من رحمته تعالى شأنُه.

وقوله: مَن كذب ذهب ماءُ وجهه، ومَن ساء خُلُقُه كَثُرَ غمُّه. ونَقْلُ الصخور من مواضعها أيسرُ من إفهام مَن لا يفهم.

وقوله: يا بنيَّ حملْتُ الجندلَ والحديدَ وكلَّ شيءٍ ثقيلٍ، فلم أحمل شيئاً هو أثقلُ من جار السوء، وذقتُ المِرارَ فلم أذُقْ شيئاً هو أمرُّ من الفقر، يا بنيَّ لا تُرسل رسولك جاهلاً، فإنْ لم تجد حكيماً فكن رسولَ نفسك، يا بني إياك والكذبَ فإنه شهيٌّ كلحم العصفور عما قليلٍ يغلي صاحبه، يا بني احْضُرِ الجنائزَ ولا تَحْضُر العرسَ؛ فإنَّ الجنائز تذكِّرك الآخرةَ والعرسُ يشهِّيكَ الدنيا، يا بني لا تأكل شبعاً على شبعٍ فإن إلقاءك إياه للكلب خيرٌ من أن تأكله، يا بني لا تكن حلواً فتُبلع، ولا مرًّا فتُلْفَظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامَكَ إلا الأتقياء، وشاوِرْ في أمرك العلماء.

وقوله: لا خيرَ لك في أن تتعلَّم ما لم تعلم ولمَّا تَعْمَلْ بما قد عَلِمْتَ، فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجلٍ احْتَطَبَ حطباً فحمل[1] حزمةً وذهب يحملها فعجز عنها، فضمَّ إليها أخرى.

وقوله: يا بنيَّ إذا أردتَ أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإنْ أنْصَفَكَ عند غضبه وإلا فاحْذَرْه.

وقوله: لتكن كلمتُك طيبةً، وليكن وجهُك بسطاً، تكُنْ أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بنيَّ أنْزِلْ نفسَك من صاحبك منزلةَ مَن لا حاجةَ له بك ولا بدَّ لك منه، يا بنيَّ كُنْ كَمَنْ لا يبتغي محمدةَ الناس ولا يكسب ذمَّهم، فنفسُه منه في غناءٍ والناسُ منه في راحة.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: فحزم، ينظر حلية الأولياء ٤/ ٧١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥١.

وقوله: يا بنيَّ امتنِعْ بما يخرج من فيك فإنك ما سكتَّ سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعُك.

إلى غير ذلك مما لا يحصى.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أي اشكر، على أنَّ «أنْ» تفسيرية، وما بعدها تفسيرٌ لإيتاء الحكمة، وفيه معنى القولِ دون حروفه سواءٌ كان بإلهامٍ أو وحيٍ أو تعليمٍ. وجوّز أن يكون تفسيراً للحكمة باعتبار ما تضمَّنه الأمرُ.

وجَعَلَ الزجَّاج[1] «أنْ» مصدريةً بتقديرِ اللام التعليلية، ولا يفوتُ معنى الأمر كما مرَّ تحقيقُه. وحكى سيبويه: كتبتُ إليه بأنْ قُمْ[2]، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «آتينا». وجوِّز كونُها مصدريةً بلا تقديرٍ، على أنَّ المصدر بدلُ اشتمالٍ من الحكمة، وهو بعيد.

﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ إلخ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله موجبٌ للامتثال بالأمر، أي: ومَن يَشْكُرْ له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ نفعه من ارتباط العتيد[3] واستجلابِ المزيد والفوزِ بجنة الخلود مقصورةٌ عليها.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن كلِّ شيءٍ، فلا يحتاجُ إلى الشكر ليتضرَّر بكُفْرِ مَن كفر ﴿حَمِيدٌ ۝١٢﴾ حقيقٌ بالحمد وإن لم يحمده أحدٌ، أو محمودٌ بالفعل ينطقُ بحمده تعالى جميعُ المخلوقات بلسان الحال، فـ «حميد» فعيلٌ بمعنى محمود على الوجهين.

وعدمُ التعرُّض لكونه سبحانه وتعالى مشكوراً لِمَا أنَّ الحمد متضمِّنٌ للشكر، بل هو رأسُه كما قال ﷺ: «الحمدُ رأسُ الشكر، لم يَشْكُرِ اللهَ تعالى عبدٌ لم يَحْمَدْه»[4] فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشكر له قطعاً.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٩٥.

(٢) الكتاب ٣/ ١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٨٦.

(٣) العتيد: الحاضر المهيأ. القاموس (عتد). ووقع في(م): القيد، وهو تصحيف.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٧٤)، والبيهقي في الشعب (٤٣٩٥) من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وفي إسناده انقطاع، وسلف ١/ ٢٥٥.

وفي اختيار صيغة المضيّ في هذا الشقّ قيل: إشارةٌ إلى قبح الكفران، وأنه لا ينبغي إلا أن يعدَّ في خبرِ كان، وقيل: إشارةٌ إلى أنه كثيرٌ متحقِّقٌ، بخلاف الشكر: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وجوابُ الشرط محذوفٌ قام مقامه قولُه تعالى: (فَإِنَّ ٱللَّهَ) إلخ، وكان الأصلُ: ومَن كفر فإنما يكفر على نفسه لأنَّ الله غنيٌّ حميد، وحاصلُه: ومَن كفر فضررُ كفرِه عائدٌ عليه؛ لأنه تعالى غنيٌّ لا يحتاجُ إلى الشكر ليتضرَّر سبحانه بالكفر، محمودٌ بحسب الاستحقاق أو بنطق أَلْسِنَةِ الحال، فكِلَا الوصفين متعلِّقان بالشقِّ الثاني.

وجوِّز أن يكون «غني» تعليلاً لقوله سبحانه: (فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ)، وقولَه عز وجل: «حميد» تعليلاً للجواب المقدَّر للشرط الثاني بقرينةِ مقابله، وهو: فإنما يكفر على نفسه، وأن يكون كلٌّ منهما متعلِّقاً بكلٍّ منهما، ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف الذي لم يَدْعُ إليه [داعٍ][1] ولم تَقُمْ عليه قرينةٌ، فتدبَّر.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ تاران على ما قال الطبريُّ والقتبيُّ[2]. وقيل: ماثان بالمثلثة. وقيل: أَنْعَم. وقيل: أَشْكَم، وهما بوزن أَفْعَل. وقيل: مَشْكَم بالميم بدل الهمزة.

و«إذ» معمولٌ لاذكر محذوفاً، وقيل: يحتملُ أن يكون ظرفاً لـ «آتينا»، والتقدير: وآتيناه الحكمةَ إذ قال، واختُصر لدلالة المقدَّم عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جملةٌ حالية، والوعظُ كما قال الراغب[3]: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، وقال الخليل: هو التذكيرُ بالخير فيما يرقُّ له القلبُ[4].

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ ومحبةٍ، لا تصغيرُ تحقيرٍ:

ولكنْ إذا ما حُبَّ شيءٌ تولَّعَتْ ... به أحرفُ التصغير من شدَّة الوَجْدِ[5]

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٥، والكلام منه.

(٢) ذكره عنهما السهيلي في التعريف والإعلام ص١٣٤، وقول القتبي في المعارف ص٥٦.

(٣) في مفرداته (وعظ).

(٤) العين ٢/ ٢٢٨، والكلام من مفردات الراغب (وعظ).

(٥) درة الغواص ص١٣، وحاشية الشهاب ٧/ ١٣٥.

وقال آخر:

ما قلتُ حُبيبي من التحقير بل يَعْذُبُ اسمُ الشيء بالتصغير[(١)]

وقرأ البزي هنا: «يا بنيْ» بالسكون، وفيما بعد: «يا بنيِّ إنها» بكسر الياء، و: «يا بنيَّ أقم» بفتحها، وقنبل بالسكون في الأولى والثالثة والكسر في الوسطى، وحفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير: يا بُنيًّا، والاجتزاءِ بالفتحة عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر فيها[(٢)].

﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قيل: كان ابنُه كافراً ولذا نهاه عن الشرك، فلم يَزَلْ يَعِظُه حتى أسلم، وكذا قيل في امرأته. وأخرج ابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين» عن الفضل الرقاشي قال: ما زال لقمانُ يَعِظ ابنه حتى مات. وأخرج عن حفص بن عمر الكندي قال: وضع لقمان جراباً من خَرْدَلٍ وجعل يَعِظُ ابنَه موعظةً ويُخرج خردلةً، فنفد الخردل فقال: يا بنيَّ، لقد وعظتُك موعظةً لو وعظتُها جبلاً لتفطَّر، فتفطَّرَ ابنُه[(٣)].

وقيل: كان مسلماً والنهيُ عن الشرك تحذيرٌ له عن صدوره منه في المستقبل.

والظاهرُ أن الباء متعلِّقٌ بما عنده، ومَن وقف على «لا تشرك» جعل الباء للقسم، أي: أُقْسِمُ بالله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾ والظاهرُ أنَّ هذا من كلام لقمان، ويقتضيه كلامُ مسلم في صحيحه[(٤)]، والكلام تعليلٌ للنهي أو الانتهاء عن الشرك، وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى شأنُه منقطعٌ عن لقمان متصلٌ به في تأكيد المعنى.

وكونُ الشرك ظلماً لِمَا فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونُه عظيماً لِمَا فيه من التسوية بين مَن لا نعمةَ إلا منه سبحانه ومَن لا نعمةَ له.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٥.

(٢) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٢٨٩، والبحر ٧/ ١٨٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) الخبران في الدر المنثور ٥/ ١٦٢.

(٤) برقم (١٢٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٢٤٠)، والبخاري (٦٩٣٧)، وهو من حديث ابن مسعود ﷺ قال: لمَّا نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ اعتُرِضَ به على نهج الاستطراد في أثناء وصيةِ لقمان تأكيداً لِمَا فيه من النهي عن الإشراك، فهو من كلام الله عز وجل لم يقله سبحانه للقمان.

وقيل: هو من كلامه تعالى قاله جل وعلا له، وكأنه قيل: قلنا له اشكر وقلنا له وصينا الإنسان.. إلخ.

وفي «البحر»: لمَّا بيَّن لقمانُ لابنه أنَّ الشرك ظلمٌ ونهاه عنه، كان ذلك حثّاً على طاعة الله تعالى، ثم بيَّن أنَّ الطاعة أيضاً تكون للأبوين وبيَّن السبب في ذلك، فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه، أخبر الله تعالى عنه بذلك[1]. وكِلَا القولين كما ترى.

والمعنى: وأَمَرْنا الإنسان برعاية والديه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ أي: ضعفاً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعف، والمصدرُ حالٌ من «أمه» بتقدير مضافٍ، أي: ذاتَ وَهْنٍ، وجوِّز جَعْلُه نفسه حالاً مبالغةً، لكنه مخالفٌ للقياس إذ القياسُ في الحال كونُه مشتقّاً. ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: تَهِنُ وَهْناً، والجملة حالٌ من «أمه» أيضاً. وأيّاً ما كان فالمرادُ: تَضْعفُ ضَعْفاً متزايداً بازدياد ثقل الحمل إلى مدة الطلق. وقيل: ضَعْفاً متتابعاً، وهو ضعفُ الحمل وضَعْفُ الطلق وضَعْفُ النفاس.

وجوِّز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في «حملته» العائدِ على «الإنسان» وهو الذي يقتضيه ما أخرجه ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: «وهناً» الولد «على وهن» الوالدةُ وضَعْفُها[2]. والمرادُ أنها حملته حالَ كونه ضعيفاً على ضعيفٍ مِثْلِه، وليس المراد أنها حملته حالَ كونه متزايدَ الضعف ليقال: إنَّ ضَعْفَه لا يتزايد بل ينقص.

وقرأ عيسى الثقفي وأبو عمرو في رواية: «وَهَناً على وَهَنٍ» بفتح الهاء فيهما[3]،

---

(١) البحر ٧/ ١٨٦.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٥١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٦٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٦-١١٧، والمحتسب ٢/ ١٦٧، والبحر ٧/ ١٨٧.

فاحتمل أن يكون من باب تحريك العين إذا كانت حرفَ حَلْقٍ كالشَّعْر والشَّعَر على القياس المطَّرد عند الكوفيِّ كما ذهب إليه ابن جنِّي[1]، وأن يكون مصدرَ وَهِنَ بكسر الهاء يَوْهَنُ بفتحها، فإنَّ مصدره جاء كذلك، وهذا كما يقال: تَعِبَ يَتْعَبُ تَعَباً كما قيل، وكلامُ صاحب «القاموس» ظاهرٌ في عدم اختصاص أحد المصدرين بأحد الفعلين قال: الوَهْنُ: الضَّعْفُ في العمل، ويحرَّك، والفعل كوَعَدَ ووَرِثَ وكَرُمَ[2].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامُه وتَرْكُ إرضاعه. وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادةُ والجحدريُّ ويعقوب: «وفَصْلُه»[3]، وهو أعمُّ من الفصال، والفصالُ هاهنا أَوْقَعُ من الفصل لأنه موقعٌ يختصُّ بالرضاع وإن رجعا إلى أصلٍ واحدٍ على ما قال الطيبيُّ[4].

﴿فِى عَامَيْنِ﴾ أي: في انقضاء عامين، أي: في أول زمانِ انقضائهما، وظاهرُ الآية أنَّ مدَّةَ الرضاع عامان، وإلى ذلك ذهب الإمام الشافعيُّ والإمامُ أحمدُ وأبو يوسفَ ومحمدٌ، وهو مختارُ الطحاويِّ، وروي عن مالك، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنَّ مدة الرضاع الذي يتعلَّق به التحريمُ ثلاثون شهراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ووجهُ الاستدلال به أنه سبحانه وتعالى ذكر شيئين وضرب لهما مدةً، فكانت لكلٍّ واحدٍ منهما بكمالها، كالأجل المضروب للدَّيْنَيْنِ على شخصين، بأن قال: أجَّلْتُ الدَّيْنَ الذي لي على فلانٍ والدَّيْنَ الذي على فلان سنةً، فإنه يُفْهَمُ أنَّ السَّنة بكمالها لكلٍّ، أو على شخصٍ بأن قال: لفلانٍ عليَّ ألفُ درهمٍ وعشرةُ أقفزةٍ إلى سنةٍ، فصدَّقه المقَرُّ له في الأجل، فإذا مضت السنةُ يتمُّ أجلُهما جميعاً إلا أنه قام النقصُ في أحدهما ـ أعني مدَّةَ الحمل ـ لقول عائشة الذي لا يقال مثلُه إلَّا سماعاً: الولدُ لا يبقى في بطن أمِّه أكثر من سنتين ولو بقَدْرِ فَلْكةِ مغزلٍ[5]. فتبقى مدَّةُ الفصال على ظاهرها، وما ذُكر هنا أقلُّ مدَّتِه، وفيه بحث.

---

(١) في المحتسب ١/ ٨٤.

(٢) القاموس «وهن».

(٣) القراءات الشاذة ص١١٦، والمحتسب ٢/ ١٦٧، والبحر ٧/ ١٨٧.

(٤) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) سلف ١٣/ ٥٨، والكلام من فتح القدير لابن الهمام ٣/ ٦.

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ تفسيرٌ لـ «وصَّينا» كما اختاره النحاس[(١)]، فـ «أنْ» تفسيرية. وجوِّز أن تكون مصدريةً بتقدير لام التعليل قبلها، وهو متعلِّقٌ بـ «وصَّينا»، وبلا تقديرٍ على أن يكون المصدر بدلاً من «والديه» بدلَ الاشتمال، وعليه كأنه قيل: وصَّينا الإنسان بوالديه شُكْرِهما، وذكر شكرَ الله تعالى لأنَّ صحة شكرهما تتوقَّفُ على شكره عز وجل، كما قيل في عكسه: «لا يشكرُ الله تعالى مَن لا يشكرُ الناس»[(٢)]، ولذا قرن بينهما في الوصية، وفي هذا من البُعْدِ ما فيه. وأمَّا القولُ بأنَّ الأمر يأبى التفسيرَ والتعليلَ والبدليةَ فليس بشيءٍ كما أشرنا إليه قريباً.

وعلى الأوجُهِ الثلاثة يكون قوله تعالى: (حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ) إلى (عَامَيۡنِ) اعتراضاً مؤكِّداً للتوصية في حقِّ الأم خصوصاً؛ لذكر ما قاسته في تربيته وحمله، ولذا قال النبيُّ ﷺ - كما في حديثٍ صحيح رواه الترمذيُّ وأبو داود عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده - لمن سأله عمَّن يبرُّه: «أمَّك» وأجابه عن سؤاله به ثلاثَ مرات[(٣)].

وعن بعض العرب أنه حمل أمَّه إلى الحجِّ على ظهره وهو يقول في حُدائه:

أحـمـلُ أمـيِّ وهـي الـحـمَّـالَـهْ
تُـرضـعـنـي الـدِّرَّة والـعُـلَالـهْ
ولا يُـجـازَى والـدٌ فَـعَـالَـه[(٤)]

ولله تعالى درُّ مَن قال:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن أبي داود (٥١٣٩)، وسنن الترمذي (١٨٩٧)، قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث. وأخرج نحوه أحمد (٨٣٤٤)، والبخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) العين ١/ ٨٨، والكامل للمبرد ١/ ٤٣٧، والكشاف ٣/ ٢٣٢، واللسان (علل) وفيه: العُلالة: اللبن بعد حلب الدِّرَّة تنزله الناقة.
وقال المبرد: الدِّرَّة: اسم ما يدرُّ من ثدييها. والفَعَال كسحاب: اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

لأمِّك حقٌّ لو علمتَ كبيرُ كثيرُك يا هذا لديه يسيرُ
فكم ليلةٍ باتت بثِقْلِك تشتكي لها من جراها[1] أنةٌ وزفيرُ
وفي الوضع لو تدري عليها مشقَّةٌ فمن غصصٍ لها الفؤادُ يطيرُ
وكم غَسَلتْ عنك الأذى بيمينها وما حِجْرُها إلا لديك سريرُ
وتَفديك ممَّا تشتكيه بنفسها ومن ثديها شِرْبٌ لديك نَميرُ
وكم مرَّةٍ جاعتْ وأعطتك قُوْتَها حُنُوًّا وإشفاقاً وأنت صغيرُ
فآهاً لذي عقلٍ ويَتَّبعُ الهوى وآهاً لأعمى القلب وهو بصيرُ
فدونك فارْغَبْ في عميمِ دعائها فأنت لِمَا تدعو به لفقير

واختلف في المراد بالشكر المأمور به، فقيل: هو الطاعةُ وفِعْلُ ما يُرْضَى، كالصلاة والصيام بالنسبة إليه تعالى، وكالصلة والبرِّ بالنسبة إلى الوالدين، وعن سفيان بن عيينة: مَن صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومَن دعا لوالديه في أدبارها فقد شكرهما. ولعل هذا بيانٌ لبعض أفراد الشكر.

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ⑭﴾ تعليلٌ لوجوب الامتثال بالأمر، أي: إليَّ الرجوعُ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صَدَرَ عنك ممَّا يخالفُ أمري.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الإشراكَ، أو بشركته له تعالى في استحقاق العبادة، والجارُّ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿عِلْمٌ﴾، و«ما» مفعولُ «تشرك» كما اختاره ابنُ الحاجب، ثم قال: ولو جُعل «تشرك» بمعنى تكفر، وجُعلت «ما» نكرةً أو بمعنى الذي، بمعنى: كفراً أو الكفر، وتكونُ نصباً على المصدرية، لكان وجهاً حسناً، والكلامُ عليه أيضاً بتقدير مضافٍ، أي: وإنْ جاهدك الوالدان على أن تكفر بي كفراً ليس لك، أو الكفرَ الذي ليس لك بصحته أو بحقِّيته علم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، والمرادُ استمرارُ نفي العلم لا نفيُ استمراره، فلا يكون الإشراك إلا تقليداً.

وفي «الكشاف»: أراد سبحانه بنفي العلم نفيَ ما يُشْرِكُ، أي: لا تشرك بي

---
(١) في الأصل: جواها.

ما ليس بشيءٍ، يريد عزَّ وجلَّ الأصنامَ، كقوله سبحانه: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢][١]. وجعله الطيبيُّ[٢] على ذلك من باب نفي الشيء بنفي لازمه، وذلك أنَّ العلم تابعٌ للمعلوم، فإذا كان الشيءُ معدوماً لم يتعلَّق به موجوداً، ونَقَلَ عن ابن المنير[٣] أنه عليه من باب:

على لاحبٍ لا يُهتَدَى بمناره[٤]

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك علم بإلهيته.

وفي «الكشف»: أنَّ الزمخشري أراد أنه بولغ في نفي الشريك حتى جُعِلَ كَلَا شيءٍ، ثم بولغ حتى ما لا يصحُّ أن يتعلَّق به علمٌ والمعدومُ يصحُّ أن يُعْلَم ويصحُّ أن يقال: إنه شيءٌ، فأُدخل في سلك المجهول مطلقاً وليس من قبيل نفي العلم لنفي وجوده، وهذا تقريرٌ حسن، وفيه مبالغةٌ عظيمةٌ منه يظهر ترجيحُ هذا المسلك في هذا المقام على أسلوب:

ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[٥]

اهـ، فافهم ولا تغفل.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صِحَاباً معروفاً يرتضيه الشرعُ ويقتضيه الكَرَمُ والمروءةُ، كإطعامهما وإكسائهما، وعدمِ جفائهما وانتهارِهما، وعيادتِهما إذا مرضا، ومواراتهما إذا ماتا.

وذكر «في الدنيا» لتهوين أمر الصحبة، والإشارةِ إلى أنها في أيامٍ قلائلَ وشيكةِ الانقضاء، فلا يضرُّ تحمُّل مشقَّتها لقلَّةِ أيامها وسرعةِ انصرامها. وقيلَ: للإشارة إلى أنَّ الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية. وقيل: ذكره لمقابلته بقوله تعالى: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٢.
(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٣) في الانتصاف ٣/ ٢٣٢.
(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧ و٢/ ٢٤١، وغيرها.
(٥) وقبله: لا يُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها. والبيت لابن الأحمر، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٤/ ٨٨ و٥/ ٥٦ وغيرها.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: رجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص بالطاعة، وحاصلُه: اتَّبِعْ سبيل المخلِصينَ لا سبيلهما.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعُك ورجوعُهما، وزاد بعضهم: مَن أناب، وهو خلافُ الظاهر، وأيَّاما كان ففيه تغليبٌ للخطاب على الغيبة.

﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ بأن أجازي كلّاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

والآيةُ نزلت في سعد بن أبي وقاص؛ أخرج أبو يعلى والطبرانيُّ وابنُ مردويه وابنُ عساكر عن أبي عثمان النَّهْديِّ أنَّ سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت فيَّ هذه الآيةُ: (وَإِن جَٰهَدَاكَ) الآيةَ، كنتُ رجلاً برّاً بأمِّي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، وما هذا الذي أراك قد أحدَثْتَ؟ لتَدَعَنَّ دينَك هذا أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت، فتعيَّرُ بي فيقال: يا قاتلَ أمِّه. قلت: لا تفعلي يا أمَّه فإنِّي لا أدعُ ديني هذا لشيءٍ. فمكثتْ يوماً وليلةً لا تأكل، فأصبحت قد جهدتْ، فمكثت يوماً [آخر] وليلةً لا تأكل فأصبحت قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: يا أمه، تعلمين واللهِ لو كانت لك مئة نفسٍ فخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركتُ ديني هذا لشيءٍ، فإنْ شئتِ فكُلي وإن شئتِ لا تأكلي. فلمَّا رأت ذلك أكلتْ، فنزلت هذه الآية[١].

وذكر بعضهم أن هذه وما قبلها ـ أعني قولَه تعالى: (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) الآيةَ ـ نزلتا فيه، قيل: ولكون النزول فيه قيل: «مَن أناب» بتوحيد الضمير، حيث أُريدَ بذلك أبو بكر رضي الله عنه، فإنَّ إسلام سعد كان بسبب إسلامه.

أخرج الواحديُّ[٢] عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: إنه يريد بمن أناب أبا بكر[٣]، وذلك أنه حين أسلم رآه عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزبير، فقالوا لأبي بكر: آمنتَ وصدَّقْتَ محمداً ﷺ؟ فقال أبو بكر: نعم. فأتوا

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٥، وما بين حاصرتين منه، وهو في تاريخ ابن عساكر ٢٠/ ٣٣١. وأخرج نحوه مطولاً مسلم (١٧٤٨)، وأبو يعلى (٧٨٢) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه.
(٢) في أسباب النزول ص٣٦٣.
(٣) في الأصل و(م): أبو بكر، والمثبت من أسباب النزول.

رسول الله ﷺ فآمنوا وصدَّقوا، فأنزل الله تعالى يقول لسعد: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر رضي الله عنه.

وابنُ جريج يقول كما أخرج عنه ابن المنذر: «مَن أناب»: محمدٌ ﷺ[1]. وغيرُ واحدٍ يقول: هو ﷺ والمؤمنون. والظاهرُ هو العموم.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ إلخ رجوعٌ إلى القصة بذِكْرِ بقيةِ ما أُريدَ حكايتُه من وصايا لقمان، إثر تقريرِ ما في مطلعه من النهي عن الشرك وتأكيدِه بالاعتراض ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخصلة من الإساءة والإحسان؛ لفَهْمِها من السياق. وقيل ـ وهو كما ترى ـ: «إنها» أي: التي سألتَ عنها، فقد روي أنَّ لقمان سأله ابنُه: أرأيتَ الحبةَ تقع في مغاص البحر، أيعلمها الله تعالى؟ فقال: «يا بني إنها» أي: التي سألت عنها ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إنْ تكن مَثَلاً في الصغر كحبة الخردل.

والمثقالُ ما يقدَّر به غيرُه لتساوي ثقلهما، وهو في العُرْفِ معلوم. وقرأ نافع والأعرج وأبو جعفر: «مثقالُ» بالرفع[2] على أنَّ الضمير للقصة، و«تَكُ» مضارعُ كان التامَّة، والتأنيثُ لإضافة الفاعل إلى المؤنَّث، كما في قول الأعشى:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أَذَعْتَه كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدم[3]

أو لتأويله بالزِّنَةِ أو الحسنة والسيئة.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فتكنْ مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أَخْفَى مكانٍ وأَحْرَزِه، كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلويِّ أو السفليِّ.

وقيل: في أَخْفَى مكانٍ وأَحْرَزِه كجوفِ الصخرة، أو أعلاه كمحدَّبِ السماوات، أو أسفله كمقعَّر الأرض. ولا يخفى أنه لا دلالة في النظم على تخصيص المحدَّب والمقعَّر، ولعل المقام يقتضيه إذ المقصود المبالغة، و«في» في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا يأبى ذلك؛ لأنها ذُكرت بحسب المكانية، أو

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٦.
(٢) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر.
(٣) ديوان الأعشى ص١٨٣، وسلف ٤/ ٣٦٦ و٦/ ٣١ و١٢/ ٢٢٦.

للمشاكلة، أو هي بمعنى على، وعبِّر بها للدلالة على التمكُّن، ومع هذا الظاهرُ ما تقدَّم.

وفي «البحر» أنه بدأ بما يتعقَّلُه السامعُ أوَّلاً وهو كينونةُ الشيء في صخرةٍ، وهو ما صَلُبَ من الحجر وعَسُرَ الإخراج منه، ثم أَتْبعَه بالعالم العلويِّ وهو أغربُ للسامع، ثم أَتْبعَه بما يكون مقرَّ الأشياءِ للشاهد وهو الأرض[١].

وقيل: إنَّ خفاءَ الشيءِ وصعوبةَ نيلِه بطرقٍ بغاية صغره، وببُعْدِه عن الرائي، وبكونه في ظلمةٍ، وباحتجابه. ف «مثقال حبةٍ من خردلٍ» إشارةٌ إلى غاية الصغر، و«في صخرة» إشارةٌ إلى الحجاب، و«في السماوات» إشارةٌ إلى البعد، و«في الأرض» إشارةٌ إلى الظلمة فإنَّ جوف الأرض أشدُّ الأماكن ظلمةً.

وأيّاً ما كان فليس المراد بـ «صخرة» صخرةً معيَّنة، وعن ابن عباس والسديِّ أنَّ هذه الصخرة هي التي عليها الأرضُ. وأخرج ابن مردويه[٢] عن ابن عباس أنَّ الأرض على نونٍ، والنونُ على بحرٍ، والبحرُ على صخرةٍ خضراءَ، خضرةُ الماء منها، والصخرةُ على قرن ثورٍ، وذلك الثورُ على الثرى، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى. وفسر بعضهم الصخرة بهذه الصخرة. وقيل: هي صخرة في الريح.

قال ابن عطية: وكلٌّ ذلك ضعيفٌ لا يثبُتُ سندُه، وإنما معنى الكلامِ المبالغةُ والانتهاءُ في التفهيم، أي: إنَّ قدرته عز وجل تنالُ ما يكون في تضاعيف صخرةٍ، وما يكون في السماء، وما يكون في الأرض[٣]. اهـ.

والأقوى عندي وَضْعُ هذه الأخبار ونحوِها، فليست الأرضُ إلا في حجر الماء وليس الماءُ إلا في جوف الهواء، وينتهي الأمرُ إلى عرش الرحمن جل وعلا، والكلُّ في كفِّ قدرة الله عز وجل.

وقرأ عبد الكريم الجزري: «فتَكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون وفَتْحِها[٤]. وقرأ

(١) البحر ٧/ ١٨٧-١٨٨.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٦.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.
(٤) المحتسب ٢/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، والبحر ٧/ ١٨٧. ووقع في الأصل و(م): عبد الرحيم الجزري، والمثبت من المصادر.
=

محمد بن أبي فجّة البعلبكيُّ: «فتُكَنَّ» بضمِّ التاء وفتح الكاف والنونِ مشدَّدةً. وقرأ قتادة: «فتَكِنْ» بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون[١]، ورُويت هذه القراءةُ عن الجزريِّ أيضاً. والفعلُ في جميع ما ذُكر من وَكَنَ الطائرُ: إذا استقرَّ في وكنته[٢]، أي: عشِّه، ففي الكلام استعارةٌ أو مجازٌ مرسلٌ كما في المشفر[٣].

والضمير للمحدَّثِ عنه فيما سبق، وجوِّز أن يكون للابن، والمعنى: إن تَخْتَفِ أو تَخْفَ وقتَ الحساب يُحْضِرْك الله تعالى، ولا يخفى أنه غيرُ ملائمٍ للجواب، أعني قولَه تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي: يُحْضِرُها فيحاسبُ عليها، وهذا إما على ظاهره، أو المرادُ: يجعلها كالحاضر المشاهد لذكرها والاعتراف بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِلُ عِلْمُه تعالى إلى كلِّ خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ عالمٌ بكنهه. وعن قتادة: لطيفٌ باستخراجها خبيرٌ بمستقرِّها. وقيل: ذو لطفٍ بعباده، فيلطفُ بالإتيان بها بأحد الخصمين، «خبير» عالم بخفايا الأشياء. وهو كما ترى.

والجملةُ علةٌ مصحِّحة للإتيان بها، أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بنِ رباح اللخميِّ أنه لمَّا وَعَظَ لقمانُ ابنَه وقال: (إِنَّهَآ إِن تَكُ) الآيَةَ، أخذ حبةً من خردلٍ فأتى بها إلى اليرموك - وهو وادٍ في الشام - فألقاها في عرضهِ، ثم مكث ما شاء الله تعالى، ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذبابٌ حتى وضعها في راحته[٤]. والله تعالى أعلم.

وبعدَ ما أَمَرَه بالتوحيد الذي هو أولُ ما يجب على المكلَّف في ضمن النهي عن الشرك، ونبَّهه على كمال عِلْمِه تعالى وقدرته عز وجل، أَمَرَه بالصلاة التي هي أكملُ العبادات تكميلاً له[٥] من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد، فقال مستميلاً

= وعبد الكريم الجزري هو ابن مالك، أبو سعيد الحرَّاني مولى بني أمية، ويقال له: الخِضْرِمي بالخاء المعجمة المكسورة، وهي من قرى اليمامة، توفي سنة (١٢٧هـ). التهذيب ٢/ ٦٠٢. والقراءة ذكرها ابن خالويه ص١١٧ عن الأنباري.

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٧، والكلام منه.

(٢) بفتح الواو وضمها وسكونِ الكاف أو ضمها مع ضم الواو. حاشية الشهاب ٧/ ١٣٧.

(٣) المِشْفَر: شفة البعير، وقد يستعمل في الناس على الاستعارة. التاج (شفر).

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٦٣.

(٥) قوله: له، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٧٢، والكلام منه.

له: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك، ويُروى أنه قال له: يا بني إذا جاء وقتُ الصلاة فلا تؤخِّرها لشيءٍ، صلِّها واسترِحْ منها فإنها دينٌ، وصلِّ في جماعةٍ ولو على رأس زجٍّ[1].

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك، والظاهرُ أنه ليس المرادُ معروفاً ومنكراً معيَّنين، وأخرج ابن أبي حاتم[2] عن ابن جبير أنه قال: «وأمر بالمعروف» يعني التوحيد «وانه عن المنكر» يعني الشرك.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أُمرتَ به من إقامة الصلاة والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، واحتياجُ الأخيرين للصبر على ما ذُكر ظاهرٌ، والأولِ لأنَّ إتمام الصلاة والمحافظةَ عليها قد يَشُقُّ، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال ابن جبير: واصبر على ما أصابك في أمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول: إذا أَمرْتَ بمعروفٍ أو نَهيْتَ عن منكرٍ وأصابك في ذلك أذًى وشدةٌ فاصبر عليه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبر على ما أصابك، عند ابن جبير، وهو يناسبُ إفرادَ اسم الإشارة، وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببعدِ منزلته في الفضل. أو الإشارةُ إلى الصبر وإلى سائر ما أُمر به، والإفراد للتأويل بما ذكر، وأمرُ البعد على ما سمعت.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ أي: ممَّا عزمه الله تعالى وقَطَعه قَطْعَ إيجابٍ، وروي ذلك عن ابن جُريج، والعزمُ بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى، ومنه ما ورد من عزمات الله عز وجل، والمراد به هنا المعزومُ، إطلاقاً للمصدر على المفعول، والإضافةُ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الأمور المعزومة.

وجوِّز أن يكون العزمُ بمعنى الفاعل، أي: عازم الأمور، من عَزَمَ الأمر، أي: جدَّ، فعزم الأمور من باب الإسناد المجازيِّ كمكر الليل، لا من باب الإضافة على معنى في وإنْ صحَّ.

---

(١) الزج: الحديدة في أسفل الرمح. القاموس (زجج).
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٦٦.

وقيل: يريد: من مكارم الأخلاق وعزائمِ أهل الحزم السالكين طريقَ النجاة.

واستَظْهَر أبو حيان أنه أراد: من لازمات الأمور الواجبة، ونَقَل عن بعضهم أنَّ العزم هو الحزمُ بلغة هذيل، والحزمُ والعزمُ أصلان. وما قاله المبرِّد من أنَّ العين قُلبتْ حاءً ليس بشيءٍ، لاطِّراد تصاريف كلٍّ من اللفظين، فليس أحدُهما أصلاً للآخر[1].

والجملةُ تعليلٌ لوجوب الامتثال بما سبق، وفيه اعتناءٌ بشأنه.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُمِلْه عنهم، ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما يفعلُه المتكبِّرون، قاله ابن عباس وجماعةٌ، وأنشدوا:

وكنَّا إذا الجبارُ صعَّر خدَّه ... أقمنا له من ميله فتقوَّما[2]

فهو من الصَّعر بمعنى الصَّيد[3]، وهو داءٌ يعتري البعير فيُلوَى منه عنقه، ويستعارُ للتكبُّر كالصَّعر.

وقال ابن خويزمنداد: نُهي أن يذلَّ نفسه من غير حاجةٍ فيلوي عنقَه. ورجَّح الأولُ بأنه أوفقُ بما بعدُ، ولامُ «للناس» تعليليةٌ، والمراد: ولا تصعِّر خدَّك لأَجْلِ الإعراض عن الناس، أو صلة.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ: «تُصاعر» بألفٍ بعد الصاد[4]. وقرأ الجحدريُّ: «تُصْعِر» مضارعُ أَصْعَرَ[5]، والكلُّ واحدٌ، مثل: علَّاه وعالاه وأَعْلاه.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٨.

(٢) البيت من قصيدة للمتلمس كما في الأصمعيات ص٢٤٥، وجمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٣، ومختارات ابن الشجري ١/ ٢٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٣، واللسان (صعر). وهذا البيت كما في معجم الشعراء يروى أيضاً من قصيدة لعمرو بن جني التغلبي قافيتها بالميم المكسورة، برواية: فتقوَّم، وهو أمر بالاستقامة، أي: فتقوَّمْ أنت. وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢٧، والطبري ١٨/ ٥٥٩ منسوباً لعمرو بن جني ولكن بالرواية الأولى. وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١، والبحر ٧/ ١٨٢.

(٣) بكسر الصاد، ويحرك. القاموس (صيد).

(٤) التيسير ص١٧٦، والنشر ٢/ ٣٤٦، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٨.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي أحطُّ الأماكن منزلةً ﴿مَرَحًا﴾ أي: فَرحاً وبَطَراً، مصدرٌ وقع موقعَ الحال للمبالغة أو لتأويله بالوصف، أو: تمرح مرحاً، على أنه مفعولٌ مطلق لفعلٍ محذوف، والجملةُ في موضع الحال. أو: لأَجْلِ المرح على أنه مفعولٌ له.

وقرئ: «مرِحاً» بكسر الراء[1] على أنه وصفٌ في موضع الحال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ تعليلٌ للنهي أو موجبه، والمختال من الخيلاء وهو التَّبَخْتُر في المشي كبراً، وقال الراغب: التكبُّر عن تخيُّلِ فضيلةٍ تراءت للإنسان من نفسه، ومنه تُؤوِّلَ لَفْظُ الخيل لِمَا قيل: إنه لا يركب أحدٌ فرساً إلَّا وَجَدَ في نفسه نخوةً[2].

والفَخورُ من الفخر، وهو المباهاةُ في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويدخل في ذلك تعدادُ الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاةٌ بالمال، وعن مجاهدٍ تفسيرُ الفَخور بمن يعدِّد ما أَعْطَى ولا يشكرُ الله عز وجل.

وفي الآية عند الزمخشريِّ لفٌّ ونشرٌ معكوسٌ، حيث قال: المختالُ مقابلٌ للماشي مَرَحاً، وكذلك الفخورُ للمصعِّرِ خدَّه كبراً[3]، وذلك لرعاية الفواصل على ما قيل، ولا يأبى ذلك كونُ الوصية لم تكن باللسان العربي كما لا يخفى.

وجوِّز أن يكون هناك لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ، فإنَّ الاختيال يناسبُ الكبر والعُجْبَ، وكذا الفخر يناسبُ المشي مرحاً، والكلامُ على رفع الإيجاب الكلِّيِّ، والمراد السلبُ الكليُّ، وجوِّز أن يبقى على ظاهره، وصيغةُ «فخور» للفاصلة، ولأنَّ ما يُكره من الفخر كثرته فإنَّ القليل منه يَكثُر وقوعُه، فلطفُ الله تعالى بالعفو عنه، وهذا كما لَطَفَ بإباحة اختيال المجاهد بين الصفَّين، وإباحة الفخر بنحو المال لمقصدٍ حسن.

---

(١) لم نقف على مَن ذكرها عند هذه الآية، وإنما ذكروها عند الآية (٣٧) من سورة الإسراء.
(٢) مفردات الراغب (خيل).
(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٤.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه، أي: توسَّطْ فيه بين الدبيب والإسراع، من القَصْدِ: وهو الاعتدال، وجاء في عدة رواياتٍ ـ إلّا أنَّ في أكثرها مقالاً يُخْرِجُها عن صلاحية الاحتجاجِ بها كما لا يخفى على مَن راجَعَ «شرح الجامع الصغير» للمناوي[١] ـ عن النبيِّ ﷺ: «سرعةُ المشي تُذْهِبُ بهاءَ المؤمن»[٢] أي: هيبتَه وجمالَه، أي: تُوْرِثُه حقارةً في أعين الناس، وكأنَّ ذلك لأنها تدلُّ على الخفة، وهذا أقربُ من قول المُنَاوي: لأنها تُتْعِبُ فتغيرٌ البدنَ والهيئة[٣].

وقال ابن مسعود: كانوا يُنهون عن خَبَبِ اليهود ودبيبِ النصارى، ولكن مشياً بين ذلك.

وما في «النهاية» من أنَّ عائشة نظرت إلى رجلٍ كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القرَّاء. فقالت: كان عمر رضي الله عنه سيدَ القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أَسْمَعَ، وإذا ضرب أَوْجَعَ[٤]. فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب

(١) فيض القدير ٤/ ١٠٤ و١٤٠، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيه محمد بن عبد الملك بن قريب الأصمعي، قال الخطيب: لم أسمع له بذكر إلا في هذا الحديث، وقال الذهبي: وهو حديث منكر جدًّا. الميزان ٣/ ٦٣٢، وفيض القدير ٤/ ١٠٤، وقال المناوي: وأعله ابن حبّان بأبي معشر وقال: اختلط آخراً وكثرت المناكير في روايته فبطل الاحتجاج به.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك وكذبه غير واحد.

وأخرجه ابن حبان ٢/ ٨٢، وابن عدي ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، قال ابن حبان: كان ممن يروي عن الثقات المعضلات التي إذا سمعها مَن الحديثُ صنعتُه لم يشكَّ أنها معمولة، يجب التنكب عن روايته في الكتب.

وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) فيض القدير ٤/ ١٠٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث (موت).

المتماوت[١]، وهو الذي يُخفي صوتَه ويُقِلُّ حركاته ممَّن[٢] يتزيَّا بزيِّ العبَّاد، كأنه يتكلَّفُ في اتصافه بما يقرِّبُه من صفات الأموات؛ ليوهم أنه ضَعُفَ من كثرة العبادة، فلا ينافي الآيةَ، وكذا ورد في صفته ﷺ إذ يمشي كأنما ينحطُّ من صببٍ[٣]، وكذا لا ينافيها قولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إذ ليس الهون فيه المشيَ كدبيب النمل.

وذكر بعض الأفاضل أنَّ المذموم اعتيادُ الإسراع بالإفراط فيه.

وقال السخاويُّ: محلُّ ذمِّ الإسراع ما لم يُخْشَ من بطءِ السير تفويتُ أمرٍ دينيٍّ[٤]، لكن أنت تعلم أنَّ الإسراع المُذْهِبَ للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلاً مما قالوا: إنه ممَّا لا ينبغي، فلا تغفل.

وعن مجاهد: أنَّ القَصْدَ في المشي التواضُعُ فيه. وقيل: جَعْلُ البصر موضعَ القدم. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

وقرئ: «وأَقْصِدْ» بقَطْعِ الهمزة، ونَسَبَها ابنُ خالويه للحجازيِّ[٥]، من أَقْصَدَ الرامي: إذا سدَّد سهمه نحو الرميَّة ووجَّهه إليها ليصيبها، أي: سدِّد في مشيك، والمراد: امشِ مشياً حسناً، وكأنه أُريدَ التوسُّطُ به بين المشيين السريعِ والبطيءِ، فتتوافق القراءتان.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه واقْصِرْ، من قولك: فلان يغضُّ من فلانٍ، إذا قصر به ووضع منه وحطَّ من درجته. وفي «البحر»: الغضُّ ردُّ طموح

---

(١) جاء في حاشية (م): ورأى عمر ﷺ رجلاً متماوتاً فقال: لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله. ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه فقال: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض. اهـ منه. والخبران في النهاية (موت).

(٢) في الأصل و(م): مما، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٣٨، والكلام منه.

(٣) قطعة من حديث هند بن أبي هالة، أخرجه الترمذي في الشمائل (٧)، والقاضي عياض كما في شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٣٤.

(٤) المقاصد الحسنة ص٢٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٤/ ١٠٤، وعبارة السخاوي: وهو محمود لمن يخشى من البطء في السير تفويت أمر ديني ونحوه.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٨٩، والكلام منه.

الشيء كالصوت والنظر[١]، ويستعمل متعدِّياً بنفسه كما في قوله:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نميرٍ[٢]

ومتعدِّياً بمن كما هو ظاهر قول الجوهري: غضَّ من صوته[٣]. والظاهر أنَّ ما في الآية من الثاني، وتكلَّف بعضُهم جَعْلَ «من» فيها للتبعيض، وادَّعى آخرُ كونَها زائدةً في الإثبات. وكانت العرب تفتخرُ بجهارة الصوت وتَمدحُ به في الجاهلية، ومنه قولُ الشاعر:

جهيرُ الكلام جهيرُ العطاس جهيرُ الرُّوَاءِ جهيرُ النَّغَمْ
ويخطو على الأين[٤] خَطْوَ الظليم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[٥]

والحكمةُ في غضِّ الصوت المأمورِ به أنه أوفرُ للمتكلِّم، وأبسطُ لنَفْسِ السامع وفَهْمِه.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أي: أقبحها، يقال: وجهٌ منكَر، أي: قبيح، قال في «البحر»: وهو أفعل بُني من فِعْلِ المفعول، كقولهم: أشغل من ذات النحيين، وبناؤه من ذلك شاذٌّ[٦].

---

(١) البحر ٧/ ١٨٩.
(٢) وصدره: فلا كعباً بلغت ولا كلابا، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨٢١.
(٣) الصحاح (غضض).
(٤) في الأصل: على ابن العم، وفي (م): على العم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٥) الكامل للمبرد ٢/ ٦٩٤، والبيان والتبيين ١/ ١٢٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، وأساس البلاغة (جهر)، وتفسير القرطبي ١٦/ ٤٨٤-٤٨٥، والبحر ٧/ ١٨٩. والبيت لرجل يمدح هارون الرشيد كما ذكر المبرد والجاحظ، ورواية الجاحظ: النياط، بدل: العطاس، وقال في شرحه: النياط: معاليق القلب. والأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لعَمَمُ الجسم، و: إن جسمه لعَمَم، إذا كان تامًّا.
(٦) البحر ٧/ ١٨٩، وقوله: بني من فعل المفعول، أي: مبنيٌّ من فعلٍ مبنيٍّ للمفعول. وقوله: أشغل من ذات النحيين، قال العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥٦٤: يعنون امرأة منهم، وهي في هذا المثل مفعولة لأنها شُغلت. اهـ. والنحي: زق السمن، وجاء في قصة هذا المثل: أن رجلاً في الجاهلية انتهى إلى امرأة تبيع السمن، ففتح نحياً من أنحائها وذاقه ثم دفع فم النحي في إحدى يديها، ثم فعل ذلك بآخر ودفعه في يدها الأخرى، ففجر بها ولم =

وقال بعض: أي: أصعبها على السمع وأوحشها، من نَكُرَ بالضمِّ نكارةً، ومنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦] أي: أمرٍ صعبٍ لا يُعرف.

والمراد بالأصوات أصواتُ الحيوانات، أي: إنَّ أنكر أصوات الحيوانات ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ جمع حمارٍ كما صرَّح به أهلُ اللغة، ولم يخالف فيه غيرُ السهيليِّ قال: إنه فعيلٌ اسم جمع كالعبيد، وقد يطلق على اسم الجمعِ الجمعُ عند اللغويين.

والجملةُ تعليلٌ للأمر بالغضِّ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، حيث شبَّه الرافعون أصواتَهم بالحمير، وهم مثلٌ في الذمِّ البليغ والشتيمة، ومثِّلت أصواتُهم بالنهاق الذي أولُه زفير وآخِرُه شهيق، ثم أُخلي الكلامُ من لَفْظِ التشبيه وأُخرج مخرَجَ الاستعارة، وفي ذلك من المبالغة في الذمِّ والتهجين والإفراطِ في التثبيط عن رَفْع الصوت والترغيبِ عنه ما فيه.

وإفرادُ الصوت مع جمع ما أُضيف هو إليه؛ للإشارة إلى قوة تشابُهِ أصوات الحمير حتى كأنها صوتٌ واحدٌ هو أنكرُ الأصوات، وقال الزمخشريُّ: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ المراد ليس بيانَ حالِ صوتِ كلٍّ واحدٍ من آحادِ هذا الجنس حتى يُجمع، بل بيانُ صوتِ هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس(١).

قيل: فعلى هذا كان المناسب: لصوتُ الحمار، بتوحيد المضاف إليه.

وأجيب بأنَّ المقصود من الجمع التتميمُ والمبالغةُ في التنفير، فإنَّ الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر.

وأورد عليه أنه يُوهم أنَّ الأنكرية في التوافُق دون الانفراد، وهو لا يناسب المقام.

وأجيب بأنه لا يُلتفت إلى مثل هذا التوهُّم.

وقيل: لم يجمع الصوتُ المضافُ لأنه مصدرٌ، وهو لا يثنَّى ولا يُجمع ما لم تُقْصد الأنواع، كما في «أنكر الأصوات»، فتأمل.

= تدفعه خوفاً على السمن، وتنظر القصة بتمامها في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٢١-٣٢٢، ومجمع الأمثال ١/ ٣٧٦-٣٧٧، والمستقصى ١/ ٩٩.

(١) بنحوه في الكشاف ٣/ ٢٣٤.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ من كلام لقمان لابنه تنفيراً له عن رفع الصوت، وقيل: هو من كلام الله تعالى، وانتهت وصيةُ لقمان بقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ ردَّ سبحانه به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورَفْعِه، مع أنَّ ذلك يؤذي السامعَ ويقرَعُ الصماخَ بقوةٍ، وربما يخرقُ الغشاءَ الذي هو داخلَ الأذن، وبيَّن عزَّ وجل أنَّ مثلَهم في رفع أصواتهم مَثَلُ الحمير، وأنَّ مَثَلَ أصواتهم التي يرفعونها مَثَلُ نهاقها في الشدة مع القبح الموحش.

وهذا الذي يليقُ أن يُجعَلَ وَجْهَ شَبَهٍ، لا الخلوُّ عن ذكر الله تعالى كما يُتَوَهَّم بناءً على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوريِّ قال: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحُه إلا الحمار(١). لما أنَّ وجهَ الشَّبَهِ ينبغي أن يكون صفةً ظاهرةً، وخلوُّ صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك، على أنَّا لا نسلِّمُ صحةَ هذا الخبر، فإنَّ فيه ما فيه.

ومثلُه ما شاع بين الجَهَلة من أنَّ نهيق الحمار لَعْنٌ للشيعة الذين لا يزالون ينهقون بسبِّ الصحابة ﷺ، ومِثْلُ هذا من الخرافات التي يمجُّها السمعُ ما عدا سمعَ طويل الأذنين.

والظاهرُ أنَّ المراد بالغضِّ من الصوت الغضُّ منه عند التكلُّم والمحاورة. وقيل: الغضُّ من الصوت مطلقاً، فيشملُ الغضَّ منه عند العطاس، فلا ينبغي أن يرفع صوتَه عنده إنْ أَمْكَنَه عدمُ الرفع، وروي عن أبي عبد الله ﷺ ما يقتضيه، ثم إنَّ الغضَّ ممدوحٌ إن لم يَدْعُ داعٍ شرعيٌّ إلى خلافه.

وأُرْدِفَ الأمرُ بالقَصْدِ في المشي بالأمر بالغضِّ من الصوت لِمَا أنه كثيراً ما يتوصَّلُ إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصُّل إليه بالمشي، كذا قيل.

هذا وأَبْعَدَ بعضُهم في الكلام على هذين الأمرين، فقال: إنَّ الأول إشارةٌ إلى التوسُّط في الأفعال، والثاني إشارةٌ إلى الاحتراز من فضول الكلام والتوسُّطِ في الأقوال، وجَعَل قوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ إلخ إشارةً إلى إصلاح الضمير، وهو كما ترى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٧..

وقرأ ابن أبي عبلة: «أصواتُ الحمير» بالجمع بغير لام التأكيد[١].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رجوعٌ إلى سَنَنِ ما سَلَفَ قبل قصة لقمانَ من خطاب المشركين، وتوبيخٌ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد.

والتسخير على ما قال الراغب: سياقةُ الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهراً[٢].

وفي «إرشاد العقل السليم»: المرادُ به إمَّا جَعْلُ المسخَّرِ بحيث ينفعُ المسخَّرَ له أعَمّ من أن يكون منقاداً له يتصرَّفُ فيه كيف يشاء، ويستعمله كيف يريد، كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخَّرة للإنسان، المستعملةِ له من الجماد والحيوان، أو لا يكون كذلك، بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دَخْلٌ في استعماله، كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيطت بها مصالحُ العباد معاشاً أو معاداً، وإما جَعْلُه منقاداً للأمر مذلَّلاً على أنَّ معنى «لكم»: لأَجْلِكم؛ فإنَّ جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخَّرةٌ لله تعالى مستتبِعةٌ لمنافع الخَلْقِ، وما يستعملُه الإنسان حَسْبَما يشاء وإن كان مسخَّراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخَّرٌ لله عز وجل[٣].

﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي: أتمَّ وأوْسَعَ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ جمع نعمةٍ، وهي في الأصل: الحالةُ المُسْتَلَذَّةُ؛ فإنَّ بناء الفِعْلةِ كالجِلْسةِ والرِّكْبةِ للهيئة، ثم استُعملت فيما يلائمُ من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقاً للمسبَّب على السبب، وفي معنى ذلك قولُهم: هي ما يُنتفع به ويُسْتَلَذُّ، ومنهم مَن زاد: ويحمدُ عاقبتُه، وقال بعضهم: لا حاجةَ إلى هذه الزيادة لأنَّ اللذة عند المحقِّقين أمرٌ تُحمَدُ عاقبتُه، وعليه لا يكون لله عزَّ وجل على كافرٍ نعمةٌ.

ونقل الطيبيُّ عن الإمام أنه قال: النعمةُ عبارةٌ عن المنفعة المفعولةِ على جهة الإحسان إلى الغير، ومنهم مَن يقول: المنفعةُ الحسنةُ المفعولةُ على جهة الإحسان

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢.

(٢) مفردات الراغب (سخر).

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٤.

إلى الغير، قالوا: وإنما زِدْنا قيدَ الحسنة لأنَّ النعمة يستحَقُّ بها الشكرُ، وإذا كانت قبيحةً لا يُستحقُّ بها الشكر، والحقُّ أنَّ هذا القيدَ غيرُ معتبرٍ؛ لأنه يجوز أن يُستَحقَّ الشكرُ بالإحسان وإن كان فعلُه محظوراً؛ لأنَّ جهة الشكر كونُه إحساناً وجهة استحقاق الذمِّ والعقاب الحظر، فأيُّ امتناعٍ في اجتماعهما؟ ألا ترى أنَّ الفاسق يستحقُّ الشكر لإنعامه والذمَّ لمعصية الله تعالى، فلمَ لا يجوزُ أن يكون الأمر ها هنا كذلك. أما قولُنا: المنفعةُ، فلأنَّ المضرَّة المحضَةَ لا تكون نعمةً، وقولُنا: المفعولةُ على جهة الإحسان؛ لأنه لو كان نفعاً وقَصَدَ الفاعل به نَفْعَ نفسِه لا نَفْعَ المفعولِ به لا يكونُ نعمةً، وذلك كمَن أَحْسَنَ إلى جاريته ليربح عليها[(١)]. اهـ، ويُعلم منه حكمُ زيادة: ويحمد عاقبته.

﴿ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: محسوسةً ومعقولةً، معروفةً لكم وغيرَ معروفةٍ.

وعن مجاهدٍ: النعمةُ الظاهرةُ ظهورُ الإسلام والنصرةُ على الأعداء، والباطنةُ الإمدادُ من الملائكة عليهم السلام.

وعن الضحاك: الظاهرةُ حُسْنُ الصورةِ وامتدادُ القامةِ وتسويةُ الأعضاء، والباطنةُ: المعرفة.

وقيل: الظاهرةُ البصرُ والسمعُ واللسانُ وسائرُ الجوارح، والباطنةُ: القلبُ والعقلُ والفهم.

وقيل: الظاهرةُ نعمُ الدنيا، والباطنة نعمُ الآخرة.

وقيل: الظاهرةُ: نحوُ إرسال الرسل، وإنزالِ الكتب، والتوفيقِ لقبول الإسلام، والإتيانِ به، والثبات على قدم الصدق، ولزومِ العبودية. والباطنةُ: ما أصاب الأرواح في عالم الذرِّ من رشاش نور النور، وأولُ الغيث قَطْرٌ ثم ينسكبُ.

ونقل بعض الإمامية عن الباقر ﷺ أنه قال: الظاهرةُ النبيُّ ﷺ وما جاء به من معرفة الله تعالى وتوحيده، والباطنةُ: ولايتُنا أهلَ البيت وعَقْدُ مودَّتنا[(٢)].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وتفسير الرازي ١/ ٢٥٨.
(٢) مجمع البيان ٢١/ ٦١.

والتعميمُ الذي أشرنا إليه أولاً أَوْلَى، لكنْ أخرج البهيقيُّ في «شعب الإيمان» عن عطاء قال: سألتُ ابنَ عباس ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: هذه من كنوز علمي، سألتُ رسول الله ﷺ قال: «أمّا الظاهرةُ فما سوَّى مِن خَلْقِكَ، وأما الباطنةُ فما سَتَر من عورتك، ولو أبداها لقَلَاكَ أهلُكَ فمَن سواهم»(١).

وفي روايةٍ أخرى رواها ابن مردويه والديلميُّ والبيهقيُّ وابن النجار عن ابن عباس أنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ إلخ قال: «أمَّا الظاهرةُ فالإسلامُ وما سوَّى مِن خَلْقِكَ وما أسبغ عليك من رزقه، وأما الباطنةُ فما سَتَر من مساوئ عملك»(٢).

فإنْ صحَّ ما ذُكر فلا يُعْدَلُ عنه إلى التعميم، إلَّا أنْ يقال: الغرضُ من تفسير الظاهرة والباطنة بما فسَّرنا به التمثيلُ، وهو الظاهرُ، لا التخصيصُ وإلَّا لتعارَضَ الخبران.

ثم إنَّ ظاهر هذين الخبرين يقتضي كونَ الذنب ـ وهو المعبَّرُ عنه في الأول بما ستر من العورة، وفي الثاني بما ستر من مساوئ العمل ـ نعمةً، ولم نرَ في كلامهم التصريحَ بإطلاقها عليه، ويلزمُه أنَّ مَن كثُرتْ ذنوبُه كثُرتْ نعم الله تعالى عليه، فكأنَّ المراد أنَّ النعمة الباطنة هي سترُ ما ستر من العورة ومساوئ العمل، ولم يقل كذلك اعتماداً على وضوح الأمر، وجاء في بعض الآثار ما يقتضي ذلك؛ أخرج ابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن مقاتل أنه قال في الآية: «ظاهرة» الإسلام و«باطنة» سترُه تعالى عليكم المعاصي(٣). بل جاء في بعض روايات الخبر الثاني:

---

(١) شعب الإيمان (٤٥٠٤) وهو من طريق محمد بن عبد الرحمن العرزمي، عن أبيه، عن جده ـ وهو عبد الملك بن سليمان ـ عن عطاء به.
ومحمد بن عبد الرحمن العرزمي قال الدارقطني: متروك الحديث هو وأبوه وجدُّه. الميزان ٣/ ٦٢٧.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦٧، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٧٥/ ٣١٨، وهو من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٦٧، وهو في الشعب (٤٥٠٣).

«وأما ما بطن فسترُ مساوئ عملك». وجوّز أن يكون «ما» في «ما ستر» في الخبرين مصدريةً، و«من» صلةُ «ستر» لا بيان لـ «ما».

وقرأ يحيى بن عمارة: «وأَصْبَغَ» بالصاد[١]، وهي لغةُ بني كلب يُبْدِلون من السين إذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغينِ والخاءِ والقافِ صاداً، فيقولون في سَلَخ: صَلَخ، وفي سَقَر: صَقَر، وفي سائغ: صائغ، ولا فرق في ذلك بين أن يَفْصِلَ بينهما فاصلٌ وأنْ لا يَفْصِلَ، وظاهرُ كلام بعضهم أنه لا فرقَ أيضاً بين أن تتقدَّم السينُ على أحد تلك الأحرف وأن تتأخَّر، واشترط آخر تقدُّم السين، وذكر الخفاجيُّ أنه إبدالٌ مطَّردٌ[٢].

وقرأ بعض السبعة وزيد بن علي ﷺ: «نعمةً» بالإفراد[٣]. وقرئ «نعمتَه» بالإفراد والإضافة[٤]، وَوُجِّهَ الإفراد بإرادة الجنس، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم: ٣٤]. وقال الزجَّاج: مَن قرأ «نعمةً» فعلى معنى ما أعطاهم من التوحيد، ومَن قرأ «نعمه» بالجمع فعلى جميع ما أنعم به عليهم[٥]. والأول أَوْلَى.

ونصب «ظاهرةً وباطنةً» في قراءة التعريف على الحالية وفي قراءة التنكير على الوصفية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ من الجدال، وهو المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالَبةِ، وأصلُه من جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمتُ فتلَه، كأنَّ المتجادلَيْنِ يفتلُ كلٌّ منهما صاحبه عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال الصراعُ وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة، وكأنَّ الجملة في موضع الحال من ضميره تعالى فيما قبلُ، أي: ألم تروا أنَّ الله سبحانه فَعَلَ ما فَعَلَ من الأمور الدالَّةِ على

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٨، والبحر ٧/ ١٩٠.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٩.
(٣) هي قراءة حمزة والكسائي وشعبة وابن كثير وابن عامر. التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٦-٣٤٧. وقرأ بها من العشرة يعقوب وخلف.
(٤) المحتسب ٢/ ١٦٨ عن يحيى بن عمارة.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٩.

وحدته سبحانه وقدرته عز وجل، والحالُ من الناس مَن ينازِعُ ويخاصِمُ كالنضر بن الحارث وأبيّ بن خلف، كانا يجادلان النبيَّ ﷺ.

﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيده عزَّ وجلَّ وصفاتِه جلَّ شأنُه، كالمشركين المنكرين وحدتَه سبحانه وعمومَ قدرته جلَّت قدرتُه، وشمولَها للبعث، ولم يقل: فيه، بدل «في الله» بإرجاع الضمير للاسم الجليل في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم) تهويلاً لأمر الجدال.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ من دليلٍ عقليٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجعٍ إلى رسولٍ مأخوذٍ منه. وجوِّز جَعْلُ الهدى نفسَ الرسول مبالغةً، وفيه بُعْدٌ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أنزله الله تعالى ﴿مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ أي: ذي نور، والمرادُ به: واضح الدلالة على المقصود. وقيل: منقذٍ من ظلمة الجهل والضلال، بل يجادلون بمجرَّد التقليد كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمن يجادل، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ يريدون عبادةَ ما عبدوه من دون الله عز وجل، وهذا ظاهرٌ في منع التقليد في أصول الدين، والمسألةُ خلافيةٌ، فالذي ذهب إليه الأكثرون ورجَّحه الإمام الرازي[1] والآمديِّ[2] أنه لا يجوزُ التقليد في الأصول، بل يجب النظرُ، والذي ذهب إليه عبيد الله بن الحسن العنبريُّ[3] وجماعةٌ الجوازُ، وربما قال بعضهم: إنه الواجبُ على المكلَّف، وإنَّ النظر في ذلك والاجتهادَ فيه حرامٌ، وعلى كلٍّ يصحُّ عقائدُ المقلِّد المحقِّ، وإن كان آثماً بترك النظر على الأول.

وعن الأشعريِّ: أنه لا يصحُّ إيمانه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: هذا مكذوبٌ عليه؛ لِمَا يلزمُه تكفيرُ العوامِّ، وهم غالبُ المؤمنين، والتحقيقُ أنه إن كان التقليدُ أخذاً لقول الغير بغيرِ حجةٍ، مع احتمالِ شكٍّ ووهمٍ بأنْ لا يجزمَ المقلِّد، فلا يكفي إيمانُه قطعاً لأنه لا إيمانَ مع أدنى تردُّدٍ فيه، وإن كان لكنْ جزماً فيكفي

(١) في المحصول ٦/ ٩١.
(٢) في الإحكام ٤/ ٢٣١.
(٣) القاضي، وثقه النسائي، وقال ابن حبان: من سادات أهل البصرة فقهاً وعلماً، وهو القائل: لَأَنْ أكونَ ذَنَباً في الحق أحبُّ إليَّ مِن أن أكون رأساً في الباطل، توفي سنة (١٦٨هـ). التهذيب ٣/ ٧.

عند الأشعريِّ وغيره، خلافاً لأبي هاشم في قوله: لا يكفي، بل لابدَّ لصحة الإيمان من النظر. وذكر الخفاجيُّ أنه لا خلافَ في امتناع تقليد مَن لم يعلم أنه مستنِدٌ إلى دليلٍ حقٍّ(١). وظاهرُ ذمِّ المجادِلين بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ أنه يكفي في النظر الدليلُ النقليُّ الحقُّ كما يكفي فيه الدليلُ العقلي.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: يدعو آباءهم لا أنفسَهم كما قيل، فإنَّ مدارَ إنكار الاستتباع كونُ المتبوعين تابعينَ للشياطين، وينادي عليه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] ويُعلم منه حالُ رجوعِ الضمير إلى المجموع، أي: أولئك المجادلين وآباءَهم.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ أي: إلى ما يؤولُ إليه أو يتسبَّبُ منه، من الإشراك وإنكارِ شمول قدرته عز وجل للبعث، ونحوِ ذلك من الضلالات، وجوَّز بقاءُ «عذاب السعير» على حقيقته.

والاستفهامُ للإنكار ويُفهَمُ التعجيب من السياق، أو للتعجيب ويُفهَمُ الإنكار من السياق. والواوُ حاليةٌ، والمعنى: أيتَّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم، أي: في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب. وجوَّز كونُ الواو عاطفةً على مقدَّرٍ، أي: أيتبعونهم لو لم يكن الشيطان يدعوهم إلى العذاب ولو كان يدعوهم إليه. وهما قولان مشهوران في الواو الداخلة على «لو» الوصلية ونحوِها.

وكذا في احتياجها إلى الجواب قولان: قولٌ بالاحتياج، وقولٌ بعدمه لانسلاخها عن معنى الشرط، ومَن ذهب إلى الأول قدَّره هنا: لا يتَّبعوهم، وهو ممَّا لا غبارَ عليه على تقدير كون الواو عاطفةً، وأمَّا على تقدير كونها حاليةً فزعم بعضُهم أنه لا يتسنَّى، وفيه نظر. وقد مرَّ الكلامُ على نحو هذه الآية الكريمة، فتذكَّر(٢).

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ فوَّضَ إليه تعالى جَميعَ أموره، وأقبل عليه

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٣٩.
(٢) ينظر ما سلف ٣/ ٨٧.

سبحانه بقلبه وقالبه، فالإسلامُ كالتسليم: التفويضُ، والوجهُ: الذاتُ، والكلامُ كنايةٌ عما أشرنا إليه من تسليم الأمور جميعها إليه تعالى، والإقبالِ التامِّ عليه عز وجل، وقد يعدَّى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلميُّ وعبد الله بن مسلم بن يسار: «يسلِّم» بتشديد اللام من التسليم(١)، وهو أشهر في معنى التفويض من الإسلام.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في أعماله، والجملةُ في موضع الحال.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تعلَّقَ أتمَّ تعلُّقٍ بأَوْثَقِ ما يتعلَّقُ به من الأسباب، وهذا تشبيهٌ تمثيليٌّ مركَّبٌ، حيث شبَّه حالُ المتوكِّل على الله عز وجل، المفوِّضِ إليه أمورَه كلَّها، المحسنِ في أعماله، بمن ترقَّى في جبلٍ شاهقٍ أو تدلَّى منه فتمسَّك بأَوْثَقِ عروةٍ من حبلٍ متينٍ مأمونٍ انقطاعُه. وجوِّز أن يكون هناك استعارةٌ في المفرد ـ وهو العروةُ الوثقى ـ بأن يشبَّه التوكُّل النافعُ المحمودُ عاقبتُه بها، فتستعارُ له.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هي صائرةٌ إليه عز وجل لا إلى غيره جلَّ جلالُه، فلا يكونُ لأحدٍ سواه جلَّ وعلا تصرُّفٌ فيها بأمرٍ ونهيٍ وثوابٍ وعقابٍ، فيجازي سبحانه هذا المتوكِّلَ أحسنَ الجزاء، وقيل: فيجازي كلّاً من هذا المتوكِّلِ وذاك المجادل بما يليقُ به بمقتضى الحكمة.

و«أل» في «الأمور» للاستغراق، وقيل: تحتمل العهدَ على أنَّ المراد: الأمور المذكورة من المجادلة وما بعدها.

وتقديمُ «إلى الله» للحصر ردّاً على الكفرة في زَعْمِهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور، واختار بعضُهم كونَه إجلالاً للجلالة ورعايةً للفاصلة ظنّاً منه أنَّ الاستغراق مُغْنٍ عن الحصر، وهو ليس كذلك.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: فلا يهمَّنَّك ذلك ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ رجوعُهم بالبعث يومَ القيامة ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أي: بعملهم، أو: بالذي عملوه في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٠.

وقيل: إلينا مرجعُهم في الدارين فنجازيهم بالإهلاك والتعذيب. والأولُ أظهرُ.

وأيًّاما كان فالجملةُ في موضع التعليل، كأنه قيل: لا يهمنَّك كُفْرُ مَن كَفَرَ لأنَّا ننتقمُ منه ونعاقبُه على عمله، أو: الذي عَمِلَه. والجمعُ في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى مَن كما أنَّ الإفراد في الأول باعتبار لَفْظِها.

وقرئ في السبع: «ولا يُحْزِنْكَ» مضارع أَحْزَنَ مزيد حَزِنَ اللازم[1]، وقدِّر اللزومُ ليكون للنقل فائدةٌ، وحَزَنَ وأَحْزَنَ لغتان؛ قال اليزيديُّ: حَزَنَه لغةُ قريش، وأَحْزَنَه لغةُ تميم، وقد قرئ بهما. وذكر الزمخشريُّ أنَّ المستفيض في الاستعمال ماضي الإفعالِ ومضارعُ الثلاثيِّ[2]، والعهدةُ في ذلك عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ تعليلٌ للتنبئة المعبَّرِ بها عن المجازاة، أي: يجازيهم سبحانه لأنه عزَّ وجلَّ عليمٌ بالضمائر، فما ظنُّك بغيرها؟

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً؛ فإنَّ ما يزولُ بالنسبة إلى ما يدوم قليلٌ ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ ثقيلٍ عليهم ثِقَلَ الأجرام الغِلَاظ، والمرادُ بالاضطرار ـ أي: الإلجاء ـ إلزامُهم ذلك العذابَ الشديد إلزامَ المضطرِّ الذي لا يقدر على الانفكاك ممَّا أُلجئَ إليه.

وفي «الانتصاف»: تفسيرُ هذا الاضطرارِ ما في الحديث من أنَّهم لشدةِ ما يكابدون من النار يطلبون البَرْدَ، فيرسَلُ عليهم الزمهريرُ، فيكون أشدَّ عليهم من اللهب، فيتمنَّوْنَ عودَ اللهب اضطراراً، فهو اختيارٌ عن اضطرارٍ، وبأذيال هذه البلاغة تعلَّق الكنديُّ حيث قال:

يرون الموت قدَّاماً وخلفاً ... فيختارون والموت اضطرارُ[3]

وقيل: المعنى: نضمُّ إلى الإحراق الضغطَ والتضييقَ، فلا تغفل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَهنَّ الله تعالى،

---

(١) هي قراءة نافع كما في التيسير ص٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٠.

(٣) الانتصاف ٣/ ٢٣٥-٢٣٦، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٢١١، وفيه: فيجتازون، بدل: فيختارون.

وجوّز أن يكون التقديرُ: اللهُ خلقهنَّ، والأولُ أولى كما فصِّل في محلِّه. وقولُهم ذلك لغايةِ وضوحِ الأمر بحيث اضطُرُّوا إلى الاعتراف به.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جلَّ شأنُه في العبادة التي لا يستحقُّها غيرُ الخالق والمنعمِ الحقيقي. وجوّز جَعْلُ المحمودِ عليه جَعْلَ دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابرُ أيضاً.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أن ذلك يلزمهم؛ قيل: وفيه إيغالٌ حسنٌ[1]، كأنه قال سبحانه: وإنَّ جهلهم انتهى إلى أنْ لا يعلموا أنَّ الحمد لله ما موقعه في هذا المقام، وقد مرَّ تمامُ الكلام في نظير الآية في «العنكبوت»[2]، فتذكَّر.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً ليس لأحدٍ سواه عزَّ وجل، استقلالاً ولا شركةً، فلا يستحقُّ العبادةَ فيهما غيرُه سبحانه وتعالى بوجهٍ من الوجوه، وهذا إبطالٌ لمعتقدهم من وجهٍ آخر؛ لأنَّ المملوك لا يكون شريكاً لمالكه، فكيف يستحقُّ ما هو حقُّه من العبادة وغيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلِّ شيءٍ ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ المستحقُّ للحَمْدِ وإن لم يحمده جلَّ وعلا أحدٌ، أو: المحمودُ بالفعل يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال. وكأنَّ الجملة جوابٌ عما يوشكُ أن يخطر ببعض الأذهان السقيمة من أنه: هل اختصاصُ ما في السماوات والأرض به عز وجل لحاجته سبحانه إليه؟ وهو جوابٌ بنفي الحاجة على أبلغ وجهٍ، فقد كان يكفي في الجواب: إن الله غنيٌّ، إلا أنه جيء بالجملة متضمِّنةً للحصر للمبالغة، وجيء بالحميد أيضاً تأكيداً لِمَا تُفيده من نفي الحاجة بالإشارة إلى أنه تعالى منعمٌ على مَن سواه سبحانه، أو متَّصفٌ بسائر صفات الكمال، فتأمَّل جدًّا.

---

(١) الإيغال: هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال لأنه يتم المعنى بدونه؛ إذ الرسول مهتد لا محالة، ولكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. الإتقان ٢/٨٦٩.

(٢) عند تفسير الآية (٦٣) منها.

وقال الطيبيُّ[١]: إنَّ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تهاوُنٌ بهم، وإبداءٌ أنه تعالى مستغْنٍ عنهم وعن حَمْدِهم وعبادتهم، ولذلك علَّل بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستحقُّ للحمد وإن لم يحمدوه عز وجل.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً، فـ «أنَّ» وما بعدها فاعلُ ثبت مقدَّر بقرينةِ كون «أنَّ» دالةً على الثبوت والتحقُّق، وإلى هذا ذهب المبرِّدُ[٢]، وقال سيبويه: إنَّ ذلك مبتدأٌ مستغنٍ عن الخبر؛ لذكر المسنَدِ والمسنَدِ إليه بعده[٣]. وقيل: مبتدأ خبرُه مقدَّرٌ قبله، وقال ابن عصفور: بعده.

و«ما في الأرض» اسم «أنَّ»، و«من شجرة» بيانٌ لـ «ما» أو للضمير العائدِ إليها في الظرف، فهو في موضع الحال منها أو منه، أي: ولو ثبت أنَّ الذي استقرَّ في الأرض كائناً من شجرةٍ، و«أقلام» خبرُ «أنَّ» قال أبو حيان[٤]: وفيه دليلٌ [على بطلان] دعوى الزمخشريِّ وبعضِ العجم ممن ينصُرُ قولَه أنَّ خبر «أنَّ» الجائيةِ بعد «لو» لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقّاً، بل يجب أن يكون فعلاً، وهو باطلٌ، ولسانُ العرب طافحٌ بخلافه، قال الشاعر:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مسومةً تدعو عُبيداً وأزْنَما[٥]

وقال آخر:

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) ينظر المقتضب ٣/ ٧٧-٧٨.

(٣) الكتاب ٣/ ١٣٩، وعبارته: و«لو» بمنزلة «لولا»، ولا تبتدأ بعدها الأسماء سوى «أنَّ»، نحو: لو أنك ذاهب.

(٤) في البحر ٧/ ١٩٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) البيت للعوام بن شوذب كما في المعاني الكبير ٢/ ٩٢٧، والنقائض ٢/ ٥٨٥، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٦٣. قال ابن قتيبة: أي: لو أن عصفورة طارت لحسبتها من جبنك خيلاً معلَّمة تدعو عبيداً وأزنم. وذكره ابن دريد في الجمهرة ٣/ ١٩ وقال: عبيد وأزنم بطنان من بني يربوع.

ما أطيبَ العيشَ لو أنَّ الفتى حجرٌ تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ(١)

إلى غير ذلك. وتعقّب بأنَّ اشتراط كونِ خبرها فعلاً إنما هو إذا كان مشتقّاً، فلا يَرِدُ «أقلام» هنا، ولا ما ذُكِر في البيتين، وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٠] فـ «لو» فيه للتمنّي والكلامُ في خبر «أنَّ» الواقعةِ بعد «لو» الشرطية.

والمراد بـ «شجرة»: كلُّ شجرة، والنكرةُ قد تعمُّ في الإثبات إذا اقتضى المقامُ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وقولِ ابن عباس رضي الله عنهما لبعض أهل الشام وقد سأله عن المُحْرِم إذا قتل جرادةً: أيتصدَّقُ بتمرةٍ فديةً لها؟: تَمرةٌ خيرٌ من جرادة، على ما اختاره جمعٌ، ولا نسلِّم المنافاةَ بين هذا العموم وهذه التاء. فكأنه قيل: ولو أنَّ كلَّ شجرةٍ في الأرض أقلامٌ.. إلخ، وكونُ كلِّ شجرةٍ أقلاماً باعتبارِ الأجزاء أو الأغصان، فيؤول المعنى إلى: لو أنَّ أجزاءَ أو أغصانَ كلِّ شجرةٍ في الأرض أقلامٌ.. إلخ.

ويُحسِّنُ إرادةَ العموم في نحو ما نحن فيه كونُ الكلام الذي وقعت فيه النكرةُ شرطاً بـ «لو»، وللشرط مطلقاً قُرْبٌ ما من النفي، فما ظنُّك به إذا كان شرطاً بها، وإن كانت هنا ليست بمعناها المشهورِ من انتفاء الجواب لانتفاء الشرط أو العكس، بل هي دالةٌ على ثبوتِ الجواب، أو حرفُ شرطٍ في المستقبل على ما فصّل في «المغني»(٢).

واختيار «شجرة» على أشجار أو شجر لأنَّ الكلام عليه أبعدُ عن اعتبار التوزيع ـ بأن تكون كلُّ شجرةٍ من الأشجار أو الشجر قلماً ـ المخلِّ بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه.

وفي «البحر» أنَّ هذا مما وقع فيه المفردُ موقعَ الجمع، والنكرةُ موقع المعرفة، ونظيرُه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩] وقول العرب: هذا

---

(١) البيت لتميم بن أبيّ بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٧٣، والخصائص ١/٣١٨، والمغني ص٣٥٦.

(٢) ص٣٤١-٣٤٤.

أولُ فارسٍ، وهذا أفضلُ عالـمٍ، يراد: من الآيات، و: من الرحمات، و: من الدواب، و: أولُ الفرسان، و: أفضل العلماء، ذُكِرَ المفردُ النكرةُ وأريدَ به معنى الجمع المعرَّف باللام، وهو مهيعٌ في كلام العرب معروفٌ، وكذلك يقدَّرُ هنا: من الشجرات، أو: من الأشجار(١). اهـ، فلا تغفل.

وقال الزمخشريُّ: إنه قال سبحانه: (شَجَرَةٍ) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجرٌ؛ لأنه أُريدَ تفصيلُ الشجر شجرةً شجرةً حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بُرِيَتْ أقلاماً(٢).

وتعقِّب بأنَّ إفادة المفرد التفصيلَ بدون تكرارٍ غيرُ معهودٍ، والمعهودُ إفادته ذلك بالتكرير، نحو: جاؤوني رجلاً رجلاً، فتأمل.

واختيارُ جمع القلة في «أقلام» مع أنَّ الأنسب للمقام جمعُ الكثرة؛ لأنه لم يُعهد للقلم جمعٌ سواه، وقِلَامٌ غيرُ متداوَلٍ، فلا يحسُنُ استعماله.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ أي: المحيط، فـ «أل» للعهد لأنه المتبادرُ، ولأنه الفردُ الكامل(٣)، إذ قد يُطْلَقُ على شُعَبِه وعلى الأنهار العظام كدجلة والفرات، وجوِّز إرادةُ الجنس، ولعل الأولَ أبلغُ.

﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نفادِه، وقيل: من ورائه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مفروضةٍ، كلٌّ منها مثلُه في السعة والإحاطة وكثرةِ الماء، والمراد بالسبعة الكثرةُ بحيث تشملُ المئةَ والألفَ مثلاً، لا خصوصُ العددِ المعروفِ، كما في قوله ﷺ: «المؤمنُ يأكلُ في معًى واحدٍ، والكافرُ يأكل في سبعة أمعاءٍ»(٤) واختيرتْ لها لأنها عددٌ تامٌّ كما عرفْتَ عند الكلام في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦] وكثيرٌ من المعدودات التي لها شأنٌ كالسماوات والكواكب السيارة والأقاليم الحقيقية وأيامِ الأسبوع إلى غير ذلك منحصرٌ في سبع، فلعل في ذكرها هنا دون

---

(١) البحر ٧/ ١٩٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٦.
(٣) في (م): للكامل، وهو تصحيف.
(٤) أخرجه أحمد (٤٧١٨)، والبخاري (٥٣٩٤)، ومسلم (٢٠٦٠) من حديث ابن عمر ﵄.

سبعين ـ المتجوَّزِ به عن الكثرة أيضاً ـ رمزاً إلى شأن كون تلك الأبحر عظيمةً ذاتَ شأنٍ، ولمَّا لم تكن موضوعةً في الأصل لذلك، بل للعدد المعروفِ القليلِ جاء تمييزُها «أبحر» بلفظ القلَّةِ دون بحور ـ وإن كان لا يراد به إلا الكثرةُ ـ ليناسبَ بين اللفظين، فكما تجوِّز في السبعة واستُعملت للتكثير، تجوِّز في «أبحر» واستُعمل فيه أيضاً.

وكان الظاهرُ بعد جَعْلِ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً أن يقال: والبحرُ مدادٌ، لكنْ جيء بما في النظم الجليل لأنَّ «يمده» يغني عن ذكر المداد؛ لأنه من قولك: مَدَّ الدواةَ وأمدَّها، أي: جعلها ذاتَ مدادٍ وزاد في مدادها، ففيه دلالةٌ على المداد مع ما يزيد في المبالغة، وهو تصويرُ الإمداد المستمرِّ حالاً بعد حالٍ كما تُؤْذِنُ به صيغةُ المضارع، فأفاد النظمُ الجليلُ جَعْلَ البحر المحيط بمنزلةِ الدواة، وجَعْلَ أبحرٍ سبعةٍ مثلَه مملوءةً مداداً، فهي تصبُّ فيه مدادَها أبداً صبّاً لا ينقطع.

ورُفع «البحر» ـ على ما استظهره أبو حيان فيه[1] ـ على الابتداء، وجملةُ يمدُّه خبرُه، والواوُ للحال، والجملةُ حالٌ من الموصول أو الضميرِ الذي في صلته، أي: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً في حال كون البحر ممدوداً بسبعةِ أبحر، ولا يضرُّ خلوُّ الجملة عن ضمير ذي الحال، فإنَّ الواو يحصلُ بها من الربط ما لا يتقاعد عن الضمير؛ لدلالتها على المقارنة.

وأشار الزمخشريُّ[2] إلى أنَّ هذه الجملةَ وما أشبهها كقوله:

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها ... بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ[3]

و: جئتُ والجيشُ مصطفٌّ، من الأحوال التي حُكْمُها حكمُ الظروف لأنها في معناها؛ إذ معنى: جئتُ والجيشُ مصطفٌّ، مثلاً، ومعنى: جئتُ وقتَ اصطفافِ الجيش، واحدٌ، وحيث إنَّ الظرف يربطه بما قبله تعلُّقُه به وإن لم يكن فيه ضميرٌ وهو إذا وقع حالاً استقرَّ فيه الضمير، فما يشبِهُه كأنه فيه ضميرٌ مستقرٌّ.

---

(١) أي: في البحر ٧/ ١٩١.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٣٦.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو من ديوانه ص١٩. قوله: بمنجردٍ، هو الفرس القصير الشعر. والأوابد: الوحش. والهيكل: الفرس الضخم. قاله شارح الديوان.

ولا يَرِدُ عليه اعتراضُ أبي حيان(١) بأنَّ الظرف إذا وقع حالاً ففي العامل فيه ضميرٌ ينتقل إلى الظرف، والجملةُ الاسمية إذا كانت حالاً بالواو فليس فيها ضميرٌ منتقل، فكيف يقال إنها في حكم الظرف؟ نعم الحقُّ أنَّ الربط بالواو كافٍ عن الضمير، ولا يحتاجُ معه إلى تكلُّف هذه المؤونة.

وجوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من «الأرض»، والعاملُ فيه معنى الاستقرار، والرابطُ ما سمعتَ، أو «أل» التي في «البحر» بناءً على رأي الكوفيين من جواز كونِ «أل» عوضاً عن الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] أي: ولو ثبت كونُ الذي استقرَّ في الأرض من شجرةٍ أقلاماً حالَ كونِ بحرِها ممدوداً بسبعةِ أبحرٍ.

قال في «الكشف»: ولا بدَّ أن يُجعل «من شجرة» بياناً للضمير العائد إلى «ما» لئلَّا يلزَم الفصلُ بين أجزاء الصلة بالأجنبي، و«البحر» على تقديرِ جَعْلِ «أل» فيه عوضاً عن المضاف إليه العائدِ إلى «الأرض» يحتملُ أن يراد به المعهود وأن يراد به غيره.

وقال الطيبيُّ: إنَّ «البحر» على ذلك يعمُّ جميعَ الأبحُرِ؛ لقرينة الإضافة، ويفيدُ أنَّ السبعة خارجةٌ عن بحر الأرض، وعلى ما سواه يحتملُ الحصةَ المعهودة المعلومةَ عند المخاطب(٢).

ورُدَّ بأنه لا فَرْقَ بينهما، بل كونُ بحرها للعهد أظهرُ؛ لأنَّ العهد أصل الإضافة، ولا ينافيه كونُ الأرض شاملةً لجميع الأقطار؛ لأنَّ المعهود البحرُ المحيطُ وهو محيطٌ بها كلِّها.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَ رَفْعِه بالعطف على محلِّ «أنَّ» ومعمولها، وجملة «يمدُّه» حالٌ، على تقدير: لو ثبت كونُ ما في الأرض من شجرة أقلاماً وثبت البحرُ ممدوداً بسبعةِ أبحر(٣).

---

(١) في البحر ٧/ ١٩١-١٩٢.

(٢) بنحوه في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٦.

وتعقِّب بأنَّ الدالَّ على الفعل المحذوفِ هو «أنَّ» وخبرُه على ما قرِّر في بابه، فإذَنْ لا يمكن إفضاءُ المحذوف إلى المعطوف دون ملاحظةِ دالٍّ، وفي هذا العطف إخراجٌ عن الملاحظة.

وأجيبَ بأنه يُحتَمَلُ في التابع ما لا يُحتَمَلُ في المتبوع، ثم لا يخفى أنَّ العطف على هذا من عَطْفِ المفردِ على المفرد، لا المفردِ على الجملة كما قيل، إذ الظاهرُ أنَّ المعطوف عليه إنما هو المصدرُ الواقعُ فاعلاً لـ «ثَبَتَ» وهو مفردٌ لا جملة.

وجوِّز أن يكون العطفُ على ذلك أيضاً بناءً على رأي مَن يجعلُه مبتدأً.

وتعقِّب بأنه يلزمُ أن يلي «لو» الاسمُ الصريحُ الواقعُ مبتدأً؛ إذ يصير التقدير: ولو البحرُ، وذلك على ما قال أبو حيان[1] لا يجوز إلا في ضرورةِ شعرٍ، نحو قوله:

لو بغيرِ الماء حَلْقي شَرِق كنتُ كالغصَّانِ بالماء اعتصاري[2]

وأجيبَ بأنه يُغتَفَرُ في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع، كما في نحو: ربَّ رجلٍ وأخيه يقولان ذلك.

وقال بعضهم: إنه يلزم على العطف السابق أن يلي «لو» الاسمُ الصريحُ، وهو أيضاً مخصوصٌ بالضرورة. وأجاب بما أُجيب، وفيه عندي تأمُّلٌ.

وجوِّز كونُ الرفع على الابتداء، وجملةُ «يمدُّه» خبر المبتدأ، والواوُ واوُ المعية، وجملة المبتدأ وخبرِه في موضع المفعول معه، بناءً على أنه يكونُ جملةً كما نُقل عن ابن هشام[3]، ولا يخفى بعدُه.

وجوز كونُ الواو على ذلك للاستئناف، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما المداد حينئذ؟ فقيل: «والبحر» إلخ.

---

(١) في البحر ٧/ ١٩١.

(٢) البيت لعدي بن زيد، وسلف ١٢/ ٣٦٦. وجاء في حاشية (م): الاعتصار بالماء أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيغ ما غصَّ به من الطعام. اهـ منه.

(٣) في المغني ص٦٠٦.

وتعقّب بأنّ اقتران الجواب بالواو وإن كانت استئنافيةً غيرُ معهود، وما قيل: إنه يقترن بها إذا كان جواباً للسؤال على وجه المناقشة لا للاستعلام، مما لا يُعتمد عليه، ومن هنا قيل: الظاهرُ على إرادة الاستئناف أن يكون نحوياً.

وجوّز في هذا التركيب غيرُ ما ذكر من أوجُهِ الإعراب أيضاً.

وقرأ البصريان: «والبحرَ» بالنصب[1] على أنه معطوفٌ على اسم «أنَّ» و«يمدُّه» خبرٌ له، أي: ولو أنَّ البحر ممدودٌ بسبعة أبحر.

قال ابن الحاجب في «أماليه»: ولا يستقيمُ أن يكون «يمده» حالاً؛ لأنه يؤدِّي إلى تقييد المبتدأ الجامد بالحال، ولا يجوز؛ لأنها لبيان الفاعل أو المفعول، والمبتدأ ليس كذلك، ويؤدِّي أيضاً إلى كون المبتدأ لا خبر له، ولا يستقيم أن يكون «أقلام» خبراً له؛ لأنه خبر الأول. اهـ، ولم يَذكُر احتمالَ تقدير الخبر لظهور أنه خلافُ الظاهر.

وجوّز أن يكون منصوباً عل شريطة التفسير عطفاً على الفعل المحذوف، أعني ثبت، ودخولُ «لو» على المضارع جائز، وجملة «يمدُّه» إلخ حينئذٍ لا محلَّ لها من الإعراب.

وقرأ عبد الله: «وبحرٌ» بالتنكير والرفع[2]، وخرَّج ذلك ابن جنِّي على أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ، أي: هناك بحرٌ يمدُّه.. إلخ، والواوُ واوُ الحال لا محالةَ، ولا يجوز أن يعطف على «أقلام» لأنَّ البحر وما فيه ليس من حديث الشجر والأقلام، وإنما هو من حديث المداد[3].

وفي «البحر»: أن الواو على هذه القراءة للحال أو للعطف على ما تقدَّم، وإذا كانت للحال كان «بحر» مبتدأً، وسوَّغ الابتداءَ به مع كونه نكرةً تقدُّمُ تلك الواو، فقد عُدَّ من مسوِّغات الابتداء بالنكرة، كما في قوله:

---

(١) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧.
(٢) المحتسب ٢/ ١٦٩، والبحر ٧/ ١٩١.
(٣) المحتسب ٢/ ١٦٩.

سَرَيْنا ونجمٌ قد أضاء فمذ بدا محيَّاكَ أخفى ضوؤه كلَّ شارقِ[١]

اهـ. ولا يَخْفَى أنه إذا عُطف على فاعل «ثبت» فجملةُ «يمده» في موضع الصفة له لا حالٌ منه، وجوَّز ذلك مَن جوَّز مجيءَ الحال من النكرة. والظاهرُ على تقدير كونه مبتدأً جَعْلُ الجملة خبرَه، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ خبره محذوفاً كما فعل ابن جنِّي.

وقرأ ابن مسعود وأبيٌّ: «تَمدُّه» بتاء التأنيث من مدَّ كالذي في قراءة الجمهور[٢]. وقرأ ابن مسعود أيضاً والحسنُ وابن مصرِّفٍ وابن هرمز: «يُمِدُّه» بضم الياء التحتية من الإمداد[٣]. قال ابن الشيخ: يَمُدُّ بفتحٍ فضمٍّ ويُمِدُّ بضمٍّ فكَسْرٍ لغتان بمعنًى. وقرأ جعفر بن محمد رضي الله عنهما: «والبحر مدادُه»[٤] أي: ما يُكتب به من الحبر، وقال ابن عطية: هو مصدر[٥].

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جواب «لو»، وفي الكلام اختصارٌ يسمَّى حَذْفَ إيجازٍ، ويدلُّ على المحذوف السياقُ، والتقدير: ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ ممدودٌ بسبعةِ أبحُرٍ وكتبتْ بتلك الأقلامِ وبذلك المدادِ كلماتُ الله تعالى ما نَفِدَتْ لعَدَم تناهيها ونَفَدَ تلك الأقلامُ والمدادُ لتناهيها، ونظير ذلك في الاشتمال على إيجاز الحذف قولُه تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦] أي: فحلَقَ رأسَه لدَفْعِ ما به من الأذى ففديةٌ.

والمراد بكلماته تعالى كلماتُ عِلْمِه سبحانه وحكمتِه جلَّ شأنه، وهو الذي يقتضيه سببُ النزول على ما أخرج ابنُ جريرٍ[٦] عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ﷺ عن الروح، فأنزل سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى

(١) البحر ٧/ ١٩١، والبيت سلف ٥/ ٦٩.
(٢) البحر ٧/ ١٩١ عن ابن مسعود وابن عباس، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٧ عن بعضهم.
(٣) المحتسب ٢/ ١٦٩، والبحر ٧/ ١٩١.
(٤) المحتسب ٢/ ١٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والبحر ٧/ ١٩١.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.
(٦) في تفسيره ١٨/ ٥٧٣.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فقالوا: تزعم[١] أنَّا لم نُؤتَ من العلم إلَّا قليلاً وقد أُوتينا التوراةَ وهي الحكمةُ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فنزلت: (وَلَوْ أَنَّمَا) إلخ. وظاهر هذا أنَّ اليهود قالوا ذلك له عليه الصلاة والسلام مشافهةً، وهو ظاهرٌ في أنَّ الآية مدنيةٌ.

وقيل: إنهم أمروا وفدَ قريشٍ أن يقولوا له ﷺ ذلك، وهذا القائلُ يقول: إنها مكية.

وحاصل الجواب أنه: وإنْ كان ما أُوتيتُموه خيراً كثيراً لكونه حكمةً إلا أنه قليلٌ بالنسبة إلى حكمته عز وجل.

وفي روايةٍ أنه نزل بمكة قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ) إلخ، فلمَّا هاجر عليه الصلاة والسلام أتاه أحبارُ اليهود فقالوا: بلغنا أنك تقول: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أفعنيتَنا أم قومك؟ فقال ﷺ: «كلاًّ عَنَيْتُ» فقالوا: ألستَ تتلو فيما جاءك أنَّا أوتينا التوراة وفيها علمُ كلِّ شيء؟ فقال عليه الصلاةُ والتحيةُ: «هي في عِلْم الله تعالى قليلٌ، وقد أتاكم ما إنْ عَمِلْتُم به نَجَوْتُم» قالوا: يا محمد، كيف تزعُم هذا وأنت تقول: (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) فكيف يجتمع؟ فقال ﷺ: «هذا علمٌ قليلٌ وخيرٌ كثيرٌ»، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢]. وهذا نصٌّ في أنَّ الآية مدنية.

وقيل: المرادُ بها مقدوراتُه جل وعلا وعجائبُه عزَّ وجلَّ التي إذا أراد سبحانه شيئاً منها قال تبارك وتعالى له: (كُن فَيَكُونُ)، ومن ذلك قولُه تعالى في عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وإطلاقُ الكلمات على ما ذكر من إطلاق السبب على المسبَّب، وعلى هذا وجهُ ربط الآية بما قبلها أظهرُ على ما قيل، وهو أنه سبحانه لمَّا قال: (لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وكان موهِماً لتناهي ملكه جلَّ جلالُه، أَرْدَفَ سبحانه ذلك بما هو ظاهرٌ بعدم التناهي. وهذا ما اختاره الإمام في المراد بكلماته تعالى[٣]، إلا أنَّ في انطباقه على سبب النزول خفاءً.

---

(١) جاء في حاشية (م): قوله: فقالوا: تزعم، عن ابن جريج أن القائل حيي بن أخطب. اهـ منه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٧٢-٥٧٣، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ٢٥/ ١٥٦-١٥٧.

وعن أبي مسلم: المرادُ بها ما وَعَدَ سبحانه به أهلَ طاعته من الثواب، وما أَوْعَدَ جلَّ شأنُه به أهلَ معصيته من العقاب، وكأنَّ الآية عليه بيانٌ لأكثرية ما لم يظهر بعدُ من ملكه تعالى بعدَ بيانِ كثرة ما ظهر.

وقيل: المرادُ بها ما هو المتبادرُ منها، بناءً على ما أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن قتادة قال: قال المشركون: إنما هذا كلامٌ يوشك أن ينفد، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية[1]. وفي وجهِ رَبْطِ الآية عليه بما قبلها وكذا بما بعدها خفاءٌ جدّاً، إلا أنه لا يقتضي كونَها مدنيةً.

وإيثارُ الجمع المؤنَّث السالم بناءً على أنه كجمع المذكَّر جمعُ قلَّة؛ لإشعاره ـ وإن اقترن بما قد يفيدُ معه الاستغراق والعمومَ من «أل» أو الإضافة نظراً لأصل وَضْعِه وهو القلَّة ـ بأنَّ ذلك لا يفي بالقليل، فكيف بالكثير؟

وقرأ الحسن: «ما نَفِدَ» بغير تاءٍ «كلامُ الله» بدل «كلمات الله»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعْجِزُه جلَّ شأنه شيءٌ ﴿حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ لا يخرج عن علمه تعالى وحكمتِه سبحانه شيءٌ، والجملةُ تعليلٌ لعدم نفادِ كلماته تبارك وتعالى.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلا كخَلْقِها وبَعْثِها في سهولةِ التأتّي بالنسبة إليه عزَّ وجلَّ؛ إذ لا يشغله تعالى شأنٌ عن شأنٍ؛ لأنَّ مناط وجود الكلِّ تعلُّقُ إرادته تعالى الواجبة أو قولُه جلَّ وعلا: «كن» مع قدرته سبحانه الذاتية وإمكان المتعلق، ولا توقُّفَ لذلك على آلةٍ ومباشَرةٍ تقتضي التعاقُبَ ليختلف عنده تعالى الواحدُ والكثيرُ كما يختلفُ ذلك عند العباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ كلَّ مسموعٍ ﴿بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ يبصرُ كلَّ مُبصَرٍ في حالةٍ واحدةٍ لا يشغلُه إدراكُ بعضها عن إدراك بعضٍ، فكذا الخلقُ والبعثُ، وحاصله: كما أنه تعالى شأنُه ببصرٍ واحدٍ يدرك سبحانه المبصَراتِ وبسَمْعٍ واحدٍ يسمعُ جلَّ وعلا المسموعات ولا يشغلُه بعضُ ذلك عن بعضٍ، كذلك فيما يرجع إلى القدرة

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٧٢، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٨.

(٢) البحر ٧/ ١٩٢.

والفعل، فهو استشهادٌ بما سلَّموه، فشبَّه المقدورات فيما يراد منها بالمدرَكات فيما يُدْرَكُ منها، كذا في «الكشف».

واستشكل كونُ ذلك مسلَّماً بأنه قد كان بعضُهم إذا طعنوا في الدين يقول: أسرُّوا قولكم لئلَّا يسمع إلهُ محمد ﷺ. فنزل: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وأجيبَ بأنه لا اعتداد بمثله من الحماقة بعد ما رُدَّ عليهم ما زعموا وأُعْلِموا بما أَسرُّوا.

وقيل: إنَّ الجملة تعليلٌ لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع، وأنَّ شيئاً من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره؛ لعِلْمِه تعالى بتفاصيلها وجزئياتها فيتصرَّفُ فيها كما يشاء، كما يقال: فلانٌ يجيدُ عَمَلَ كذا لمعرفته بدقائقه ومتمِّماته. والمقصودُ من إيراد الوصفين إثباتُ الحشر والنشر لأنهما عمدتان فيه، ألا ترى كيف عقَّب ذلك بما يدلُّ على عظيم القدرة وشمول العلم؟

وأيّاً ما كان يندفعُ توهُّمُ أنَّ المناسب لِمَا قبلُ أن يقال: إنَّ الله قويٌّ قديرٌ، أو نحوُ ذلك، دون ما ذُكر؛ لأنَّ الخَلْقَ والبعث ليسا من المسموعات والمبصَرات.

وعن مقاتلٍ أنَّ كفار قريش قالوا: إنَّ الله تعالى خَلَقَنا أطواراً؛ نطفةً علقةً مضغةً لحماً، فكيف يبعثُنا خلقاً جديداً في ساعةٍ واحدة؟ فنزلت.

وذكر النقَّاش أنها نزلت في أبيّ بن خلف وأبي الأسود ونبيهٍ ومنبهٍ ابني الحجاج، وذَكر في سبب نزولها فيهم نحوَ ما ذُكر، وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى: إنه تعالى سميعٌ بقولهم ذلك بصيرٌ بما يُضْمِرونه، وهو كما ترى.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: خطابٌ لسيد المخاطبين ﷺ. وقيل: عامٌّ لكلِّ مَن يَصْلُحُ للخطاب، وهو الأوفَقُ لِمَا سبق وما لَحِقَ، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدْخِلُ كلَّ واحدٍ منها في الآخر ويضيفُه سبحانه إليه، فيتفاوتُ بذلك حالُه زيادةً ونقصاناً. وعَدَلَ عن: يولجُ أحدَ المَلَوَيْنِ[١] في

(١) الملوان: الليل والنهار. القاموس (ملو).

الآخر، مع أنه أخصرُ؛ للدلالة على استقلال كلٍّ منهما في الدلالة على كمال القدرة.

وقدَّم الليل على النهار لمناسبته لعالَم الإمكان المظلم من حيث إمكانُه الذاتي، وفي بعض الآثار: «كان العالَم في ظلمةٍ فرشَّ الله تعالى عليهم من نوره»[(١)]. وهذا الإيلاجُ إنما هو في هذا العالَم، ليس عند ربِّك صباحٌ ولا مساءٌ.

وقدَّم الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مع تقديم الليل الذي فيه سلطانُ القمر على النهارِ الذي فيه سلطانُ الشمس لأنها كالمبدأ للقمر، ولأنَّ تسخيرها لغايةِ عظمها أعظمُ من تسخير القمر، وأيضاً آثارُ ذلك التسخير أعظمُ من آثار تسخيره.

وقال الإمامُ في تعليل تقديم كلٍّ على ما قدِّم عليه: لأنَّ الأنفس تطلب سببَ المقدَّم أكثر مما تطلب سببَ المؤخَّر، وبيَّن ذلك بما بيَّن[(٢)]. ولعل ما ذكرناه أولى، لا سيما إذا صحَّ أنَّ نور القمر مستفادٌ من ضياء الشمس.

وعطف قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيُولِجُ﴾ والاختلافُ بينهما صيغةً لِمَا أنَّ إيلاجَ أحدِ المَلَويْنِ في الآخر متجدِّدٌ في كلِّ حينٍ، وأمَّا التسخيرُ فأمرٌ لا تعدُّدَ فيه ولا تجدُّدَ، وإنَّما التعدُّدُ والتجدُّدُ في آثاره كما يشير إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِىٓ﴾ يسير سيراً سريعاً مستمرّاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي: منتهًى للجَرْي ﴿مُّسَمًّى﴾ سمَّاه الله تعالى وقدَّره لذلك، وهو كما قال الحسن: يوم القيامة، فإنه لا ينقطعُ جَرْيُ النيِّرين وتبطلُ حركتُهما إلا في ذلك اليوم.

والظاهرُ أنَّ هذا الجريَ هو هذه الحركةُ التي يشاهدها كلُّ ذي بصرٍ من أهل المعمورة، وهي عند الفلاسفة بواسطةِ الفلك الأعظم فإنَّ حركته كذلك، وبها حركةُ

---

(١) سلف ١/٤٦٧ و٢٠/٢٤٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/١٦٠ وفيه: أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار، وكذلك فإن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيباً.

سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب، وتسمَّى: حركةَ الكلِّ، والحركةَ اليومية، والحركةَ السريعة، والحركةَ الأولى، والحركة على خلاف التوالي، والحركة الشرقية، وبعضُهم يسمِّيها الحركة الغربية.

وقيل: ما يعمُّ هذه الحركةَ وحركتَهما الخاصةَ بهما، وهي حركتُهما بواسطة فلكيهما على التوالي من المغرب إلى المشرق، وهي للقمر أسرعُ منها للشمس، وليس في العقل الصريح والنقلِ الصحيح ما يأبى إثباتَ هاتين الحركتين لكلٍّ من النيِّرين كما لا يخفى على المنصف العارف، ومنتهى هذا الجري العامِّ لهاتين الحركتين يومُ القيامة أيضاً.

والجملةُ على تقدير عموم الخطاب اعتراضٌ بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به ﷺ يجوزُ أن تكون حالاً من الشمس والقمر؛ فإن جَرْيَهما إلى يوم القيامة من جملة ما في حيِّز رؤيته ﷺ.

وقيل: جَرْيُهما عبارةٌ عن حركتهما الخاصةِ بهما، والأجلُ المسمَّى لجري الشمس آخِرُ السنة المسمَّاة بالسنة الشمسية الحقيقية، وهي زمانُ مفارقة الشمس أيَّةَ نقطةٍ تُفْرَضُ من فَلَكِ البروج إلى عَوْدِها إليها بحركتها الخاصةِ، وجَعَلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل، ومدتُها عند بعضٍ ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً بليلته وربعُ يومٍ كذلك، وعند بطليموس ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً بليلته وخمسُ ساعاتٍ وخمسةٌ وخمسون دقيقةً واثنتا عشرة ثانيةً، وعند بعض المتأخِّرين ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً وخمسُ ساعاتٍ وستٌّ وأربعون دقيقةً وأربعٌ وعشرون ثانيةً. وعند الحكيم محيي الدِّين الكَسْرُ الزائد خمسُ ساعات ودقيقةٌ، وبالرصد الجديد الذي تولاه الطوسيُّ بمراغة: خمسُ ساعاتٍ وتسعٌ وأربعون دقيقةً، ووُجِدَ برصدِ سمرقند أزيدَ من هذا بربع دقيقة.

وأما الاصطلاحيةُ فاعتبرها بعضٌ كالروم والأقدمين من الفرس ثلاثَ مئةٍ وخمسةً وستين[1] يوماً بليلته وربعَ يومٍ كذلك، وأخذ الكسر ربعاً تامًّا إلَّا أنَّ الروم يجعلون ثلاثَ سنين ثلاثَ مئةٍ وخمسةً وستِّين، ويكبسون في الرابعة بيومٍ، والفرس

(١) في (م): وستون.

كانوا يكبسون في مئةٍ وعشرين سنةً بشهر. واعتبرها بعضٌ آخَرُ كالقِبْطِ والمستعمِلين لتاريخ الفرس من المحدَثين ثلاثَ مئةٍ وستِّين يوماً بليلته، وأَسْقَطَ الكسر رأساً.

ولجري[١] القمر آخرُ الشهر القمريِّ الحقيقيِّ، وهو زمانُ مفارقةِ القمرِ أيَّ وضعٍ يَعْرِضُ له من الشمس إلى عوده إليه، وجَعَلوا ابتداءَه من اجتماع الشمس والقمر، وزمان ما بين الاجتماعين المتتاليين كـ «ط لا ن» من الأيام ودقائقها وثوانيها تقريباً. وأمَّا الشهر الغيرُ الحقيقيِّ فالمعتبرُ فيه الهلالُ، ويختلف زمانُ ما بين الهلالين كما هو معروفٌ.

قيل: وعلى هذا فالجملةُ بيانٌ لحُكْمِ تسخيرهما، أو تنبيهٌ على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر، وكونِ ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية، فكلَّما كان جريانُها متوجِّهاً إلى سمت الرأس تزداد القوسُ التي فوق الأرض كبراً، فيزدادُ النهارُ طولاً بانضمام بعض أجزاء الليل إليه، إلى أن يبلُغَ المدارَ الذي هو أقربُ المدارات إلى سمت الرأس، وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان، ثم ترجعُ متوجِّهةً إلى التباعُد عن سمت الرأس، فلا تزال القسيُّ التي فوق الأرض تزداد صغراً فيزدادُ النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعدُ المدارات اليومية عن سمت الرأس، وذلك عند بلوغها رأسَ الجدي[٢].

وأنت تعلم أنه لا مدخل لجريان القمر في الإيلاج، فالتعرُّض له في الآية الكريمة يُبْعِدُ هذا الوجه، ولعل الأظهر على تقديرِ جَعْلِ جَرْيِهما عبارةً عن حركتهما الخاصَّةِ بهما أنْ يُجعل الأجلُ المسمَّى عبارةً عن يوم القيامة، أو يُجْعَلَ عبارةً عن آخِرِ السنة والشهرِ المعروفَيْنِ عند العرب، فتأمَّل.

وجَرَى يتعدَّى بإلى تارةً وباللام أخرى، وتعديتُه بالأول باعتبارِ كونِ المجرور غايةً، وبالثاني باعتبارِ كونه غرضاً، فتكون اللامُ لامَ تعليلٍ أو عاقبةٍ، وجَعَلَها الزمخشريُّ للاختصاص[٣]، ولكلٍّ وجهٌ. ولم يظهر لي وجهُ اختصاص هذا المقام

---

(١) معطوف على «الجري» في قوله: والأجل المسمَّى لجري الشمس. . .
(٢) في تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦ (والكلام منه): برج الجدي، بدل: رأس الجدي.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

بإلى وغيره باللام. وقال النيسابوريُّ: وَجْهُ ذلك أنَّ هذه الآيةَ صدِّرَتْ بالتعجيب فناسَبَ التطويل[١]، وهو كما ترى فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ عطفٌ على قوله: (أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ) إلخ داخلٌ معه في حيِّز الرؤية على تقديرَيْ خصوص الخطاب وعمومِه، فإنَّ مَن شاهَدَ مثلَ ذلك الصُّنْع الرائق والتدبيرِ اللائق لا يكاد يغفلُ عن كون صانعه عزَّ وجلَّ محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها.

وقرأ عياش عن أبي عمرو: «بما يعملون» بياء الغيبة[٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنَتْه الآياتُ وأشارت إليه من سعة العلم، وكمالِ القدرة، واختصاصِ الباري تعالى شأنُه بها.

﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: بسبب أنه سبحانه وحده الثابتُ المتحقِّقُ في ذاته، أي: الواجب الوجود.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلهاً ﴿الْبَاطِلُ﴾ المعدومُ في حدِّ ذاته، وهو الممكنُ الذي لا يوجدُ إلا بغيره، وهو الواجبُ تعالى شأنُه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على الأشياء ﴿الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ عن أن يكون له سبحانه شريكٌ، أو يتَّصفَ جل وعلا بنقصٍ، لا شيءَ[٣] أعلى منه ـ تعالى شأنُه ـ شأناً وأكبرَ سلطاناً.

ووجهُ سببية الأول لِمَا ذُكر: أنَّ كونه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاته يستلزمُ أن يكون هو سبحانه وحده الموجِدَ لسائر المصنوعات البديعة الشأنِ، فيدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ وحده، والإيجابُ قد أبطل في الأصول، ومَن صَدَرتْ عنه جميعُ هاتيك المصنوعات لا بدَّ من أن يكون كاملَ العلم على ما بيِّن في الكلام.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ٢١/٥٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/١٩٣.
(٣) في (م): بشيء.

ووجهُ سببية الثالث لذلك أنَّ كونه تعالى وحده عليّاً على جميع الأشياء، متسلِّطاً عليها، متنزِّهاً عن أن يكون له سبحانه شريكٌ أو يتَّصفَ بنقصٍ عزَّ وجلَّ، يستلزمُ كونَه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاته، وقد سمعتَ الكلام فيه.

وأمَّا وجهُ سببيةِ كونِ ما يدعونه من دونه إلهاً باطلاً ممكِناً في ذاته لذلك، فهو أنَّ إمكانه ـ على علوِّ شأنه عندهم على ما عَدَاه ممَّا لم يعتقدوا إلهيته ـ يستلزمُ إمكانَ غيره ممَّا سوى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ ما فيه ممَّا يدلُّ على إمكانه موجودٌ في ذلك حَذْوَ القذَّةِ بالقذَّة؛ ومتى كان ما يدعونه إلهاً من دونه تعالى وغيرِه ممَّا سوى الله سبحانه وتعالى ممكناً، انحصر وجوبُ الوجود في الله تعالى، فيكون جلَّ وعلا وحده واجبَ الوجود في ذاته، وقد علمتَ إفادته للمطلوب، وكأنه إنما قيل: «أنَّ ما يدعون من دونه الباطلُ» دون: أنَّ ما سواه الباطلُ مثلاً، نظير قول لبيد:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ(١)

تنصيصاً على فظاعةِ ما هم عليه، واستلزامُ ذلك إمكانَ ما سوى الله تعالى من الموجودات من باب أولى، بناءً على ما يزعمُ المشركون في آلهتهم من علوِّ الشأن.

ولم يَكْتفِ في بيان السبب بقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بل عَطَفَ عليه ما عَطَفَ، ـ مع أنه ممَّا يعود إليه وتُشْعِرُ تلك الجملة به ـ إظهاراً لكمال العناية بالمطلوب، وبما يفيدُه منطوقُ المعطوف من بطلان الشريك، وكونِه تعالى هو العليَّ الكبير.

وقيل: أي: ذلك الاتصافُ بما تضمَّنته الآياتُ من عجائب القدرة والحكمة بسبب أنَّ الله تعالى هو الإله الثابتُ إلهيتُه، وأنَّ مَن دونه سبحانه باطلُ الإلهية، وأنَّ الله تعالى هو العليُّ الشأنِ الكبيرُ السلطان(٢). ومدارُ أمر السببية على كونه سبحانه هو الثابتَ الإلهيةِ، وبيَّن ذلك الطيبيُّ(٣) بأنه قد تقرَّر أنَّ مَن كان إلهاً كان قادراً خالقاً عالماً، إلى غير ذلك من صفات الكمال، ثم قال: إنَّ قوله تعالى:

---

(١) ديوان لبيد ص٢٥٦، وسلف ٢/١٤٩.

(٢) الكشاف ٣/٢٣٧.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كالفذلكة لِمَا تقدَّم من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ إلى هذا المقام، وقولَه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ كالفذلكة لتلك الفواصل المذكورة هنالك كلِّها. ولعل ما قدَّمنا أولى بالاعتبار.

وقال العلَّامةُ أبو السعود في الاعتراض على ذلك: وأنت خبيرٌ بأنَّ حقِّيته تعالى وعلوَّه وكبرياءه وإنْ كانت صالحةً لمناطيَّةِ ما ذكر من الصفات، لكنَّ بطلان إلهية الأصنام لا دَخْلَ له في المناطية قطعاً، فلا مساغ لنَظْمِه في سلك الأسباب، بل هو تعكيسٌ للأمر ضرورةَ أنَّ الصفات المذكورة هي المقتضيةُ لبطلانها، لا أنَّ بطلانها يقتضيها[(١)]. انتهى، وفيه تأمُّلٌ، والعَجَبُ منه أنه ذكر مثل ما اعترض عليه في نظير هذه الآية في سورة الحجِّ، ولم يتعقَّبْه بشيء[(٢)].

وجوَّز أن يكون المعنى: ذلك ـ أي: ما تُلي من الآيات الكريمة ـ بسبب بيانِ أنَّ الله هو الحقُّ إلهيتُه فقط ولأَجْلِه؛ لكونها ناطقةً بحقِّيةِ التوحيد، ولأَجْلِ بيانِ بطلان إلهية ما يدعون من دونه لكونها شاهدةً [بذلك] شهادةً بينةً لا ريب فيها، ولأَجْلِ بيانِ أنه تعالى هو المرتفعُ على كلِّ شيءٍ المتسلِّطُ عليه، فإنَّ ما في تضاعيف تلك الآيات الكريمة مبيِّنٌ لاختصاص العلوِّ والكبرياء به أيَّ بيانٍ[(٣)]. وهو وجهٌ لا تكلُّف فيه سوى اعتبارِ حذف مضافٍ كما لا يخفى.

وكأنه إنما قيل هنا: «وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل» بدون ضمير الفصل، وفي سورة الحج: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية: ٦٢] بتوسيط ضمير الفصل؛ لِمَا أنَّ الحطَّ على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحطِّ عليهم في تلك السورة.

وقال النيسابوريُّ في ذلك: إنَّ آية الحجِّ وقعت بين عَشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مؤكَّدةٌ مرةً أو مرتين، فناسَبَ ذلك توسيط الضمير بخلاف ما هنا.

ويمكن أن يقال: تقدَّم في تلك السورة ذكرُ الشيطان مراتٍ، فلهذا ذُكرت تلك

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦-٧٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١١٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٧٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

المؤكِّدات، بخلافِ هذه السورة فإنه لم يتقدَّم ذكرُ الشيطان فيها نحوَ ذكره هناك[١].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «تدعون» بتاء الخطاب[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ استشهادٌ آخَرُ على باهرِ قدرتِه جلَّ وعلا، وغايةِ حكمته عزَّ وجلَّ، وشمول إنعامه تبارك وتعالى، والمرادُ بنعمة الله تعالى إحسانُه سبحانه في تهيئة أسباب الجري من الريح وتسخيرها، فالباءُ للتعدية كما في: مررتُ بزيدٍ، أو سببيةٌ متعلِّقة بـ «تجري».

وجوِّز أن يراد بنعمته تعالى ما أَنْعَمَ جلَّ شأنُه به مما تحملُه الفلك من الطعام والمتاع ونحوِه، فالباءُ للملابسة والمصاحبة متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضمير «الفُلْك»، أي: تجري مصحوبةً بنعمته تعالى.

وقرأ موسى بن الزبير: «الفُلُك» بضم اللام[٣]، ومثلُه معروفٌ في «فُعْل» مضمومِ الفاء؛ حُكي عن عيسى بن عمر[٤] أنه قال: ما سُمع فُعْل بضمِّ الفاء وسكونِ العين إلَّا وقد سمع فيه فُعُل بضمِّ العين. وفي «الكشاف»: كلُّ «فُعْل» يجوز فيه «فُعُل»، كما يجوزُ في كلِّ «فُعُل» «فُعْل»[٥]. وجُعِل ضمُّ العين للإتباع وإسكانُها للتخفيف.

وقرأ الأعرج والأعمش وابن يعمر: «بنِعْماتِ الله» بكَسْرِ النون وسكونِ العين جمعاً بالألف والتاء[٦]، وهو جمعُ نِعْمة بكَسْرٍ فسكون، ويجوزُ كما قال غيرُ واحد في كلِّ جمعٍ مثلِه تسكينُ العين على الأصل، وكَسْرُها إتْباعاً للفاء، وفتحُها تخفيفاً.

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٧/ ١١٥

(٢) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٣) المحتسب ٢/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١٩٣. ولم نقف على ترجمة موسى بن الزبير، ولكن الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية نقل عن ابن جني أنه قال: هي قراءة ابن موسى بن الزبير، فلعله على هذا: أحمد بن موسى بن الزبير السلمي، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ٨/ ٥ وقال: يروي عن الدراوردي وحاتم بن إسماعيل، عداده في أهل المدينة، قديم الموت، روى عنه يعقوب بن محمد الزهري.

(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٧٠، وحاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

(٦) القراءات الشاذة ص١١٧، والمحتسب ٢/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١٩٣.

وقرأ ابن أبي عبلة: «بنَعِمات الله» بفَتْحِ النون وكَسْرِ العين جمعاً لنَعْمةٍ بفتح النون[١]، وهي اسمٌ للتنعُّم. وقيل: بمعنى النِّعْمةِ بالكسر.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعضَ دلائل ألوهيته تعالى، ووحدتِه سبحانه، وقدرته جلَّ شأنُه، وعِلْمِه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ تعليلٌ لِمَا قبله، أي: إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتها كثيرةً في عددها لكلِّ مُبالغٍ في الصبر على بلائه سبحانه، ومبالغٍ في الشكر على نعمائه جلَّ شأنُه.

و«صبار شكور» كنايةٌ عن المؤمن، من باب: حيٌّ مستوي القامةِ عريضُ الأظفار؛ فإنه كنايةٌ عن الإنسان، لأنَّ هاتين الصفتين عُمْدتا الإيمان؛ لأنه وجميعَ ما يتوقَّفُ عليه إمَّا تركٌ للمألوف غالباً وهو بالصبر، أو فِعْلٌ لِمَا يُتقرَّبُ به وهو شكرٌ لعمومه فِعْلَ القلب والجوارح واللسان، ولذا ورد: الإيمانُ نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر[٢]. وذِكْرُ الوصفين بعد الفُلْكِ فيه أتمُّ مناسبةٍ؛ لأنَّ الراكب فيه لا يخلو عن الصبر والشكر.

وقيل: المراد بالصبَّار: كثيرُ الصبر على التعب في كَسْبِ الأدلَّة من الأنفس والآفاق، وإلَّا فلا اختصاصَ للآيات بمن تَعِبَ مطلقاً.

وكِلَا الوصفين بُنيا بناءَ مبالغةٍ، وفعَّال ـ على ما في «البحر» ـ أبلغُ من فَعُول لزيادة حُروفه[٣]. قيل: وإنما اختير زيادةُ المبالغة في الصبر إيماءً إلى أنَّ قليلَه لشدَّة مرارته وزيادةِ ثقله على النفس كثيرٌ.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ أي: عَلَاهم وغطَّاهم، من الغشاء بمعنى الغطاء من فوق، وهو المناسبُ هنا. وقيل: أي: أتاهم، من الغشيان بمعنى الإتيان. وضمير «غشيهم» إن اتَّحد بضمير المخاطبين قبله ففي الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، وإلَّا فلا التفاتَ.

---

(١) البحر ٧/ ١٩٣.
(٢) حديث ضعيف، وسلف ١١/ ٣٧٢.
(٣) البحر ٧/ ١٩٣.

والموجُ ما يعلو من غوارب الماء، وهو اسمُ جنسٍ واحدُه موجة، وتنكيرُه للتعظيم والتكثير، ولذا أُفرد مع جَمْع المشبَّهِ به في قوله تعالى: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ وهو جمعُ ظلَّةٍ، كغُرْفةٍ وغُرَف، وقُرْبة وقُرَب، والمرادُ بها ما أظلَّ من سحابٍ أو جبلٍ أو غيرهما.

وقال الراغب: الظلَّة: السحابة تُظِلُّ، وأكثرُ ما يقال فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَه[1]. وفسَّر قتادةُ الظُّللَ هنا بالسحاب، وبعضُهم بالجبال. وقرأ محمد بن الحنفية ﷺ: «كالظلال»[2] وهو جمعُ ظلَّة أيضاً، كعُلْبةٍ وعِلَاب، وجُفْرةٍ وجِفَار[3].

و«إذا» ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُا﴾ أي: دعوا ﴿اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إذا غشيهم موجٌ كالظلل، وإنما فعلوا ذلك حينئذٍ لزوال ما ينازعُ الفطرةَ من الهوى والتقليدِ بما دهاهم من الخوف الشديد.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ سالكُ القَصْدِ ـ أي: الطريقِ المستقيمِ ـ لا يعدلُ عنه لغيره، وأصلُه: استقامةُ الطريق، ثم أُطلق عليه مبالغةً، والمرادُ بالطريق المستقيم التوحيدُ مجازاً، فكأنه قيل: فمنهم مقيمٌ على التوحيد، وقولُ الحسن: أي: مؤمنٌ يعرِفُ حقَّ الله تعالى في هذه النعمة، يرجعُ إلى هذا.

وقيل: «مقتصد» من الاقتصاد بمعنى التوسُّطِ والاعتدال، والمرادُ حينئذٍ على ما قيل: متوسِّطٌ في أقواله وأفعاله بَيْنَ الخوفِ والرجاء، مُوْفٍ بما عاهَدَ عليه الله تعالى في البحر، وتفسيرُه بموفٍ بعهده مرويٌّ عن ابن عباس ﷺ.

ويدخل في هذا البعضِ على هذا المعنى عكرمةُ بن أبي جهل، فقد روى السدِّيُّ عن مصعب بن سعدٍ عن أبيه قال: لمَّا كان فتحُ مكة أمر رسول الله ﷺ الناسَ أن يكفُّوا عن قَتْلِ أهلها إلا أربعةَ نفرٍ منهم، قال: «اقتلوهم وإنْ وجدتُموهم متعلِّقين بأستار الكعبة» عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بنُ خَطَلَ، ومقيس بن صُبابة[4]،

---

(١) مفردات الراغب (ظلل).

(٢) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٣.

(٣) الجُفْرة: جوف الصدر، وسعةٌ من الأرض مستديرةٌ، ومن الفرس: وسَطُه. القاموس (جفر).

(٤) في الأصل و(م): وقيس بن ضبابة، والصواب في الأول ما أثبتناه، أما الثاني فقال الحافظ =

وعبد الله بن أبي سرح، فأما عكرمةُ فركب البحر فأصابتهم ريحٌ عاصفةٌ، فقال أهلُ السفينة: أَخْلِصوا فإنَّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا. فقال عكرمة: لئن لم ينجِّني في البحر إلا الإخلاصُ ما ينجِّني في البر غيرُه، اللهم إنَّ لك عليَّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أنْ آتيَ محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنَّه عفوًّا كريماً. فجاء وأسلم[١].

وقيل: متوسِّطٌ في الكفر لانزجاره بما شاهد بعضَ الانزجار.

وقيل: متوسطٌ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، فإنَّ الإخلاص الحادث عند الخوف قلَّما يبقى لأحدٍ عند زوال الخوف.

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أنَّ المقابل لقِسْمِ المقتصد محذوفٌ دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾.

والآيةُ دليلُ ابن مالك ومَن وافقه على جوازِ دخول الفاء في جواب «لمَّا»[٢]، ومَن لم يجوِّز قال: الجوابُ محذوفٌ، أي: فلما نجَّاهم إلى البرِّ انقسموا قسمين فمنهم مقتصدٌ ومنهم جاحد.

والختَّارُ من الختر، وهو أشدُّ الغَدْر، ومنه قولهم: إنك لا تمدُّ لنا شبراً من غَدْرٍ إلا مَدَدْنا لك باعاً من خَتْرٍ[٣]. وبنحو ذلك فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما لابن الأزرق، وأنشد قولَ الشاعر:

لقد علمتْ واستيقنتْ ذات نفسها ... بأنْ لا تخافَ الدهرَ صَرْمي ولا خَتْري[٤]

ونحوُه قولُ عمرو بن معدي كرب:

= في الإصابة ١٠/ ٢٤٥: هو بضم المهملة وموحَّدتين عند أكثر أهل اللغة، وقال ابن دريد: بالضاد المعجمة. اهـ. وجاء في القاموس وشرحه: حُبابة، بالحاء.

(١) أخرجه النسائي في المجتبى ٧/ ١٠٥-١٠٦، وسلف ١١/ ٩١.

(٢) مغني اللبيب ص٣٧٠، وذكر ابن مالك جواز دخول الفاء في جواب «لما» في التسهيل ص٢٤١.

(٣) في الأصل و(م): غدر، وهو خطأ، والمثبت من أساس البلاغة «ختر».

(٤) أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٤١٠ ضمن الخبر الطويل في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنهما.

وإنَّــك لــو رأيــتَ أبــا عُــمــيــرٍ مَــلأْتَ يــديــك مــن غَــدْرٍ وخَــتْــرِ[١]

وفي «مفردات» الراغب: الخترُ غدرٌ يَخْتِرُ فيه الإنسان، أي: يَضْعُفُ ويكسر لاجتهاده فيه[٢].

أي: وما يجحد بآياتنا ويكفر بها إلا كلُّ غدَّارٍ أشدَّ الغدر؛ لأنَّ كفره نقضٌ للعهد الفطري. وقيل: لأنه نقضٌ لِمَا عاهد الله تعالى عليه في البحر من الإخلاص له عز وجل.

﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ مبالغٌ في كفران نِعَم الله تعالى. و«ختَّار» مقابلٌ لـ «صبَّار»؛ لأنَّ مَن غَدَرَ لم يَصْبِرْ على العهد، و«كفور» مقابل لـ «شكور».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أمرٌ بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بيومٍ عظيم بعد ذِكْرِ دلائل الوحدانية، و«يجزي» من جَزَى بمعنى قضى، ومنه قيل للمتقاضي: المتجازي، أي: لا يقضي والدٌ عن ولده شيئاً.

وقرأ أبو السَّمَّال وعامر بنُ عبد الله وأبو السَّوَّار: «لا يُجزِئُ» بضم الياء وكَسْرِ الزاي مهموزاً[٣]، ومعناه: لا يغني والدٌ عن ولده ولا يُفيدُه شيئاً، من أَجْزَأْتُ عنك مجزأً فلانٍ، أي: أَغْنَيْتُ. وقرأ عكرمة: «لا يُجْزَى» بضمِّ الياء وفَتْحِ الزاي مبنيًّا للمفعول[٤].

والجملةُ على القراءات صفةُ «يوماً» والراجعُ إلى الموصوف محذوفٌ، أي: فيه، فإمَّا أن يحذف برمَّته، وإمَّا على التدريج بأنْ يُحذَفَ حرفُ الجرِّ فيعُدَّى الفعلُ إلى الضمير، ثم يحذف منصوباً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ إمَّا عطفٌ على «والدٍ» فهو فاعلُ «يجزي»، وقوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ في موضع الصفة له، والمنفيُّ عنه هو الجزاءُ في

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٨٠، والكشاف ٣/ ٢٣٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٤٩٤.

(٢) مفردات الراغب (ختر).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٤.

(٤) البحر ٧/ ١٩٤.

الآخرة، والمثبَتُ له الجزاءُ في الدنيا. أو معنى «هو جاز» أنَّ[(١)] من شأنه الجزاءَ لعظيمِ حقِّ الوالد، أو المراد بـ «لا يجزي»: لا يُقبل منه ما هو جازٍ به.

وإما مبتدأ والمسوِّغُ للابتداء به مع أنه نكرةٌ تقدُّمُ النفي ـ وذهل المهدويُّ عن ذلك فمنع صحةَ كونه مبتدأً ـ وجملةُ «هو جازٍ» خبره. و«شيئاً» مفعولٌ به، أو منصوبٌ على المصدرية لأنه صفةُ مصدرٍ محذوف، وعلى الوجهين قيل: تَنازَعَه «يجزي» و«جازٍ».

واختيارُ ما لا يفيدُ التأكيدَ في الجملة الأولى وما يفيدُه في الجملة الثانية؛ لأنَّ أكثر المسلمين وأجلَّتهم حين الخطابِ كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر وعلى الدِّين الجاهليِّ، فلمَّا كان غَناءُ الكافر عن المسلم بعيداً لم يَحْتَجْ نفيُه إلى التأكيد، ولمَّا كان غَناءُ المسلم عن الكافر ممَّا يقع في الأوهام أكِّد نفيُه. قاله الزمخشري[(٢)].

وتعقَّبه ابن المنير بأنه يتوقَّفُ صحتُه على أنَّ هذا الخطاب كان خاصّاً بالموجودين حينئذٍ، والصحيحُ أنه عامٌّ لهم ولكلِّ مَن ينطلق عليه اسم الناس[(٣)].

وردَّه في «الكشف» بأنَّ المقدِّمتين فاسدتان؛ أمَّا الثانيةُ: فلِمَا تقرَّر في أصول الفقه أنَّ «يا أيها الناس» يتناول الموجودين، وأمَّا لغيرهم فبالإعلام أو بطريقِه، والمالكيةُ موافقةٌ. وأمَّا الأولى: فعلى تقدير التسليم لا شكَّ أنَّ أجلَّة المؤمنين وأكابرهم إلى انقراض الدنيا هم النبيُّ ﷺ وأصحابه ﭫ، ومعلومٌ أنَّ أكثرهم قُبض آباؤهم على الكفر، فمن أين التوقيف. اهـ.

واختار ابن المنير في وجه ذلك: أنَّ الله تعالى لمَّا أكَّد الوصيةَ بالآباء، وقَرَنَ وجوبَ شكرهم بوجوب شكره عزَّ وجلَّ، وأَوْجَبَ على الولد أن يكفيَ والده ما يسوءُه بحسب نهاية إمكانه، قَطَع سبحانه هاهنا وَهْمَ الوالد في أن يكون الولد في القيامة يجزيه حقَّه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة كما أوجَبَ الله تعالى عليه في الدنيا ذلك في حقِّه، فلمَّا كان جزاءُ الولد عن الوالد مظنَّةَ الوقوع لأنه

---

(١) في (م): أي، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٤٤، والكلام منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٣٨ بنحوه.

(٣) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ٢٣٨.

سبحانه حضَّ عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكسُ[(١)].

وقريبٌ منه ما قاله الإمام[(٢)]: إنَّ الولد من شأنه أن يكون جازياً عن والده لِمَا عليه من الحقوق، والوالد[(٣)] يجزي لِمَا فيه من الشفقة[(٤)]، وليس ذلك بواجبٍ عليه، فلذا قال سبحانه في الوالد: ﴿لَّا يَجْزِى﴾ وفي الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ ألا ترى أنه يقال لمن يَحيكُ وليست الحياكةُ صنعتُه: هو يَحيك، ولمن يحيكُ وهي صنعتُه: هو حائك.

وقيل: إنَّ التأكيد في الجملة الثانية للدلالة على أنَّ المولود أولى بأنْ لا يجزي لأنه دون الوالد في الحنوِّ والشفقة، فلمَّا كان أولى بهذا الحكم استحقَّ التأكيد. وفي القلب منه شيء.

وقد يقال: إنَّ العرب كانوا يدَّخرون الأولاد لنَفْعِهم ودَفْعِ الأذى عنهم وكفايةِ ما يهمُّهم، ولعل أكثر الناس اليومَ كذلك، فأُريدَ حَسْمُ توهُّم نَفْعِهم ودَفْعِهم الأذى وكفايةِ المهمِّ في حقِّ آبائهم يوم القيامة، فأكِّدت الجملةُ المفيدةُ لنفي ذلك عنهم.

وعُدَّ من جملة المؤكِّدات التعبيرُ بالمولود؛ لأنه مَن وُلِدَ بغير واسطةٍ، بخلافِ الولد فإنه عامٌّ يشملُ ولدَ الولد، فإذا أفادت الجملة أنَّ الولد الأدنى لا يجزي عن والده عُلم أنَّ مَن عَدَاه من ولد الولد لا يجزي عن جدِّه من باب أَوْلَى.

واعتُرض بأنَّ هذه التفرقةَ بين الولد والمولود لم يثبتها أهلُ اللغة. ورُدَّ بأنَّ الزمخشريَّ والمطرزي ذكرا ذلك[(٥)]، وكفى بهما حجَّةً، ثم إنَّ في عموم الولد لولد الولد أيضاً مقالاً، فقد ذهب جمعٌ أنه خاصٌّ بالولد الصُّلْبيِّ حقيقةً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في تفسيره ٢٥/ ١٦٣.

(٣) في الأصل و(م): والولد، وهو تصحيف، والمثبت من تفسير الرازي.

(٤) في (م): النفقة، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير الرازي.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣٨، وذكره عنه وعن المطرزي الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٥. وسيأتي ما للمطرزي من كلام في هذه المسألة في كتابه المغرب.

وقال صاحب «المغرب»: يقال للصغير مولود وإن كان الكبير مولوداً أيضاً؛ لقُرْبِ عهده من الولادة، كما يقال: لبنٌ حليبٌ ورُطَبٌ جَنيٌّ للطريِّ منهما[١]، ووجِّهَ أمرُ التأكيد عليه بأنه إذا كان الصغير لا يجزي حينئذٍ مع عدم اشتغاله بنفسه لعدم تكليفه في الدنيا، فالكبيرُ المشغولُ بنفسه من باب أَوْلَى، وهو كما ترى.

وخصَّص بعضهم العمومَ بغير صبيان المسلمين؛ لثبوت الأحاديث بشفاعتهم لوالديهم. وتعقِّب بأنَّ الشفاعة ليست بقضاءٍ، ولو سلِّم فلتَوَقُّفِها على القبول يكون القضاءُ منه عز وجل حقيقةً، فتدبر.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ قيل: بالثواب والعقاب، على تغليب الوعد على الوعيد، أو هو بمعناه اللغويِّ ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ متحقِّقٌ لا يُخْلَفُ، وعدمُ إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلامَ فيه، وأمَّا عدمُ إخلافِ الوعد بالعقاب ففيه كلامٌ، والحقُّ أنه لا يُخْلَفُ أيضاً، وعدمُ تعذيب مَن يُغفر له من العصاة المتوعَّدين فليس من إخلاف الوعيد في شيءٍ؛ لِمَا أنَّ الوعيد في حقِّهم كان معلَّقاً بشرطٍ لم يُذكر ترهيباً وتخويفاً. والجملةُ على هذا تعليلٌ لنفي الجزاء.

وقيل: المراد: إنَّ وعد الله بذلك اليوم حقٌّ، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنه لمَّا قيل: يا أيها الناس اتقوا يوماً.. إلخ[٢]، سأل سائل: أيكون[٣] ذلك اليوم؟ فقيل: «إنَّ وعد الله حقٌّ»، أي: نعم يكون لا محالةَ لمكانِ الوعد به، فهو جوابٌ على أبلغ وجهٍ، وإليه يشيرُ كلام الإمام[٤].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنْ تُلْهِيَكم بلذَّاتها عن الطاعات ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ أي: الشيطان ـ كما روي عن ابن عباس وعكرمةَ وقتادةَ ومجاهدٍ والضحاك ـ بأنْ يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم، ويرجِّيَكم التوبةَ والمغفرةَ منه تعالى، أو يَذْكُرَ لكم أنها لا تضرُّ مَن سَبَقَ في علم الله تعالى موتُه على الإيمان، وأنَّ تَرْكَها لا ينفعُ مَن سَبَقَ في العلم موتُه على الكفر.

---

(١) المغرب للمطرزي ٢/ ٣٧٠.
(٢) ولفظ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾.
(٣) في (م): أن يكون، بدل: أيكون، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٤) في تفسيره ٢٥/ ١٦٤، وسيأتي كلامه في هذه الآية بتمامه ص١٠٨-١٠٩ من هذا الجزء.

وعن أبي عبيدة: كلُّ شيءٍ غرَّكَ حتى تعصي الله تعالى وتتركَ ما أمرك سبحانه به فهو غَرورٌ، شيطاناً أو غيرَه[١].

وإلى ذلك ذهب الراغب[٢]؛ قال: الغرورُ كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان، وقد فسِّر بالشيطان إذ هو أخبثُ الغارِّين، وبالدنيا لِمَا قيل: الدنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ، وأصل الغَرور مِن غَرَّ فلاناً: إذا أصاب غِرَّتَه ـ أي: غَفْلَته ـ ونال منه ما يريدُ، والمراد به الخداع.

والظاهرُ أنَّ «بالله» صلةُ «يغرَّنَّكم»، أي: لا يخدعنَّكم بذكر شيءٍ من شؤونه تعالى يُجْسِرُكم على معاصيه سبحانه. وجوِّز أن يكون قَسَماً، وفيه بعدٌ.

وقرأ ابن أبي إسحاق وابنُ أبي عبلة ويعقوب: «تغرَّنْكم» بالنون الخفيفة[٣].

وقرأ سماك[٤] بن حرب وأبو حيوة: «الغُرور» بضمِّ الغين[٥]، وهو مصدرٌ والكلامُ من باب: جدَّ جدُّه، ويمكن تفسيرُه بالشيطان بجَعْلِه نفسَ الغرورِ مبالغة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلخ، أخرج ابنُ المنذر عن عكرمة أنَّ رجلاً يقال له: الوارث بن عمرو جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، متى قيامُ الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تُخْصِبُ؟ وقد تركْتُ امرأتي حُبْلَى فما تَلِدُ؟ وقد علمتُ ما كسبتُ اليومَ فماذا أَكْسِبُ غداً؟ وقد علمتُ بأيِّ أرضٍ ولدتُ فبأيِّ أرضٍ أموت؟ فنزلت هذه الآية[٦]. وذكر نحوَه محيي السنَّةِ البغويُّ، والواحديُّ، والثعلبي[٧]. فهي[٨]

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩.

(٢) في مفرداته (غرر).

(٣) البحر ٧/ ١٩٤.

(٤) في الأصل و(م): سمال، والصواب ما أثبتناه، وهو سماك بن حرب الذهلي البكري الكوفي أبو المغيرة، حدث عن جمع من الصحابة والتابعين، توفي سنة(١٢٣هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٥.

(٥) المحتسب ٢/ ١٧٢، والبحر ٧/ ١٩٤.

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٦٩، وأخرج نحوه الطبري ١٨/ ٥٨٥ عن مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٦، وأسباب النزول للواحدي ص٣٦٤، وتفسير الثعلبي ٧/ ٣٢٣، ووقع في تفسير البغوي وأسباب النزول: الحارث، بدل: الوارث.

(٨) في (م): فهو.

نظراً إلى سبب النزول جوابٌ لسؤالٍ محقَّقٍ، ونظراً إلى ما قبلها من الآي جوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ قائلاً يقول: متى هذا اليوم الذي ذُكر مِن شأنه ما ذُكر؟ فقيل: «إن الله» إلخ.

ولم يقل: إنَّ علمَ الساعة عند الله، مع أنه أَخْصَرُ، لأنَّ اسم الله سبحانه أحقُّ بالتقديم، ولأنَّ تقديمه وبناءَ الخبر عليه يفيدُ الحصر كما قرَّره الطيبيُّ[1]، مع ما فيه من مزيةِ تكرُّر الإسناد، وتقديمُ الظرف يفيدُ الاختصاص أيضاً، بل لفظُ «عند» كذلك؛ لأنها تفيد حِفْظَه بحيث لا يُوْصَلُ إليه، فيفيدُ الكلامُ من أوجهٍ اختصاصَ عِلْمِ وَقْتِ القيامة بالله عزَّ وجل.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ـ أي: في إبَّانه[2] من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ، في بلدٍ لا يتجاوزُه به، وبمقدارٍ تقتضيه الحكمةُ ـ الظاهرُ أنه عطفٌ على الجملة الظرفية المبنيَّة على الاسم الجليل، على عَكْسِ قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [المؤمنون: ٢١] فيكون خبراً مبنيًّا على الاسم الجليل مثل المعطوف عليه، فيفيد الكلامُ الاختصاصَ أيضاً.

والمقصودُ تقييداتُ التنزيل الراجعةُ إلى العلم، لا مَحْضُ القدرة على التنزيل إذ لا شبهةَ فيه، فيرجعُ الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقدارِه، كما يشير إلى ذلك كلامُ «الكشف».

وقال العلَّامةُ الطيبيُّ في «شرح الكشاف»: دلالةُ هذه الجملة على علم الغيب من حيث دلالةُ المقدور المُحْكَم المتقَنِ على العلم الشامل[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ـ أي: أذكرٌ أم أنثى، أتامٌّ أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ـ عطفٌ على الجملة الظرفية أيضاً نظير ما قبله، وخُولِفَ بين «عنده علم الساعة» وبين هذا ليدلَّ في الأول على مزيد الاختصاص؛ اعتناءً بأمر الساعة، ودلالةً على شدة خفائها، وفي هذا على استمرار تجدُّد

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) بكسر الهمزة وتشديد الباء، أي: وقته. حاشية الشهاب ٧/ ١٤٥.
(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

التعلُّقات بحسب تجدُّد المتعلّقات مع الاختصاص. ولم يُراعَ هذا الأسلوبُ فيما قبله بأن يقال: ويعلم الغيثَ، مثلاً؛ إشارةً بإسناد التنزيل إلى الاسم الجليل صريحاً إلى عظم شأنه لِمَا فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق، وشيوع الاستدلال بما يترتَّب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشارِ إليه بالساعة في الكتاب العظيم؛ قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٤٩-٥٠] وقال سبحانه: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] إلى غير ذلك.

وربما يقال: إنَّ لتنزيل الغيث وإن لم يكن الغيثَ المعهودَ دخلاً في البعث[1] بناءً على ما ورد من حديث مطر السماء بعد النفخة الأولى مطراً كمنيِّ الرجال[2].

وقيل: الاختصاصُ راجعٌ إلى التنزيل وما ترجع إليه تقييداتُه التي يقتضيها المقام من العلم، وفي ذلك ردٌّ على القائلين: مُطِرْنا بنوء كذا[3]، وللاعتناء بردِّ ذلك لِمَا فيه من الشرك في الربوبية عَدَل عن: يعلم، إلى «ينزِّل». وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ برَّةً كانت أو فاجرةً، كما يدلُّ عليه وقوعُ النكرة في سياق النفي ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: في الزمان المستقبل من خيرٍ أو شرٍّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عطفٌ ـ على ما استظهره صاحب «الكشف» ـ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وأشار إلى أنه لمَّا كان الكلامُ مسوقاً للاختصاص لا لإفادة أصل العلم له تعالى ـ فإنه غير منكَرٍ ـ لزم من النفي على سبيل الاستغراق اختصاصُه به عزَّ وجل على سبيل الكناية على الوجه الأبلغ.

---

(١) في (م): المبعث.

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١-١٩٥، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤-٣١٦، والحاكم ٤/ ٤٩٦-٤٩٨ من حديث ابن مسعود ﷺ موقوفاً، وفي إسناده أبو الزعراء الكندي عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) عن زيد بن خالد الجهني ﷺ، وسلف ٥/ ٢١٤ وعند تفسير الآية (٩٧) من سورة الأنعام.

وفي العدول عن لفظ العلم إلى لفظ الدراية لِمَا فيها من معنى الختل والحيلة لأنَّ أصل دَرَى: رمى الدَّرِيَّة، وهي الحلقةُ التي يَقْصِدُ رَمْيَها الرماةُ، وما يُتعلَّمُ عليه الطعنُ، والناقةُ التي يسيِّبها الصائدُ ليأنَسَ بها الصيدُ، فيستتر من ورائها فيرميه، وفي كلِّ حيلة، ولكونها عِلْماً بضَرْبٍ من الختل والحيلة لا تُنْسَبُ إليه عزَّ وجل إلا إذا أوِّلَتْ بمطلق العلم، كما في خبر: خمسٌ لا يدريهنَّ إلا الله تعالى(١).

وقيل: قد يقال: الممنوعُ نسبتُها إليه سبحانه بانفراده تعالى، أمَّا مع غيره تبارك اسمه تغليباً فلا، ويفهم من كلام بعضهم صحةُ النسبة إليه جلَّ وعلا على سبيل المشاكلة كما في قوله:

لاهـــمَّ لا أدري وأنـــت الـــداري(٢)

فلا حاجة إلى ما قيل(٣): إنه كلامُ أعرابيٍّ جلفٍ لا يعرفُ ما يجوزُ إطلاقُه على الله تعالى وما يمتنع. فيكون المعنى: لا تعرفُ كلُّ نفسٍ وإن أَعْملَتْ حِيَلَها ما يلصقُ بها ويختصُّ ولا يتخطَّاها، ولا شيء أخصُّ بالإنسان من كَسْبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكن له طريقٌ إلى معرفتهما كان من معرفة ما عَدَاهما أبعدَ وأبعدَ، وقد روعي في هذا الأسلوب الإدماجُ المذكور، ولذا لم يقل: ويعلم ماذا تكسبُ كلُّ نفسٍ ويعلمُ أنَّ كلَّ نفسٍ بأيِّ أرضٍ تموت.

وجوِّز أن يكون أصلُ «وينزل الغيث»: وأَنْ ينزِّلَ الغيث، فحُذف «أن» وارتفع الفعلُ، كما في قوله:

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضُـرُ الـوغـى(٤)

---

(١) كذا نقل المصنف لفظه عن الشهاب في الحاشية ٧/ ١٤٥، وقد عزاه الشهاب للبخاري، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، وإنما لفظ الحديث عند البخاري (١٠٣٩) وعند غيره: «خمس لا يعلمها» وفي رواية: «لا يعلمهن» كما سيرد، غير أنه جاء في آخر الحديث - كما سيرد أيضاً - قوله ﷺ: «وما يدري أحد متى يجيء المطر» قال ابن حجر في الفتح ٢/ ٥٢٥: زاد الإسماعيلي: «إلا الله».

(٢) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص١٢١، والبحر ٧/ ١٩٤، وحاشية الشهاب ٧/ ١٤٥، ورواية الديوان: يا رب لا أدري....

(٣) القائل هو أبو حيان في البحر ٧/ ١١٠، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٤٥.

(٤) وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلدي. وهو لطرفة، وهو في ديوانه ص٣٢، وسلف ٢/ ٢٧٧ و٧/ ٢٤٤ و١٠/ ١٤٥ وغيرها.

وكذا قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ والعطفُ على «علم الساعة»، فكأنه قيل: إن الله عنده علمُ الساعة وتنزيلُ الغيث وعِلْمُ ما في الأرحام، ودلالةُ ذلك على اختصاص عِلْمِ تنزيلِ الغيث به سبحانه ظاهرٌ؛ لظهور أنَّ المراد بعنده تنزيلُ الغيث: عنده علمُ تنزيله. وإذا عطف «ينزل» على «الساعة» كان الاختصاصُ أظهرَ لانسحاب «عِلْم» المضافِ إلى «الساعة» إلى الإنزال حينئذٍ، فكأنه قيل: إنَّ الله عنده علم الساعةِ وعلمُ تنزيلِ الغيث، وهذا العطفُ لا يكاد يتسنَّى في «ويعلم»؛ إذ يكون التقدير: وعنده عِلْمُ عِلْمِ ما في الأرحام، وليس ذاك بمرادٍ أصلاً.

وجعل الطيبيُّ[1] «وما تدري نفسٌ» إلخ معطوفاً على خبر «إنَّ» من حيث المعنى بأن يُجعل المنفيُّ مثبتاً، بأن يقال: ويعلم ماذا تكسبُ كلُّ نفسٍ غداً ويعلم أنَّ كلَّ نفسٍ بأيِّ أرضٍ تموت، وقال: إنَّ مثل ذلك جائزٌ في الكلام إذا روعي نكتةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] فإنَّ العطف فيه باعتبارِ رجوع التحريم إلى ضدِّ الإحسان وهي الإساءة، وذَكر في بيانِ نكتةِ العدول عن المثبت إلى المنفيِّ نحوَ ما ذكرنا آنفاً.

وتعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» بأنَّ عنه مندوحةً، أي: بما ذكر من عَطْفِه على جملة «إنَّ الله عنده علم الساعة».

وقال الإمام في وجه نظم الجمل: الحقُّ أنه تعالى لمَّا قال: ﴿وَٱخْشَوْا يَوْمًا﴾ إلخ، وذَكَرَ سبحانه أنه كائنٌ بقوله عزَّ قائلاً: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فكأنَّ قائلاً يقول: فمتى هذا اليوم؟ فأجيبَ بأنَّ هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى، وذلك قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ثم ذكر جلَّ وعلا الدليلين اللذين ذُكرا مراراً على البعث: أحدهما: إحياءُ الأرض بعد موتها، المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾. والثاني: الخلقُ ابتداءً، المشارُ إليه بقوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، فكأنه قال عزَّ وجل: يا أيها السائل، إنك لا تعلمُ وقتها ولكنها كائنةٌ، والله تعالى قادرٌ عليها كما هو سبحانه قادرٌ على إحياء الأرض وعلى الخلق في الأرحام، ثم بعَّد جلَّ شأنُه له أن يعلم ذلك بقوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ إلخ، فكأنه قال تعالى: يا أيها

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مُرساها، وإنَّ من الأشياء ما هو أهمُّ منها لا تعلمه، فإنك لا تعلم معاشَك ومعادك، فما تعلمُ ماذا تكسب غداً مع أنه فعلُكَ وزمانُك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانُك، فكيف تعلمُ قيامَ الساعة متى يكون، والله تعالى ما علَّمك كَسْبَ غَدِكَ، ولا علَّمك أين تموت، مع أنَّ لك في ذلك فوائدَ شتَّى، وإنما لم يعلِّمك لكي تكون في كلِّ وقتٍ بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكِّلاً عليه سبحانه، ولكيلا تأمَنَ الموتَ إذا كنتَ في غير الأرض التي أَعْلَمَكَ سبحانه أنك تموت فيها، فإذا لم يُعْلِمْكَ ما تحتاجُ إليه كيف يُعْلِمُك ما لا حاجةَ لك إليه، وهو وقتُ القيامة، وإنما الحاجةُ إلى العلم بأنها تكونُ وقد أعلمك جل وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام[(١)]. انتهى، ولا يخفى أنَّ الظاهر على ما ذكره أن يقال: ويخلق ما في الأرحام، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ووجهُ العدول عن ذلك إلى ما في النظم الجليل غيرُ ظاهرٍ، على أنَّ كلامه بعدُ لا يخلو عن شيءٍ.

وكونُ المراد اختصاصَ علم هذه الخمس به عزَّ وجلَّ هو الذي تدلُّ عليه الأحاديثُ والآثار، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة من حديث طويل أنه ﷺ سئل: متى الساعةُ؟ فقال للسائل: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل، وسأُخبِرُكَ عن أشراطها: إذا ولدت الأمةُ ربَّها؛ وإذا تطاوَلَ رعاةُ الإبل البُهْمُ في البنيان، في خمسٍ لا يعلمهنَّ إلا الله تعالى» ثم تلا النبيُّ ﷺ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية»[(٢)] أي: إلى آخر السورة كما في بعض الروايات[(٣)]، وما وقع عند البخاريِّ في التفسير من قوله: إلى «الأرحام»[(٤)] تقصيرٌ من بعض الرواة.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٦٤-١٦٥.

(٢) صحيح البخاري (٥٠)، وصحيح مسلم (٩). وقوله: ربها، أي: مالكها وسيدها. وقوله: البهم، يجوز في الميم الكسر على أنها صفة الإبل، يعني: الإبل السود. ويجوز فيها الضم على أنها صفة الرعاة، ووصفوا بذلك إما لأنهم سود الألوان، وإما لأنهم مجهولو الأنساب، وإما لأنهم لا شيء لهم على اعتبار أن الراعي يرعى بالأجرة. ينظر فتح الباري ١/ ١٢٢-١٢٣.

(٣) هي رواية مسلم.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٧٧)، والكلام من فتح الباري ١/ ١٢٤.

وأخرجا أيضاً هما وغيرُهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاحُ ـ وفي رواية: مفاتِحُ ـ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلَّا الله تعالى: لا يعلمُ أحدٌ ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت، وما يدري أحدٌ متى يجيْءُ المطر»[١].

وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه والرويانيُّ والضياء بسندٍ صحيح عن بريدة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»[٢].

وظاهرُ هذه الأخبار يقتضي أنَّ ما عدا هذه الخمسِ من المغيَّبات قد يعلمه غيرُه عز وجل، وإليه ذهب مَن ذهب؛ أخرج حميد بن زنجويه[٣] عن بعض الصحابة ﵃ أنه ذكر العلم بوقت الكسوف قبل الظهور، فأُنكِرَ عليه فقال: إنما الغيبُ خمسٌ ـ وتلا هذه الآية ـ وما عدا ذلك غيبٌ يعلمه قومٌ ويجهله قومٌ.

وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ عِلْمَ هذه الخمس لم يُؤْتَ للنبيِّ ﷺ، ويلزمُه أنه لم يؤتَ لغيره ﷺ من بابِ أَوْلَى؛ أخرج أحمد والطبرانيُّ عن ابن عمر ﵄ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوتيتُ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»[٤].

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوتي نبيُّكم ﷺ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ غيرَ الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[٥].

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: لم يغمَّ على نبيِّكم ﷺ

(١) صحيح البخاري (١٠٣٩)، وهو عند أحمد بنحوه (٤٧٦٦)، ولم نقف عليه عند مسلم.
(٢) مسند أحمد (٢٢٩٨٦)، ومسند البزار (٢٢٤٩- كشف)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٩.
(٣) كما في فتح الباري ١/ ١٢٤.
(٤) مسند أحمد (٥٥٧٩)، والمعجم الكبير (١٣٣٤٤).
(٥) مسند أحمد (٣٦٥٩)، ومسند أبي يعلى (٥١٥٣)، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٨٧، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٩.

إلا الخمسُ من سرائر الغيب، هذه الآية في آخر لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخر السورة[١].

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري في «الأدب» عن ربعيِّ بن حِرَاشٍ قال: حدَّثني رجلٌ من بني عامر أنه قال: يا رسول الله، هل بقي من العلم شيءٌ لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد علَّمني الله تعالى خيراً، وإنَّ من العلم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، الخمسُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[٢].

وصرَّح بعضهم باستئثار الله تعالى بهن؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: خمسٌ من الغيب استأثر الله تعالى بهنَّ فلم يُطْلِعْ عليهنَّ مَلَكاً مقرَّباً ولا نبيّاً مرسَلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ولا يدري أحدٌ من الناس متى تقومُ الساعة، في أيِّ سنةٍ ولا في أيِّ شهر، أليلاً أم نهاراً؟ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحدٌ متى ينزلُ الغيثُ، أليلاً أم نهاراً؟ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحدٌ ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود؟ولا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً، أخيراً أم شرًّا؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحدٌ من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحرٍ أم في برٍّ، في سهلٍ أم في جبل[٣]؟

والذي ينبغي أن يُعْلَم أنَّ كلَّ غيبٍ لا يعلمه إلَّا الله عز وجل، وليس المغيباتُ محصورةً بهذه الخمس، وإنما خصَّت بالذكر لوقوع السؤال عنها، أو لأنها كثيراً ما تشتاقُ النفوسُ إلى العلم بها، وقال القسطلانيُّ: ذَكَر ﷺ خمساً وإن كان الغيبُ لا يتناهى؛ لأنَّ العدد لا ينفي زائداً عليه، ولأن هذه الخمسةَ هي التي كانوا يدَّعون عِلْمَها. انتهى، وفي التعليل الأخير نظر لا يخفى.

وأنه يجوزُ أن يُطْلِعَ الله تعالى بعضَ أصفيائه على إحدى هذه الخمس، ويرزقَه عزَّ وجلَّ العلمَ بذلك في الجملة، وعِلْمُها الخاصُّ به جل وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كلٍّ منها وتفصيله على الوجه الأتم، وفي «شرح المناوي

---

(١) الدر المنثور٥/ ١٦٩، وفيه: يعم، بدل: يغم.

(٢) مسند أحمد (٢٣١٢٧)، والأدب المفرد (١٠٨٤)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٦٩.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨٥، والدر المنثور ٥/ ١٦٩.

الكبير للجامع الصغير» في الكلام على حديث بريدةَ السابق «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله»: على وجه الإحاطة والشمول كلّيّاً وجزئيّاً، فلا ينافيه إطْلاعُ الله تعالى بعضَ خواصِّه على بعض المغيَّبات حتى من هذه الخمس؛ لأنها جزئياتٌ معدودةٌ، وإنكارُ المعتزلة لذلك مكابرةٌ[1]. انتهى.

ويُعلَم مما ذكرنا وجهُ الجمع بين الأخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك وبين ما يدلُّ على خلافه كبعض إخباراته ﷺ بالمغيَّبات التي هي من هذا القبيل، يَعْلَم ذلك مَن راجَعَ نحو«الشفا» و«المواهب اللدنية» مما ذكر فيه معجزاتُه ﷺ وإخبارُه ﷺ بالمغيبات[2].

وذكر القسطلانيُّ أنه عزَّ وجل إذا أمر بالغيث وسوقه إلى ما شاء من الأماكن عَلِمتْه الملائكة الموكَّلون به ومَن شاء سبحانه مِن خَلْقِه عز وجل، وكذا إذا أراد تبارك وتعالى خَلْقَ شخصٍ في رحمٍ يُعْلِمُ سبحانه الملكَ الموكَّلَ بالرَّحِم بما يريد جلَّ وعلا، كما يدلُّ عليه ما أخرجه البخاريُّ عن أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى وكَّل بالرَّحِم مَلَكاً يقول: يا ربِّ نطفةٌ، يا ربِّ علقةٌ، يا ربِّ مضغةٌ، فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خَلْقَه قال: أذكَرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، فما الرزق والأَجَل؟ فيُكْتَبُ في بطن أمه»[3] فحينئذٍ يعلمُ بذلك الملكُ ومَن شاء الله تعالى من خَلْقِه عزَّ وجل، وهذا لا ينافي الاختصاصَ والاستئثار بعلم المذكورات بناءً على ما سمعتَ منَّا من أنَّ المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلمُ الكامل بأحوال كلٍّ على التفصيل، فما يَعْلَمُ به الملك ويَطَّلع عليه بعض الخواصِّ يجوز أن يكون دون ذلك العلم، بل هو كذلك في الواقع بلا شبهةٍ.

وقد يقال فيما يحصُلُ للأولياء من العلم بشيءٍ مما ذكر: إنه ليس بعلم يقينيٍّ، قال علي القاري في «شرح الشفا»: الأولياء وإن كان قد ينكشفُ لهم بعضُ الأشياء، لكن علمهم لا يكون يقينياً، وإلهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنِّياً.

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤٥٨.

(٢) ينظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٥٠-٦٧٩، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٧/ ٢٠٤-٢٣٧.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وأخرجه مسلم (٢٦٤٦).

ومثلُ هذا عندي - بل هو دونه بمراحل - علمُ النجوميِّ ونحوِه بواسطة أماراتٍ عنده بنزولِ الغيث، وذكورةِ الحمل أو أنوثتِه، أو نحو ذلك، ولا أرى كُفْرَ مَن يدَّعي مثلَ هذا العلم، فإنه ظنٌّ عن أمرٍ عاديٍّ، وقد نقل العسقلانيُّ في «فتح الباري» عن القرطبيِّ أنه قال: مَن ادَّعى عِلْمَ شيءٍ من الخمس غيرَ مُسْنِدِه إلى رسول الله ﷺ كان كاذباً في دعواه، وأمَّا ظنُّ الغيب فقد يجوزُ من المنجِّم وغيره إذا كان عن أمرٍ عاديٍّ وليس ذلك بعلم[1]. وعليه فقولُ القسطلانيِّ: مَن ادَّعى علمَ شيءٍ منها فقد كفر بالقرآن العظيم، ينبغي أن يُحمل العلمُ فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به، دون مطلق العلم الشامل للظنِّ وما يشبهُه.

وبعد هذا كلِّه إنَّ أمر الساعة أخفى الأمورِ المذكورة، وإنَّ ما أَطْلَعَ الله تعالى عليه نبيَّه ﷺ من وقت قيامها في غاية الإجمال، وإن كان أتمَّ من علم غيره من البشر ﷺ، وقوله ﷺ: «بعثتُ أنا والساعةُ كهاتين»[2] لا يدلُّ على أكثر من العلم الإجماليِّ بوقتها.

ولا أظنُّ أنَّ خواصَّ الملائكة عليهم السلام أعلمُ منه ﷺ بذلك، ويؤيِّد ظنِّي ما رواه الحميديُّ في «نوادره»[3] بالسند عن الشعبيِّ قال: سأل عيسى بن مريم جبريلَ عليهما السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته، وقال: ما المسؤول بأعلم من السائل. والمرادُ التساوي في العلم بأنَّ الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الأكمل.

ويُرشِدُ إلى العلم الإجماليِّ بها ذِكْرُ أشراطها كما لا يخفى، ويجوزُ أن يكون الله تعالى قد أَطْلَعَ حبيبه ﷺ على وقت قيامها على وجهٍ كاملٍ لكنْ لا على وجهٍ يحاكي عِلْمَه تعالى به، إلا أنه سبحانه أوجبَ عليه ﷺ كَتْمَه لحكمةٍ، ويكونُ ذلك من خواصِّه ﷺ، وليس عندي ما يفيد الجَزْمَ بذلك.

هذا وخصَّ سبحانه المكان في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢٤. والقرطبي هو أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي المفسِّر، وكلامه في كتابه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد(١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه، وسلف ٩/ ٥٢٢.

(٣) كما في فتح الباري ١/ ١٢١، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٢٢٨).

ليُعْرَفَ الزمانُ من بابِ أَوْلَى، فإنَّ الأول في وسع النفس في الجملة بخلاف الثاني، وأخرج أحمدُ وجماعةٌ عن أبي عَزَّةَ الهذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى قَبْضَ عبدٍ بأرضٍ جعل له إليها حاجةً، فلم يَنْتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» عن خيثمةَ: أنَّ ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجلٍ من جلسائه يديمُ النظرَ إليه، فقال الرجل: مَن هذا؟ قال: ملكُ الموت. فقال: كأنه يريدني، فَمُرِ الريحَ أن تحملني وتلقيني بالهند. ففعل، فقال الملك: كان دوامُ نظري إليه تعجُّباً منه؛ إذ أُمِرْتُ أن أقبِضَ روحَه بالهند وهو عندك[2].

و«تدري» في الموضعين معلَّقةٌ، فالجملةُ من قوله تعالى: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ في موضع المفعول، ويجوزُ أن تكون «ماذا» كلُّها موصولاً منصوبَ المحلِّ بـ «تدري»، كأنه قيل: وما تدري نفسٌ الشيءَ الذي تكسبُه غداً. و«بأيِّ» متعلِّقٌ بـ «تموت»، والباء ظرفية، والجملةُ في موضع نصبٍ بـ «تدري».

وقرأ غير واحد من السبعة: «يُنزِلُ» من الإنزال[3]. وقرأ موسى الأسواريُّ وابن أبي عبلة: «بأيَّةِ أرضٍ» بتاء التأنيث[4]؛ لإضافتها إلى المؤنَّث، وهي لغةٌ قليلةٌ فيها كما أنَّ كلاًّ إذا أضيفت إلى مؤنَّثٍ قد تؤنَّث نادراً، فيقال: كُلُّهُنَّ فَعلْنَ ذلك، فليُعْلَمْ والله عزَّ وجلَّ أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلم فلا يعزُبُ عن علمه سبحانه شيءٌ من الأشياء ﴿خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ يعلم بَوَاطِنَها كما يعلم ظواهِرَها، فالجمعُ بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علمِ الظاهر والباطن عنده عز وجل، والجملةُ - على ما قيل - في موضع التعليل لعلمه سبحانه بما ذكر.

---

(١) مسند أحمد (١٥٥٣٩)، وسنن الترمذي (٢١٤٧)، وسنن ابن ماجه (٢٢٦٣). قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وأبو عزة له صحبة، واسمه يسار بن عبد.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٠٥.

(٣) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٧، والبحر ٧/ ١٩٤، والكلام منه.

وقيل: جوابُ سؤالٍ نشأ من نفي دراية الأنفس ماذا تكسبُ غداً، وبأيِّ أرضٍ تموت، كأنه قيل: فَمَن يعلم ذلك؟ فقيل: «إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ» وهو جوابٌ بأنَّ الله تعالى يعلم ذلك وزيادةً.

ولا يخفى أنه إذا كانت هذه الجملةُ من تتمَّةِ الجملتين اللتين قبلها كانت دلالةُ الكلام على انحصار العلم بالأمرين اللذين نُفي العلمُ بهما عن كلِّ نفسٍ ظاهرةً جدّاً، فتأمَّلْ ذاك والله عزَّ وجلَّ يتولَّى هُداك.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في السورة الكريمة: ﴿الٓمٓ﴾ إشارةٌ إلى آلائه تعالى، ولُطْفِه جلَّ شأنُه، ومَجْدِه عز وجل.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ بحضور القلب والإعراض عن السِّوَى، وهي صلاةُ خواصِّ الخواصِّ، وأمَّا صلاةُ الخواصِّ فبِنَفْي الخطراتِ الرَّدِيَّةِ والإرادات الدنيوية، ولا يضرُّ فيها طلبُ الجنة ونحوُه، وأمَّا صلاةُ العوامِّ فما يفعله أكثر الناس، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ ببذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود، وهي زكاةُ الأخصِّ، وزكاةُ الخاصة ببذل المال كلِّه لتصفية قلوبهم عن صدأ محبة الدنيا، وزكاةُ العامة ببذل القَدْرِ المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهورِ لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ هو ما يشغلُ عن الله تعالى ذكره، ويحجُبُ عنه عزَّ وجل استماعه، وأما الغناءُ فهو عند كثيرٍ منهم أقسامٌ منها ما هو من لهوِ الحديث، ونَقَل بعضهم عن الجنيد قدِّس سرُّه أنه قال: السماعُ على أهل النفوس حرامٌ لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباحٌ لوفورِ علومهم وصفاءِ قلوبهم، وعلى أصحابنا واجبٌ لفناء حظوظهم.

وعن أبي بكر الكنانيِّ: سماعُ العوامِّ على متابعة الطبع، وسماعُ المريدين رغبةٌ ورهبةٌ، وسماعُ الأولياء رؤيةُ الآلاء والنعم، وسماعُ العارفين على المشاهدة، وسماعُ أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكلٍّ من هؤلاء مصدرٌ ومقام.

وذكروا أنَّ من القوم مَن يسمعُ في الله وللهِ وبالله ومن الله جل وعلا، ولا يسمع بالسمع الإنسانيِّ بل يسمعُ بالسمع الربانيِّ، كما في الحديث القدسيِّ: «كنتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به»(١).

وقالوا: إنما حرِّمَ اللهوُ لكونه لهواً، فَمَنْ لا يكون لهواً بالنسبة إليه لا يحرُمُ عليه؛ إذ علةُ الحرمة في حقِّه منتفيةٌ، والحكم يدورُ مع العلة وجوداً وعدماً. ويلزمُهم القولُ بحِلِّ شُرْبِ المُسْكِرِ لمن لا يُسْكِرُه، لا سيما لمن يَزيدُه نشاطاً للعبادة مع ذلك، ومن زنادقة القلندرية(٢) مَن يقول بحِلِّ الخمر والحشيشةِ ونحوِها من المُسْكِرات المحرَّمةِ بلا خلافٍ، زاعمين أنَّ استعمال ذلك يفتحُ عليهم أبوابَ الكشوف، وبعضُ الجهلة الذين لعب بهم الشيطانُ يطلبون منهم المددَ في ذلك الحال، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي إدراكُ خطابِ الحقِّ بوصف الإلهام، وذكروا أنَّ الحكمة موهبةُ الأولياء كما أنَّ الوحي موهبةُ الأنبياء عليهم السلام، فكلٌّ ليس بكسبيٍّ، إلا أنَّ للكسب مدخلاً ما في الحكمة، فقد ورد: «مَن أَخْلَصَ لله تعالى أربعين صباحاً تفجَّرتْ ينابيع الحكمة من قلبه»(٣).

والحكمةُ التي يزعم الفلاسفة أنها حكمةٌ ليست بحكمةٍ؛ إذ هي من نتائج الفكر، ويؤتاها المؤمنُ والكافر، وقلَّما تسلَمُ من شوائب آفات الوهم، ولهذا وقع الاختلافُ العظيم بين أهلها، وعدَّها بعضُ الصوفية من لهو الحديث، ولم يَبْعُدْ في ذلك عن الصواب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وسلف ١/ ١٣٢ و٤/ ١٥٥.

(٢) هم طائفة يحلقون ذقونهم، ويقولون إن رسول الله ﷺ أطعم شيخهم قلندر عنباً، وكلَّمه بلسان العجم، وقد سئل عنهم ابن تيمية فقال: هم من أهل الضلالة والجهالة، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله، لا يرون وجوب الصلاة ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله، وقد يكون فيهم من هو مسلم، لكن مبتدع ضال أو فاسق فاجر، ومن قال: إن قلندر موجود في زمن النبي ﷺ، فقد كذب وافترى. مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦٣.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٥٠٧) و(١٥٠٨) و(١٥٠٩) من حديث أبي أيوب وأبي موسى وابن عباس ﭫ، ثم قال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأشارت قصة لقمان إلى التوحيد ومقامِ جَمْعِ الجمع وعَينِ الجمع، واتِّباعِ سبيل الكاملين، والإعراض عن السِّوى وتكميلِ الغير، والصبرِ على الشدائد، والتواضعِ للناس، وحُسْنِ المماشاة والمعاملةِ والسيرةِ، وتركِ التماوُتِ في المشي، وتركِ رفع الصوت.

وقيل: «الحمير» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هم الصوفيةُ الذين يتكلَّمون بلسان المعرفة قبل أن يؤذَن لهم. وطبَّق بعضهم جميع ما في القصة على ما في الأنفس.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال الجنيد: النعمُ الظاهرةُ حُسْنُ الأخلاق، والنعمُ الباطنة أنواعُ المعارف.

وقيل على قراءة الإفراد: النعمةُ الظاهرة اتِّباعُ ظاهر العلم، والباطنةُ طلبُ الحقيقة في الاتِّباع.

وقيل: النعمةُ الظاهرة نَفْسٌ بلا زلَّةٍ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلةٍ.

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ يشيرُ إلى أهل الجدل من الفلاسفة، فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ كذلك عند التحقيق؛ لأنهم لا يعتبرون كلامَ الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا الكتبَ المنزلةَ من السماء، وأكثرُ علومهم مشوبٌ بآفةِ الوهم، ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طورٌ ما وراء طور العقل:

هيهاتَ أن تصطاد عنقاءُ البقا ... بلعابهنَّ عناكبَ الأفكار[1]

وأبعدُ من محدَّب الفَلَكِ التاسع حصولُ علمٍ بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته جلَّ شأنه يُعتدُّ به بدون نورٍ إلهيٍّ يستضيء العقلُ به، وعقولُهم في ظلماتٍ بعضُها فوق بعضٍ، وقد سدَّتْ أبوابُ الوصول إلَّا على متَّبعٍ للرسول ﷺ. قال بعضهم مخاطباً لحضرة صاحب الرسالة ﷺ:

وأنت بابُ الله أيُّ امرئٍ ... أتاه من غيرك لا يَدْخُلُ

(١) سلف ١١٨/١٣.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه سبحانه تمامٌ وفوق التمام، والمرادُ بالأول: مَن حصل له كلُّ ما جاز له، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ والمراد بالثاني: مَن حصل له ذلك وحَصَل لِمَا عداه ما جاز له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ووراء هذين الشيئين ناقصٌ وهو ما ليس له ما ينبغي كالصبيِّ والمريض والأعمى، ومُكْتَفٍ وهو مَن أعطي ما تندفعُ به حاجتُه في وقته كالإنسان الذي له من الآلات ما تندفعُ به حاجته في وقته، لكنها في معرض التحلُّل والزوال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية ذَكر غيرُ واحدٍ حكاياتٍ عن الأولياء متضمِّنةً لإطْلاع اللهِ تعالى إياهم على ما عَدَا عِلْمِ الساعة من الخمس، وقد علمتَ الكلام في ذلك.

وأغربُ ما رأيتُ ما ذكره الشعرانيُّ عن بعضهم أنه كان يبيع المطر، فيُمْطِر على أرض مَن يشتري منه متى شاء، ومَن له عقلٌ مستقيم لا يقبل مثلَ هذه الحكاية. وكم للقُصَّاص أمثالها من روايةٍ، نسألُ الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من اعتقادِ خرافاتٍ لا أصل لها، وهو سبحانه وليُّ العصمة والتوفيق.